

أعرف رسولك ﷺ

الجُلو العَظِيمُ في حَمْدِ رَسولِ الكَرِيمِ ﷺ

تأليف
الأستاذ الدكتور محمود بن يوسف فجال

المستشار في وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

والأستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقاً

عَمَّاس
للإعلام والنشر والتوزيع

الْحَقُّ الْعَظِيمُ
فِي حُرُوبِ السُّوَالِ الْكَبِيرِ

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
للتواصل
iwan.anas@hotmail.com



للشؤون والنزوح والدعوة والإعلان

الكويت - الشويخ - شارع الصحافة - مقابل مطابع الرأي العام التجارية

هاتف: ٢٤٨١٩٠٣٧ - ٢٤٨٤٤٧٤٣ فاكس ٢٤٨٣٨٤٩٥

الكويت الخالدية: ص.ب: ١٧٠١٢ - الرمز البريدي: ٧٢٤٥١

بدالة المطبوعات 24810010 - الكويت

فرع القاهرة: الأزهر - شارع المطار - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢٢٤٩٩٨٣٥٦ - ٠٠٢٠١٢٦٣٠٤٠٧٥

Website: www.gheras.com

E-Mail: info@gheras.com



أُرَاكَ تَزِيدُنِي عَيْنِي جَمَالًا وَأَعْشُقُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْكَ حَالًا

تفريظ الدرّة العصماء، وصاحب الهمة القعساء، زينة الفقهاء
من عزّ في الأدب نظيره، وقلّ في الأصول مثيله
الأستاذ الدكتور الشيخ علي بن سعد الضويحي سلّمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله الطيبين
الطاهرين، وأصحابه الغرّ الميامين، ومن تبعهم واقتفى آثارهم بإحسان إلى يوم الدين.
أمّا بعد: فقد ألّف أخي الكبير العالم النحرير الأستاذ الدكتور محمود بن يوسف
فجّال كتابًا يتعلّق بجانب مهمّ من السيرة العطرة لنبينا الحبيب - عليه أفضل الصلاة وأتمّ
التسليم - أسماه: «الخلق العظيم في حروب الرسول الكريم ﷺ» وحين قرأت هذا
الكتاب حرفًا حرفًا، وكلمةً كلمةً، وسطرًا سطرًا، بعرضه الرائع، وأسلوبه الماتع،
وترتيبه الجامع، دُهِشت من براعة الاستهلال، ودقّة الاستدلال، وعذوبة المقال، وذلك
كله ليس بمستغرب، فهكذا هو الشأن في الأخ الكريم فجّال، إذا تكلم أقنع، وإذا
كتب أبدع.

ولا شكّ في أنّ من اطلع على هذا الكتاب، وقرأه بإمعان فسيجد نور النبوة يشعّ
من جنباته، وسيعيش أجمل أوقات حياته في رحاب النبي القائد والمحارب الرائد الذي
يجب أن تتعلّم المؤسسات العسكرية في جميع أنحاء الدنيا من خلقه العظيم وسيرته العطرة
المباركة ما تكون به الحروب سبيلًا لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، ووسيلة لإقامة بناء
الفضيلة، وتقويض جسور الرذيلة.

فأسأل الله - تعالى - بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلا، أن يجعل هذا الكتاب
ذخيرة لمؤلّفه يوم الحساب، وأن يجزل له به الأجر والثواب، وأن يجعله سبيلًا لمرافقة نبيّه
- عليه الصلاة والسلام - في الفردوس الأعلى من الجنّة، إنّه - تعالى - أكرم مسؤول
وأعظم مأمول.

وكتبه

٢٥ / ٥ / ١٤٣١ هـ

أ. د. علي بن سعد الضويحي

عضو هيئة كبار العلماء سابقًا
وعضو هيئة التدريس بكلية الشريعة في الأحساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ،
وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، ومن تبعهم
واقبقت أثارهم بإحسانه إلى يوم الدين . أما بعد :
فقد ألف أهي الكبير العالم الخبير الأستاذ الدكتور / محمود بن
يوسف فجل كتاباً يتعلوه بجانب مهم من السيرة العطرة لنبينا الحبيب
عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، أسماه : « الخلق العظيم في حروب
الرسول الكريم » ، وهذه قرأت هذا الكتاب حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ،
وسطراً سطراً ، بعرضه الرائع ، وأسلوبه الممتع ، وترسيبه الجامع ، ذهنتنا
من براعة الاستدلال ، ودقة الاستدلال ، وغزوبة المقال ، وذلك
كله ليس مستغرباً فهكذا هو الشأن في النسخ الكريم الفجاء إذا تكلم
أقنع ، وإذا كتب أبدع .

ولا شك في أنه من أطلع على هذا الكتاب وقرأه بالمعاني
فيجد نور النبوة يشع من جنباته ، وسيعيده أجمل أوقات
حياته في رهاب النبي القائد والمحارب الرائد الذي يجب أن نتعلم
المؤسسات العسكرية في جميع أنحاء الدنيا من خلقه العظيم وسيرته
العطرة المباركة ما تكون به الحروب سبيلاً لإحقاق الحق وإزهاق
الباطل ، ووسيلة لإقامة بناء الفضيلة وتقوية جوار الرزيلة .
فأسال الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل هذا
الكتاب ذخيرة لمؤلفه يوم الحساب ، وأن يجعل له به الأجر والثواب ،
وأن يجعله سبباً لمرافقة نبيه عليه الصلاة والسلام في الفردوس
الأعلى من الجنة ، إنه تعالى أكرم مؤول وأعظم مؤول .

ولتبه

د/ علي بن عبد الصومي

عضو هيئة كبار العلماء سابقاً ، وعضو

هيئة التدريس بكلية الشريعة بالأهواز

ع/ ١٤٢١/٥

تقريظ الأستاذ النابه الشيخ عبدالله بن محمد الغميجان ، سلمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلوات ربي وسلامه ونعمياته وبركاته على خاتم الأنبياء والمرسلين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فقد أتخفني الأستاذ الكبير واللغوي البارع الدكتور محمود بن يوسف فجال بإطلاعي على مسودة كتابه النافع : « الخلق العظيم في حروب الرسول الكريم ﷺ » الذي انتخب فيه من النصوص الشرعية ، والمواقف النبوية المتصلة بخلق النبي الكريم ﷺ وتعامله مع أهله وأصحابه وأعدائه في سلمه وغزواته وسراياه وبعوثه ، ووفاته بمهوده واتفاقاته وعقوده .

وقد قرأتُ الكتابَ كلَّه وأنعمت النظر فيه فألفيته كتابًا ممتعًا ، ومؤلفًا جامعًا ، سهل العبارة ، قريب التناول ، كثير الشواهد ، بذل مؤلفه جهدًا كبيرًا في جمع مادته ، وتمحيص معلوماته ، وتعظيم فوائده ، وتكثير فرائده ، يجد فيه القارئ بغيته علمًا وحكمةً وهديًا وخلقًا وأدبًا وسنًا .

وهذا الكتاب يتناول موضوعًا مهمًا للكبار والصغار والخاصة والعامة ، هو موضوع الأخلاق والقيم والمبادئ ؛ لأن هذا هو الذي يضبط حياة الناس وعلاقتهم ، ويُحكم تصرفاتهم، فلا يمكن لحياة أن تستقيم بلا أخلاق ، ولا مبادئ ولا قيم يصار إليها، ولذلك مدح الله - عز و علا - نبيه محمدًا ﷺ بقوله: (وإنك لعلی خلق عظیم) . فشكر الله للمؤلف جهده المبارك وزاده توفيقًا وتسديدًا ، والله - سبحانه - هو الموفق والهادي إلى الصراط المستقيم ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

وكتبه

عبد الله بن محمد الغميجان

الرياض ٢٨ / ٣ / ١٤٣٢ هـ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله حمدًا يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد صاحب الخلق العظيم في الحرب والسلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين الذين اقتفوا أثره، واقتدوا بأخلاقه فكانوا القدوة الصالحة للعالمين.

أما بعد : فإن أخلاق الرسول ﷺ في الحرب ذات قيمة من جهة القدوة العسكرية، لا تعادلها قيمة أخرى، ولكن لم تُدرس بأسلوب يجلي الناحية الخلقية في حروب الرسول ﷺ بطريقة متخصصة، فُتبرز الجانب الأخلاقي في الحروب النبوية بطريقة واضحة، وبصورة تجسد أخلاق الرسول ﷺ وأصحابه - رضوان الله عليهم - في حياته.

أجل. لقد بحث علماء السيرة والمغازي الغزوات والسرايا بإطناب، وباختصار، وعُنوا بالروايات والألفاظ، وبالتوثيق والتدقيق، مع النقد البناء.

والقارئ يخرج من قراءة السيرة بمعلومات قيمة، ولكن من دون أن يلمّ بجميع الأخلاقيات العالية التي تستفاد منها سوى شذرات لطيفة.

وإبراز الجانب الخُلُقِيّ في أحداث العهد النبوي، هو الجانب الذي يُوتي ثماره، ويعطي النتائج الصادقة عن خلق الرسول العظيم ﷺ، وتحليقه في

أعلى مستويات الأخلاق الفعلية، فبرود أخلاقه ﷺ الأنيقة للقلوب محببة، بالإضافة إلى اللفات الخلقية القولية، وعود ألفاظه إذا ابتسمت كسدّ نظيم اللؤلؤ والمرجان، فالأخلاق في العهد النبوي كالحور المقصورات في الخيام.

وكم في سيرته الشريفة من إشارات منيفة؟! وجميعها ناطق بالعظات، وعند سماعها تُسكب العبرات.

وكم في بديهته من لمحات تُرشفُ ظمأ الأسماع فهماً زلاً؟!!

أما الاستنباط الفقهي من غزوات الرسول ﷺ فهو موجود في القديم والحديث.

ولكن التحليل الخُلقيّ هو الذي يحتاج إليه القارئ، سواء كان القارئ مؤمناً أو غير مؤمن، فإن كان مؤمناً فسيزداد إيمانه، وإن كان غير مؤمن - وهو ينشد الحق، ويبحث عنه - فسيخالط الإيمان شغاف قلبه.

وإن كان استنباط الجانب الخُلقي لا يخفى على القارئ الفطن المنصف، فالخلق العظيم نابغ من ذاته الشريفة ﷺ لا يخفى على ذي بصيرة.

فالغزوات تشتمل على دروس في الأخلاق تتعطر بفضائلها المجامع، وتتفكّه بثمرات آدابها المسامع. ونحن وإن لم يشأ الله ﷻ أن نكون في زمنه فنشاهد بالأبصار هاتيك اللطائف النبوية، والكمالات والأخلاق العظيمة في حروبه، إلا أن سماع الأخبار من ثقة هي إحدى الرؤيتين.

أمّا أخلاق أصحابه فتتجلّى فيهم على حسب المنهج الذي رسمه لهم

رسولُ الله ﷺ، لأنهم تعلقوا بذاته، وتخلقوا بصفاته، وبقلبه وعقله، وبحركاته وسكناته، وبسمته ودلّه، وبقوله عن مُشَامَةِ^(١)، وبفعله عن مشافهة، فاستنشقوا عبيرَ الجمالِ الخُلقي، والكمالِ الإنساني، النابع من فطرته الذاتية التي فطره الله - سبحانه وتعالى - عليها.

فحينما ارتبطوا بالرسول الكريم ﷺ هذا الارتباط الوثيق، وتمسكوا بهديه أصبحوا لا يتحركون إلا لله - سبحانه وتعالى - : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦٢).

ولقد ثبت في الصحيح عن حَنْظَلَةَ الأَسِيدِيّ (وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ). قال : لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة؟ قلت : نافق حنظلة.

قال : سبحان الله ! ما تقول؟ قلت : نكون عند رسول الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بالنار والجنة حتى كأننا رأيَ عينٍ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعة^(٢) نسينا كثيرا. قال أبو بكر : فوالله إنا لنلقى مثلَ هذا.

فانطلقتُ أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ. قلت : نافق حنظلة يا رسول الله !

فقال رسولُ الله ﷺ : « وما ذاك ؟ ».

قلت : يا رسولَ الله نكونُ عندك تُذَكِّرُنَا بالنار والجنة حتى كأننا رأيَ عينٍ،

(١) المُشَامَةُ: من شامتُ فلاناً إذا قاربته ودنوت منه وتقرّفتُ ما عنده، وهي مفاعلة من الشَّم،

كأنك تَشُمُّ ما عنده، وَيَشُمُّ ما عندك. « لسان العرب » (شمم ١٢ : ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢) الضيعة: جمع ضَيْعَة، وهي الحرفة أو الصناعة. ومنه: (كلُّ رجلٍ ضيعة). « المصباح ».

فإذا خرجنا من عندك عَافَسْنَا الأزواجَ والأولادَ والضعياتِ، نسينا كثيراً.

فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكرِ لَصَافِحْتَكُمْ الملائكةُ على فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، ولكن يا حنظلة ساعةً وساعةً « ثلاثَ مرارٍ (١) .

لذلك صار كل واحد منهم يختصُّ بصفة نادرة اكتسبها منه ﷺ، تعطينا نكهة من نكهاته، وخُلُقًا من أخلاقه، ومذاقًا عذبًا من لطائفه .

لذا تجد كل واحد من أصحاب الرسول ﷺ قد اكتسب من صفاته الجامعة خُلُقًا من أخلاقه، ونُخْصلة من خصاله، فحاز فيها قصب السُّبُق، فسبق مَنْ جراه، وعلا من ساماه .

فكان فيهم الصديق، والفاروق، وذو النورين، وباب العلوم، وأسد الله وأسد رسوله، وسيف الله المسلول، وأمين الأمة، وصاحب سرِّ رسول الله ﷺ، والعابد والزاهد والفقير، وغير ذلك .

وكل هاتيك الصفات نابعة منه ﷺ؛ فقد أوتي جوامعَ الكلم، وجوامع الأخلاقِ .

لذا قال أنس رضي الله عنه: « لما كان اليومُ الذي دخلَ فيه النبيُّ ﷺ المدينةَ أضاءَ منها كلُّ شيءٍ، فلمَّا كان اليومُ الذي مات فيه أظلمَ منها كلُّ شيءٍ، وما نَفَضْنَا عن رسول الله ﷺ الأيدي - وإنا لفي دَفْنِهِ - حتى أنكرنا قلوبنا » (٢) .

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب التوبة- باب فضل دوام الذكر والفكر) (٢٧٥٠).

(٢) أخرجه « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب المناقب) (٣٦١٨)، وأخرجه « ابن ماجه » في

« سننه » في (كتاب الجنائز) (١٦٣١).

وبهذا الارتباط بالرسول ﷺ خُلِقًا وترسُّمًا واقتداءً أصبحت تهتزّ النفوس طربًا لذكورهم، وتخفق على هامات مجدهم أعلام المحامد، وتضيء في سماء معاليهم نجوم المجد.

إن من يقارن بين معارك الرسول ﷺ وأخلاقه في غزواته وبين ما عليه الناس اليوم في حروبهم يجد العدالة والمساواة والرحمة والتواضع وحقوق الإنسان في حروبه ﷺ واضحة جلية؛ لأنه المبلِّغ لشريعة الله، الداعي لتوحيد الله، الحريص على إفهام الناس أنه بشر. قال تعالى: ﴿ قَدْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ٩٣).

وقد علّمنا فخر الكائنات ﷺ أن الإسلام دين المنطق والعقل، ودين الفطرة السليمة، كما علّمنا النبي القائد ﷺ أن النصر من عند الله، سبحانه.

أما ما عليه غير المسلمين اليوم من أدياء السلام فتجد في حروبهم الظلم والجهل والغلظة والتكبر، وإهدار حقوق الإنسان. . وتجد ما يندى له الجبين، وتتشعر منه الأبدان. وذلكم وصمة عار وشنار في جبينهم إلى أن تقوم الساعة.

□ وقد سرت في البحث على المنهج الآتي :

١- حاولت ذكر أخلاق الرسول ﷺ في الحروب مسلطًا الضوء على تربية الرسول ﷺ الناجعة، والأخلاق الرائعة التي جاء بها صاحب الرسالة العصماء ﷺ التي نقل بها أصحابه من الغي إلى الرشاد. وقد ظهر لي أن النبي ﷺ جاء بكنوز حافلة بالنفائس، كما أن أصحابه ﷺ ضربوا الأمثال في القدوة الصالحة، والاتباع الحسن.

٢- اجتهدت في ترتيب الموضوعات على حسب ما وفقني الله إليه، ولم أقصد إلى ترتيب معين في تقديم خلق على خلق، أو تقليد مثال سبق.

- ٣- حرصتُ على توثيق نصوص السيرة بذكر مصادرها من السيرة النبوية، وبتخريجها من مصنفات الحديث النبوي، وتحريثُ الصحيح والحسن، وهجرتُ الضعيف والموضوع.
- ٤- ألمعت بذكر الغزوة أو السرية التي أشرت فيها إلى خلقٍ من أخلاق الرسول ﷺ أو أصحابه ﷺ في الحروب.
- ٥- استخلصتُ العبر والعظات من أحداث السيرة النبوية، واستنبطت بعض الأحكام من الأحاديث النبوية.
- ٦- عُنت بشرح غريب اللغة، والأماكن، والقبائل، وضبطت ما أراه مهمًا.
- ٧- لم أقم بعقد مقارنة بين الأخلاق النبوية وما كانت عليه الجاهلية الأولى، ولا بعقد موازنة بين ما أرسل النبي ﷺ به رحمةً للعالمين وبين ما تغنت به أوروبا بفتوحاتها وبطولاتها التي تعجُّ أحداثها بنقض العهود المبرمة، وعدم الاعتداد بحقوق الإنسان، وبقسوتهم على البشرية، والوحشية النادرة في حرق المدن والنساء والأطفال والشيوخ والمرضى - بالمواد الحارقة الممنوعة دوليًا، وهم يتشَقَّقون في متعة ظالمة آثمة، كما أنهم يتلذذون بأنين المصابين، وعويل النساء، وبكاء الأطفال المنكوبين، وتشويه الأسرى، ويتفنون في تعذيبهم، ويضطربون في التمثيل بالقتلى.
- كان عدم خوضي في ذلك لأن العالم بأسره يعلم ما يحدث وما يجري من هذه الجهالات عن طريق القنوات الفضائية، فهي حديث الناس في مجتمعاتهم وندواتهم، يلعنونهم ويسخرون من كذبهم في دعوتهم إلى تحقيق حقوق الإنسان، وهم الذين أضاعوا حقوق الإنسان.

□ خطتي في البحث:

لما رأيت جهل أولئك الناس الذين يطعنون بشخصية الرسول الأعظم ﷺ

ولا يعرفون شيئاً عن أخلاقه العظيمة أردت أن أكشف اللثام عن حقيقة خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ وعن أصحابه البررة ﷺ في جانب خطير من جوانب سيرته العطرة، وهو حروبه وغزواته .

كما كان من أولئك النفر الذين وقفوا في وجه دعوته والصدِّ عنها .

ليعلم أولئك النفر الجهال من صناديد قريش الذين همُّوا مراراً بقتل مَنْ يدعوهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، صاحب الرسالة العظمى، والقلب الرحيم، والخُلُقِ العظيم، المعروف عندهم بـ (الصادق الأمين).

كما كان من أولئك الذين عذَّبوه وأخرجوه وأخرجوا أصحابه من ديارهم، وسلبوهم أموالهم وأراضيهم، وساموهم سوء العذاب، عنادًا وتعنتًا وتكبرًا، عزمْتُ أن أكتب في هذا الموضوع الموسوم بـ « الخلق العظيم في حروب الرسول الكريم ﷺ »

أذودُ فيه عن حياض صفوة الخلق وحيب الحقِّ سيّد الرسالة العصماء نبينا محمد ﷺ، لما ترسَّخ في حشاشة القلب من حبِّ للرسول ﷺ وآله وصحبه ﷺ، وأعرف من نفسي أنني لست من فرسان هذا الميدان، ولا من ربَّان هذه السفينة، وما أحسنَ قولَ القائلِ في هذا المقام!

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنَّ التشبُّه بالكرامِ فلاحُ

فانشرح صدري فتوكلت على الله ﷻ للإبحار في عُباب هذا البحر اللُّجِّي؛ لاقتناص جواهره، والتقاط لآله، فتفاعلتُ في هذا الموضوع وأعطيته كلِّي، وصرْتُ أعيش مع أحداث السيرة النبوية ليلاً ونهاراً، يقظةً ومناماً فخامر عقلي، وحرَّك وجداني حتى ظهر بهذه الصورة. وقد وزعته على

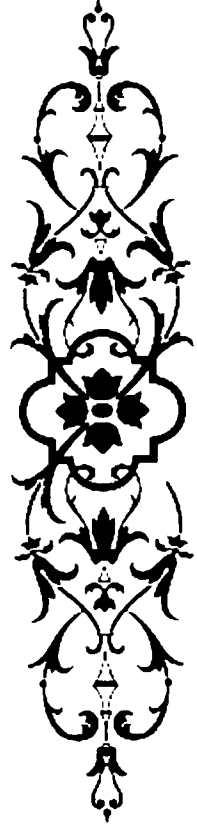
أربعة عشر مبحثًا، وهي :

- ١ - صفات القائد .
 - ٢ - القتال .
 - ٣ - الشورى .
 - ٤ - تعاليم الرسول ﷺ .
 - ٥ - الأسرى .
 - ٦ - الجوار .
 - ٧ - المعاهدات .
 - ٨ - الكتمان .
 - ٩ - سماحة الإسلام .
 - ١٠ - التكافل الاجتماعي .
 - ١١ - الشائعات .
 - ١٢ - الصدق .
 - ١٣ - العفو .
 - ١٤ - الدعاء والانكسار سرّ النصر .
- والله أسأل أن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير .
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

الأستاذ الدكتور محمد وفّال

المبحث الأول
صفات القائد



اعرف نبيك ﷺ

□ اسمه ونسبه ﷺ :

هو سيدنا أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب^(١) بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ﷺ^(٢) . . . ابن إسماعيل بن إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام. . .

قريش خيار بني آدم وخير قريش بنو هاشم
وخير بني هاشم أحمد رسول الإله إلى العالم

وأُم سيدنا رسول الله ﷺ هي: آمنَةُ بنتُ وَهَبِ بنِ عبدِ منافِ بنِ زُهْرَةَ بنِ كلابِ بنِ مُرَّة. ولم يكن لآمنة زوجٌ غيرَ « عبد الله » والدر رسول الله ﷺ لا قبله ولا بعده، ومات أبواه في حدّ الطفولة ﷺ^(٣).

ومما يلزم معرفته وتعلمه من علم النسب هو أن يعلم المرء أن سيدنا محمدًا ﷺ الذي بعثه الله -تعالى- إلى الجنِّ والإنس بدين الإسلام، هو محمد

(١) هذا النسب الشريف كما ذكره « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب مناقب الأنصار - ٢٨ باب مبعث النبي ﷺ) و(كنيته أبو القاسم) كما في « صحيح البخاري » (٣٥٣٧).

(٢) هؤلاء ولد « فهر بن مالك » هم قريش، لا قريش غيرهم، ولا يكون قريشي إلا منهم، ولا من « فهر » أحدٌ إلا قريشي. « جمهرة أنساب العرب » (١٢) و« فهر » اسمه « قريش ».

(٣) انظر « جمهرة أنساب العرب » (١٧).

ابن عبد الله القُرشيُّ الهاشميُّ الذي كان بمكة ورحل منها إلى المدينة^(١).
وقد أُوحى إليه وهو ابنُ أربعين سنة، فمكث بمكة ثلاثَ عشرةَ سنة، ثم أُمرَ
بالهجرة إلى المدينة فمكث بها عشرَ سنين، ثم توفي ﷺ وهو ابنُ ثلاثٍ وستين
سنة^(٢).

وقد اتَّفقتْ ولادتهُ وهجرته ووفاته ﷺ في يوم الاثنين من شهر ربيع
الأول^(٣).

رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن أبا بكر كان يصلي بهم صلاةَ
الفجر من يوم الاثنين في وجع النبي ﷺ الذي تُوفي فيه، وهم صفوف
في الصلاة فكشَفَ النبيُّ ﷺ سِتْرَ الحُجْرَةِ (حُجْرَةَ عائِشَةَ) ينظُرُ إلينا (في
صفوف الصلاة) وهو قائم كأنَّ وجهَهُ ورَقَةٌ مُصْحَفٍ، ثم تَبَسَّمَ يَضْحَكُ،
فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتِنَ من الفَرَحِ برؤية النبيِّ ﷺ فنكص أبو بكر رضي الله عنه على عَقْبِيهِ
ليَصِلَ الصَّفَّ، وظنَّ أن النبيَّ ﷺ خارجٌ إلى الصلاة، فأشار إلينا النبيُّ ﷺ أن
أتموا صلاتكم (ثم دخل رسول الله ﷺ) وأرْحَى السِّتْرَ، فتُوفِّي رسول الله ﷺ
من يومه ذلك.

وفي رواية: « فلما وَضَحَ وَجْهُ النبيِّ ﷺ ما رأينا منظراً قَطُّ كان أعجَبَ إلينا
من وَجْهِ النبيِّ ﷺ حين وَضَحَ لنا »^(٤). قال « حَسَّانَ » رضي الله عنه:

(١) انظر مقدمة « جمهرة أنساب العرب » (٢).

(٢) كما في « صحيح البخاري » (٣٥٣٦) و(٣٨٥١).

(٣) « لباب الخيار » (١٢٧).

(٤) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الأذان - باب أهل العلم والفضل أحقُّ بالإمامة)

(٦٨٠، ٦٨١) وفي (كتاب المغازي - باب مَرَضِ النبيِّ ﷺ ووفاته) (٤٤٤٨) و« مسلم » في

« صحيحه » في (كتاب - باب استخلاف الإمام...) (٤١٩).

متى يبْدُ في الدَّاجي^(١) البهيمِ جبينه يُلخ مثل مصباحِ الدُّجى المتوقِّدِ
لَحَظَ الصَّحَابَةُ ﷺ بعيونهم إشراقَةً وجهه، ونورَ ابتسامته فكادوا يفتنون
فرحاً، وتهلَّلت وجوههم بِشراً، وقد سمع النبي ﷺ صوت الذكر والتسبيح،
وكانت آخرَ نظرة منه على صلاتهم، وآخرَ نظرة منهم إلى وجهه الوضاء، ولحق
من يومه إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرِّسالة، وأدى الأمانة، ونصَّح الأمة،
وكشَفَ الله - تعالى - به العُمَّة ﷺ.

صفات الرسول ﷺ قائداً

القائد لا يمكن أن يكون عظيمًا ما لم يكن على خلق عظيم. وقد أجمع
الثقات والمؤرخون على ذلك، فإن قوَّة الخلق كانت دائماً في مقدمة خصائص
القادة العظام.

□ ومن أهم الأخلاق ما يأتي:

١ - الشخصية:

كان الرسول ﷺ يتحلَّى بشخصية قويّة نافذة. فقد كان ﷺ متواضعاً حليماً
رؤوفاً رحيماً، ومع ذلك لا يستطيع أحدٌ أن يرفع صوته فوق صوته ﷺ، ولا
يستطيع أحدٌ أن يديم النظر فيه لقوة مهابته، ومزيد وقاره. ولا يستطيع أحدٌ أن
يردّ له أمراً أو يتردّد في تنفيذه.

إنّ من أسباب قوَّة شخصيته ﷺ خلقه العظيم، ومن خُلُقِه محبّته للناس

(١) الدَّاجي: الليل. «ديوانه» (١٥٤).

جميعاً، ورغبته في خيرهم وهدايتهم.

ولقد أرسلت قريش « عروة بن مسعود الثقفي » لمفاوضة الرسول ﷺ يوم الحديبية، فعاد إلى قريش يقول : « يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومٍ قط مثل محمّد، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا أمرهم أمراً ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وإنهم لن يسلّموه لشيء أبداً » (١).

بهذا الوصف الرائع يصفُ مشرك^(٢) من أعداء الرسول ﷺ شخصية النبي الكريم ﷺ. فلا غرو أن تكون له كلُّ هذه الشخصية الفذة بكلِّ هذا النور والجلال.

ومما قالت « أمُّ معبد » رضي الله عنها في وصفه : « إن صمّت فعليه الوقار، وإن تكلم سمّاه وعلاه البهائم، له رُفقاء يحقّون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره » (٣).

ومما قال « عليّ » رضي الله عنه في وصفه : « أجودُ الناس صدراً، وأصدقُ الناس لهجةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشيرةً، مَنْ رآه بديهته هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه » (٤).

(١) سيأتي تخريجه في « صلح الحديبية ».

(٢) « عروة بن مسعود » كانت له اليد البيضاء في تقرير الصلح وكان أحدَ الأكابر من قومه. أتبع أثر النبي ﷺ لما انصرف من الطائف فأسلم. وقتله رجلٌ من ثقيف لما دعاهم إلى الإسلام، وقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ. « الإصابة » (٤ : ٤٩٢).

(٣) أخرجه « الحاكم » في « المستدرک » في (كتاب الهجرة) (٣ : ٨).

(٤) « الأنوار في شمائل النبي المختار » (١ : ٣٥١).

ومما يدلّ على قوّة شخصيته ﷺ أنه بعد وصوله إلى أعلى مراتب النصر لم يتغيّر حاله في مسكنه وملبسه ومأكله ومشربه، لقد ظلّ في حياته كما كان في أوّل أيامه يوم أن كان يتيماً، فكلّما انتصر في معركة ازداد تواضعاً ففي يوم فتح مكة أحنى ﷺ رأسه على رَحله، وبدا عليه التواضع الجَمّ حتى كادت لحيته تمسّ واسطة رحله^(١).

٢ - الشجاعة :

فقد كان الرسول ﷺ من الشجاعة بالمكان الذي لا يُجهل، قد حضر المواقف الصعبة وفَرَ الكُماة والأبطال عنه غيرَ مرّة وهو ثابت لا يبرح، ومُقبل لا يُدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أُحصيت له فرّة، وحُفظت عنه جولة سيّواه.

ثبت في الصحيح أنه جاء رجلٌ إلى البراء، فقال : أكنتم وليّتم يوم حنين؟ يا أبا عُمارة! فقال : أشهدُ على نبيّ الله ﷺ ما ولى . ولكنه انطلق أخفاءً من الناس، وحسّر إلى هذا الحَيّ من هوازن . وهم قومُ رُمّة . فرموهم برشقي من نبلٍ . كأنها رجلٌ من جرّاد^(٢)، فانكشفوا^(٣) . فأقبل القومُ إلى رسولِ الله ﷺ . و« أبو سُفيان بن الحارث » يقدُّ به بغلته . فنزل، ودعا، واستنصر، وهو يقولُ : « أنا النبيُّ لا كذبُ أنا ابنُ عبدِ المُطلب . اللهم نزلْ نصرَكَ » . قال البراءُ : كُنّا، والله إذا احمرَّ^(٤) البأسُ نتقي به . وإنَّ الشجاعَ مِنّا للذي يُحاذي

(١) انظر « الرسول القائد » (٤٣٩).

(٢) (كأنها رجل من جراد) يعني كأنها قطعة من جراد. قال في النهاية: الرجل، بالكسر، الجراد الكثير.

(٣) (فانكشفوا) أي: انهزموا وفارقوا مواضعهم وكشفوها.

(٤) (إذا احمرَّ البأس) احمرار البأس: كناية عن شدة الحرب.

به . يعني النبي ﷺ (١) .

وثبت في الصحيح عن العباس قال : فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مُدْبِرِينَ فطَفِقَ رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بَعْغَتَهُ نحو الكُفَّارِ وأنا آخِذٌ بِلِجَامِهَا أَكْفُهَا إِرَادَةً أَنْ لَا تُسْرِعَ وَأبو سفيانَ (٢) آخِذٌ بِرِكَابِهِ ثم نادى : يا للمسلمين - الحديث (٣) .

إنَّ ثَبَاتَ القَائِدِ مِنْ أَهَمِّ أسبابِ النَّصْرِ، وَثَبَاتَ الرِّسُولِ ﷺ فِي بَدَايَةِ المَعْرَكَةِ وَقَدْ انْهَزَمَ النَّاسُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الرِّجَالَ المَخْلِصِينَ يَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَتِهِ وَالرِّسُولُ ﷺ لَمْ يَثْبُتْ فِي أَرْضِ المَعْرَكَةِ فَحَسَبَ، بَلْ سَارَ بِعَكْسِ اتِّجَاهِ النَّاسِ الفَارِّينَ تَمَامًا، لَقَدْ وَلَّوْا هَارِبِينَ مِنْ وَجْهِ عَدُوِّهِمْ، أَمَا هُوَ فَقَدْ اتَّجَهَ بِبَعْغَتِهِ البِيضَاءَ نحوَ العَدُوِّ (٤) .

قال « ابن كثير » معقبًا على هذا الحَدَّثِ : « وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجري، ولا تصلح لكر ولا لفر... وهو مع ذلك يركضها إلى وجوههم، وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه - صلواتُ الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين - وما هذا كله إلا ثقةً بالله، وتوكلًا عليه، وعلمًا منه بأنه سينصره، ويتم ما

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٧٧٦).

(٢) قوله: وأبو سفيان أخذ بليجامها) هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، واسمه مغيرة. وقيل: اسمه كنيته، كان رضيع رسول الله ﷺ وكان ألف الناس به قبل النبوة. أسلم يوم الفتح بطريق مكة بالأبواء، ومات بالمدينة سنة عشرين.

(٣) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٧٧٥).

(٤) انظر « المدرسة النبوية العسكرية » (٣٤).

أرسله به، وَيُظْهِرُ دِينَهُ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ « (١).

وقال ابنُ عمر رضي الله عنهما : مَا رَأَيْتُ أَشْجَعَ وَلَا أَنْجَدَ وَلَا أَجْوَدَ وَلَا أَرْضَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه : إِنَّا كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ - وَيُرْوَى : اشْتَدَّ الْبَأْسُ - وَاحْمَرَّتِ الْحَدَقُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا.

وقيل : كَانَ الشَّجَاعُ هُوَ الَّذِي يَقْرُبُ مِنْهُ ﷺ إِذَا دَنَا الْعَدُوُّ لِقُرْبِهِ مِنْهُ (٢).

ومن آيات شجاعته ﷺ مَا ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزَعَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرِّي، فِي عُنُقِهِ السِّيفُ وَهُوَ يَقُولُ : « لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا ». قَالَ : وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ. قَالَ : وَكَانَ فَرَسًا يُبْطَأُ (٣).

(١) « تفسير القرآن العظيم » (التوبة: ٢٥).

(٢) انظر « الشفا » (١: ١١٤ - ١١٥).

(٣) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٣٠٤٠) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الفضائل) (٢٣٠٧) واللفظ لمسلم. قوله: وجدناه بحرًا: يعني الفرس. و« أبو طلحة » هو زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي، زوج أم سليم والدة أنس بن مالك. انظر في شجاعته « صحيح البخاري » (٣٨١١) و« صحيح مسلم » (١٨١١).

٣ - الكتمان والمباغلة:

اتخذ الرسول ﷺ أسلوب الرسائل المكتومة للمحافظة على السريّة الشديدة؛ لحرمان الأعداء من الحصول على المعلومات التي تفيدهم عن حركات المسلمين وأهدافهم.

وثبت أنه لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى غيرها^(١).

• ومن أمثلة ذلك:

سريّة^(٢) « عبد الله بن جحش الأسدي » ﷺ فقد بعثه الرسول ﷺ ومعه رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وذلك إمعاناً في السريّة، وحتى لا يعلم أحد إلى أين الاتجاه، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، وأن لا يستكره أحداً من أصحابه، وعندما فضّ الكتاب أخبر أصحابه بأمر الرسول ﷺ فمضوا معه جميعاً إلى وجهته^(٣).

وبهذه الطريقة لم يستطع أحدٌ من أهل المدينة على اختلاف أهوائهم أن يعرف مقصد النبي ﷺ.

حينما أراد الرسول ﷺ فتح مكة أمر أهله بالجهاز ولم يسمّ لهم الجهة التي يقصدها واستعان على أمره بالكتمان، وأمرهم بالجدّ والتهيؤ.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب المغازي - باب حديث كعب بن مالك) (٤٤١٨) ومسلم في صحيحه في (كتاب التوبة) (٢٧٦٩).

(٢) الفرق بين الغزوة والسريّة:

الغزوة: ما كان فيها الرسول ﷺ. السريّة: ما خلا عنها الرسول ﷺ. وربما سموا بعض الشرايا غزوة، كما في غزوة مؤتة. « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » (٣: ٢١٣).

(٣) « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » (٣: ٢١٨).

قال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن جعفر عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تُغربل حنطة ، فقال : ما هذا ؟ أمركم رسول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت : نعم ، قال إلى أين ؟ قالت : ما سمى لنا شيئاً غير أنه قد أمرنا بالجهاز^(١) . ثم أعلمهم ﷺ أنه سائر إلى مكة .

بهذا الكتمان الشديد استطاع الرسول ﷺ أن يحرك جيشاً كبيراً قوامه عشرة آلاف مسلم لفتح مكة من دون أن تعرف قريش وقت حركته حتى وصل الجيش إلى ضواحي مكة ، فاضطرت قريش إلى الاستسلام .

• وكان حفر الخندق في غزوة الأحزاب الذي أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بضرب الخندق على المدينة مباغته في الأسلوب ؛ لأن العرب لم تعرف إنشاء الخنادق لغرض الحماية في الحصار .

إن القائد الناجح هو الذي يتصف بالكتمان ، ويطبّق مبدأ المباغته في معاركه ، والرسول ﷺ طبّق هذا المبدأ في معاركه فكان له أعظم الأثر في النتائج الحاسمة^(٢) .

٤ - الصلابة :

وهي القدرة على تحمّل صدمات الحرب .

ومن صور ذلك :

ما روي أن رسول الله ﷺ خرج في « غزوة أحد » في ألف من أصحابه ،

(١) أخرجه « ابن إسحاق » في « المغازي » بسند صحيح رجاله ثقات « صحيح السيرة النبوية » (٥١٥) .

(٢) انظر « الرسول القائد » (٤٥٣) .

فلما كان بالشوط بين المدينة وأُحد انخزل عنه « عبد الله بن أبيي » بثلاث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ما نَدْرِي علامَ نَقُتَلُ أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ . فرجع بمن أتبعه من قومه من أهل النفاق والرَّيْبِ (١) . ولم يُضعف ذلك عزيمة الرسول ﷺ بل استمر إلى ملاقاته المشركين .

وكذلك لما نقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ في غزوة الخندق لم يبتس ﷺ ولم يتزعزع ولم يتضعع وقال متفائلاً : « الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين » (٢) .

إن خير القواد من كان قوياً لا تهزه كارثته ، ولا توهن عزمه مفاجأة . وإن القائد العظيم هو الذي يعرف في ساعة الشدة ، ولحظة الهزيمة كيف يتصرف في الموقف المتدهور ليقبل الخسائر ، ويحمي جيشه من الضياع .

كما فعل « خالد بن الوليد » ﷺ لما أخذ الراية في غزوة « مؤتة » شرع يقاتل ، ويحتال للخلوص بالجيش من المأزق الحرج الذي وقعوا فيه ، واستفاد من حلول الظلام فأعاد تنظيم قواته القليلة فجعل المقدمة ساقية ، والميمنة ميسرة .

قامت مؤخرة المسلمين بقتال التعويق ، لإحباط مطاردة العدو ، وإنقاذ القسم الأكبر من قوات المسلمين من التطويق الذي يعقبه الفناء ، وقد انتشرت مؤخرة المسلمين في جبهة واسعة ، وأحدثت ضجة عالية ؛ لإيهام العدو بقدوم إمدادات جديدة للمسلمين . فلم يتكبد المسلمون في انسحابهم خسائر تذكر على الرغم من أن حركة الانسحاب من أصعب الحركات العسكرية ، لاحتمال

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ٦٨) .

(٢) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ٢٣٣) .

انقلاب الانسحاب إلى هزيمة، والهزيمة كارثة تؤدي إلى خسائر فادحة بالمنهزمين^(١).

لقد رجَعَ المجاهدون من غزوة مؤتة منتصرين، وأخبرَ الرسول ﷺ الناس في المدينة بالنصرِ والفتحِ قبل أن يرجعَ المجاهدون فقالَ : أخذَ الرايةَ زيدُ فأصيبَ، ثم أخذَ جعفرُ فأصيبَ، ثم أخذَ ابن رواحةَ فأصيبَ، حتى أخذَ الرايةَ سيفٌ من سيوفِ الله حتى فتحَ اللهُ عليهم^(٢).

٥ - تحمّل المسؤولية :

لم يشارك أحدُ الرسول ﷺ في تحمّل المسؤولية العظيمة في أعماله الجهادية وغيرها، وما أعظمها من أعمال غيرت وجه التاريخ ! فقد كان يتحمّلها منذ بعثته حتى التحاقه بالرفيق الأعلى . كان أصحابه يعاونونه في كلِّ شيء، ويسيرون وراءه في جميع حركاته وسكناته، ولكنه ﷺ كان يتحمّل وحده مسؤولية كلِّ شيء .

لقد تحمّل الرسول ﷺ مسؤولية قبول شروط صلح الحديبية بنظرٍ صائب، وحكمةٍ بالغة، وكانت الثمار اليانعة، والنتائج الحاسمة الذي أعقبه النصر المبين للمسلمين بفتح مكة بعد أن أصبح عدّة جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل، بينما كان ألفاً وأربع مئة في غزوة الحديبية قبل سنتين، وهذا ما دفع قريشاً إلى الاستسلام يومَ الفتح والدخول في دينِ الله أفواجاً .

كما تحمّل الرسول ﷺ مسؤولية إعطاء المال الوفير للمؤلفة قلوبهم بعد

(١) انظر « الرسول القائد » (٢٠٥) و« فقه السيرة » للغزالي (٢٨٢) و« السيرة النبوية » للندي (٣٣٠).

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد والسير) (٣٠٦٣).

غزوة حنين؛ لأن المال يطغى على جوانب تفكيرهم، إذ لم يستشعروا بعد حلاوة الإيمان.

قال « صفوان بن أمية »: « والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ » (١).

كما تحمّل ﷺ مسؤولية حرمان الأنصار من غنائم يوم حنين؛ لأنهم كانوا أغنياء بإيمانهم العظيم، وقد بكوا حتى أخضلوا لحاهم بالدموع حين قال لهم الرسول ﷺ:

« أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! ». قال الأنصار: « رضينا برسول الله قسماً وحطاً » (٢).

وكان الرسول ﷺ يذكر أصحابه بأفضل ما فيهم من صفات، ويغض النظر عن نواقصهم البشرية، ويأمر أصحابه بذكر بعضهم بعضاً بأفضل ما فيهم. وبذلك كان النبي ﷺ يبني الرجال ولا يحطهم (٣).

٦ - المعرفة بخصائص الرجال:

عرض رسول الله ﷺ سيفاً يوم أحد فقال: « مَنْ يأخذ هذا بحقه؟ » فأعطاه « أبا دجانة » فخرج أبو دجانة فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه وهتكه، وقلق به هام المشركين.

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الفضائل - باب في سخائه ﷺ) (٢٣١٣).

(٢) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (٣: ٧٦، ٧٧).

(٣) انظر « الرسول القائد » (٤٤٢).

ولمّا أراد النبي ﷺ أن يتعرف على أحوال العدو في (غزوة الخندق) انتدب لها « حذيفة بن اليمان » وإزاء هذه المهمة، أوصاه توصيةً حكيمةً مقيدة بقوله ﷺ : « ادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحدِث شيئاً، حتى تأتينا ».

إذن حدود المهمة أن يذهب ويشهد ما يصنع القوم، وما يتحدثون به، ثم يرجع فيصف للنبي ﷺ ما رأى وما سمع.

ثم نهاه عن تجاوز هذه المهمة، بقوله ﷺ : « ولا تحدِث شيئاً، حتى تأتينا ».

وقد اندس « حذيفة » في القوم، وعائِنَ اضطرابهم، وسمعَ كلام أبي سفيان زعيمهم، وكان قريباً منه، بحيث إنه كان يراه ويسمعه، ولو أراد أن يسدّد إليه سهمًا لقتله وقضى على حملته، وأراح المسلمين منه، لكنه ذكر نهي النبي ﷺ وقوله : « ولا تحدِث شيئاً »، فأمسك.

فهذا أصل في الأوامر العسكرية التي يلقيها الرؤساء إلى جنودهم، فإنه ينبغي التزامها، وتنفيذها بكل احتراس ودقة وأمانة، دون تزيد ولا تنقص.

عرَفَ هذا الأصل العام المسلمون في فجر الإسلام، وطبقوه في حروبهم وغزواتهم، والتزموه كأحسن ما يكون الالتزام.

ولو فتح للمأمورين باب الاستصلاح، حيال الأوامر الصادرة إليهم، وإمكان التصرف بما تقضي به الظروف، أو تفرضه الأحوال والملابسات الخاصة بحالها، لأدى ذلك إلى تعطيل الأوامر، وأصبحت بمثابة شيء لا معنى له، ولا وجود له، ولأصبح العمل مفوضاً إلى الجنود، كما لو لم يكن لهم قادة، وبذلك تعمُ الفوضى، وتسوء الأحوال. وهذا مما ينطوي تحت قوله

تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ ^(١) (الأحزاب: ٣٦).

٧ - حسن صلة القائد بجنده :

إن القواد العظام هم الذين يتربعون على قلوب جنودهم ويعيشون بداخلها ، ويملؤون أفئدة الجنود بالحب البالغ .

فَصِلَةُ الْحُبِّ بَيْنَ الْجَنْدِ وَالْقَائِدِ تَسِّرُ النِّظَامَ وَالْإِنْضِبَاطَ ، وَهَذِهِ الْعِلَاقَةُ تَوْثِرُ كَثِيرًا فِي سِيرِ الْمَعَارِكِ وَنَتَائِجِهَا ، وَتَقْرِيرُ مَصِيرِهَا . وَلَمْ يُحِبَّ جَنْدٌ قَائِدَهُمْ كَحُبِّ الصَّحَابَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فكل من حوله كان على استعداد لأن يضحي بكل ما يملك فداء للرسول ﷺ .

ومن صور الحب في « غزوة بدر » ما صنع « سواد بن غزيرة » حين قبل بطن النبي ﷺ آملًا أن يكون آخر العهد بالدنيا أن يمس رسول الله ﷺ .

وفي « غزوة أحد » يُتْرَسُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَجْسَادِهِمْ فَتَقَعُ فِيهَا السَّهَامُ دِفَاعًا عَنْهُ ﷺ .

والصحابة التي يُسْتَشْهَدُ لَهَا عِدَّةُ رِجَالٍ مَا بَيْنَ زَوْجٍ وَأَخٍ وَابْنٍ وَأَخٍ وَتَقُولُ : كُلُّ مَصِيبَةٍ بَعْدَ الرَّسُولِ ﷺ هَيْبَةٌ .

وفي مفاوضات الحديبية يقول « عروة بن مسعود » مفاوض قريش للنبي ﷺ بأن قريشًا لبست جلود النمر، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدًا والله لكاني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا . وكان أبو بكر رضي الله عنه خلف النبي فقال له :

(١) انظر « صور وعبر » (٢٤٥).

أنحن ننكشف عنه . ثم جعل عُروة يمدُّ يده إلى لحية النبي ﷺ والمغيرة واقف على رأسه يقرع يده كلما مدها ويقول له : اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ .

فعاد عُروة إلى قريش يقول : « يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت مَلِكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا ، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا » .

وخبر الصحابيَّات اللاتي دافعن عن رسول الله ﷺ في أحد شاهد على الأمر نفسه .

ومن أسباب هذا الحب أنه كان معهم ﷺ في الأمر كله ، وكان أكثرهم بذلاً ، وأقلهم أخذًا ، وأخشنهم طعامًا وشرابًا وملبسًا^(١) .

* * *

(١) انظر « الحرب النفسية من منظور إسلامي » (١١١ - ١١٢) .

المبحث الثاني
الافتتاح



خصائصه الإنسانية وما لاقاه من قومه ﷺ

قال الإمام القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ :

لا خفاء على من مارس شيئاً من العلم، أو حُصَّ بِأَدْنَى لَمِحَةٍ مِنَ الْفَهْمِ :
بتعظيمِ الله قَدْرَ نَبِيِّنا ﷺ وخصوصِهِ إِيَّاهُ بِفَضَائِلَ وَمَحاسِنَ وَمناقِبَ لا تَنْضَبُطُ
لِزِمَامِ ؛ وَتَنْوِيهِهِ مِنْ عَظِيمِ قَدْرِهِ بما تَكِلُّ عَنْهُ الألسنةُ والأقلامُ، فمنها ما صَرَخَ
به - تعالى - في كتابه، وَنَبَّهَ به على جليلِ نصابِهِ، وَأَثْنَى به عَلَيْهِ مِنْ أَخلاقِهِ
وآدَابِهِ، وَحَضَّ العِبَادَ على التزَامِهِ وَتَقَلُّدِ إِيْجابِهِ ؛ فَكانَ - جَلَّ جلالُهُ - هو
الذي تَفَضَّلَ وأولى، ثم طَهَّرَ وَرَزَقَنِي، ثُمَّ مَدَحَ بِذلك وَأَثْنَى، ثم أَثابَ عَلَيْهِ
الجزاء الأوفى ؛ فله الفضلُ بَدْءاً وَعَوْدًا، وَالْحَمْدُ أُولَى وَأُخْرَى. ومنها ما أبرَزَهُ
لِلْعَيانِ مِنْ خَلْقِهِ على أتمِّ وُجوهِ الكمالِ والجلالِ، وَتَخْصِيصِهِ بِالْمَحاسِنِ
الجميلةِ، والأخلاقِ الحميدةِ، والمذاهبِ الكريمةِ، والفضائلِ العديدةِ،
وتأييدهِ بالمعجزاتِ الباهرةِ، والبراهينِ الواضحةِ، والكراماتِ البيِّنةِ. التي
شاهدَها مَنْ عاصَرَهُ، وَرَأَها مَنْ أَدْرَكَه، وَعَلِمَها عِلْمٌ يَقِينٌ مَنْ جاءَ بعَدَهُ ؛ حتى
انتهى عِلْمُ حَقِيقَةِ ذلكِ إلينا، وفاضَتْ أنوارُهُ علينا ﷺ كثيرًا. اهـ^(١)

قال الله - جل ذكره - : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللِّبْتِيسِ مِنْ

بَعْدِهِ. ﴿ (النساء: ١٦٣).

(١) « الشفا » (١١).

وأول ما بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ في غار حراء بقوله: ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)﴾ (العلق: ١-٣) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني، زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الرُّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت له خديجة: كلاً، واللّه ما يحزُنُك اللّهُ أبداً، (وفي رواية: ما يُحزِيك اللّهُ أبداً) إنك لتصل الرّجَمَ، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتعين على نوائب الحقّ (١).

هكذا تصفه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وهي أقرب الناس إليه، عن خبرة تامة، ومعرفة صادقة.

وقال الإمام القاضي عياض أيضاً في مقدمة الشفا:

وَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، أَنْفَسَهُمْ غُرْبًا وَعُجْمًا، وَأَزْكَاهُمْ مَحْتَدًا وَمَنْمَى، وَأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وَحِلْمًا، وَأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وَفَهْمًا، وَأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وَعَزْمًا، وَأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَأْفَةً وَرُحْمًا، زَكَاةَ رُوحًا وَجِسْمًا، وَحَاشَاهُ عَيْبًا وَوَضْمًا، وَأَنَاهُ حِكْمَةً وَحُكْمًا، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَأَذَانًا صُمًّا، فَأَمَّنَ بِهِ وَعَزَّرَهُ وَنَصَرَهُ مَنْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ فِي مَغْنَمِ السَّعَادَةِ قِسْمًا، وَكَذَّبَ بِهِ وَصَدَفَ عَنْ آيَاتِهِ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حَتْمًا ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْيُنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ (الإسراء: ٧٢). صلى الله عليه وسلم صلاة تنمو وتُتَمَّى، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا. اهـ.

وقد كان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى للخلق الرفيع، فهو يغرس في نفوس

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب بدء الوحي) (٣).

أصحابه الخصال الحميدة، بسيرته العاطرة، قبل أن يُرْسَخَهَا بما يقول من حكم وعظات .

هذا هو الرسول الكريم ﷺ الذي سمعت رشحاً من أخلاقه، وقطرة من خصائصه، ظلُّ بعد البعثة نحو ثلاثة عشر عاماً في مكة يتعرض لشتى أنواع المضايقات، هو ومَنْ أسلم معه، ويتحملون أنواع الاضطهاد، وصنوف الأذى من المشركين .

في هذا الجوّ من الصراع مع قريش كان رسول الله ﷺ يدعو المشركين إلى التوحيد الخالص شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بالحكمة والموعظة الحسنة، دون كلل ومن غير ملل، ودون أن يؤثر على صبره شيء، ولم يؤذن له بالقتال وردّ العدوان، بل نُهي عن القتال . قال الله تعالي: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَنِيَّةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (الحجر: ٨٥) .

وقال سبحانه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٢-٩٤) . وقال: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥) .

قالت عائشة رضي الله عنها: « فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ... » ^(١) . وقالت أيضاً: « استأذن النبي ﷺ أبو بكر في الخروج [أي: إلى المدينة] حين اشتد عليه الأذى ... » ^(٢) .

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب مناقب الأنصار) (٣٩٠٥) .

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٠٩٣) وانظر « فتح الباري » (٧) :

وعندما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من مكة وهموا بقتله، وشرّدوا أصحابه ما بين الحبشة والمدينة كانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ولكنّ المشركين استمروا في إيذاء المسلمين فلم يكفوا عن تأمرهم ضدّ المسلمين وعدوانهم فشرّع الله جهاد الأعداء لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠). ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة: ٣٦)^(١). وهذه هي الآية المسماة عند الفقهاء بآية السيف^(٢).

وهكذا مرّ تشريع القتال بأربع مراحل رئيسة وهي :

- ١- مرحلة الصبر دون القتال - بمكة .
- ٢- مرحلة الإذن بالقتال - بعد الهجرة .
- ٣- مرحلة الأمر بقتال من يبدؤهم بالقتال .
- ٤- مرحلة الأمر بقتال جميع المشركين^(٣) .



(١) انظر « زاد المعاد » (٣ : ٧١).

(٢) انظر « آثار الحرب » (٥٦).

(٣) انظر « السيرة النبوية » لمهدي رزق (١ : ٣٨٤).

دوافع القتال في الإسلام

شريعة الإسلام تقرّ أصل القتال، ثم تتناوله بالتهذيب، وتوجّهه الوجهة الصالحة للمجتمع الإنساني، وتجعله لغاية هي أسمى الغايات، وهي إعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، والدفاع عنه، وقمع الطواغيت في الأرض، ومنعهم من التسلّط على عباد الله الذين أرادوا الدخول في الإسلام دون إكراه.

وإن آيات القتال جاءت مبيّنة السبب الذي من أجله أذن في القتال، فمن ذلك :

١ - حالة الاعتداء على الدعوة إلى الله : قال تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج: ٣٩).

٢ - الدفاع عن النفس، ودفع الاعتداء على البلاد كما في غزوة أحد والخذق : قال تعالى : ﴿ وَفَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠). أي : لا تعتدوا بقتال من لم يقاتلكم^(١).

ففيها أمرٌ بقتال الكفار لكونهم يقاتلون المسلمين، ويعتدون عليهم، ونهْي عن قتال الكفار الذين لم يقاتلوهم، ولم يعتدوا عليهم.

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٢: ٢٥٠) و« آثار الحرب » (٩٤).

فإذا أراد العدو الهجوم على المسلمين، فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم، وعلى غير المقصودين، لإعانتهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرَوْكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقٌ﴾^(١) (الأنفال: ٧٢).

٣ - الحرب لنصرة المظلوم فرداً أو جماعة :

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ (النساء: ٧٥).

والمعنى: قاتلوا أيها المؤمنون في سبيل الله لرفع الظلم عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وحتى يتم تخليصهم من ظلم الكفار وبطشهم، وتريحهم مما هم فيه من الجهد^(٢). وقد ناصر ﷺ خزاعة على قريش في هدنة الحديبية بعد أن استنصروا به^(٣).

٤- نقض العهد، كما حصل من يهود بني قينقاع في المدينة، ومشركي قريش في نقض الصلح.

٥- شن حربٍ وقائية، كما كان الأمر مع قريش والروم والفرس؛ لأن الإسلام صار في وسط مذابحة من الأرض يراد به السوء من كل جانب، وما بقي إلا انتهاز الفرصة المواتية للانقضاض عليه، واجتثاث أصوله في عقر داره.

فقد أرسل كسرى عظيم الفرس من يأتي برأس الرسول ﷺ. وقتل بعض

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (٢٨: ٣٥٨).

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (١: ٤٨٧) و«أحكام القرآن» لابن العربي (١: ٤٥٩).

(٣) انظر «آثار الحرب» (٩٣) و«قواعد الحرب» (٧٢ - ٧٩).

ولادة هرقل - عظيم الروم - من أسلم في بلاد الشام.

إذن لم يكن هذا القتال لنشر العقيدة بالسيف، وإنما هو قتال لمن يفتنون الناس عما تؤمن به قلوبهم، وتطمئن له عقولهم. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٣)، وقال: ﴿ وَقَالُوا الْمُسْرِكِينَ كَأَفْءَ كَمَا يُقْنِلُونَكُمْ كَأَفْءَ ﴾ (التوبة: ٣٦)^(١)، وقال: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ (التوبة: ٤١)، ولا يفهم من هذا أن القتال مبدأ هجومي عدواني، وإنما هو على العكس مبدأ وقائي.

قال الشيخ محمد أبو زهرة: وللعديوان مظاهر مختلفة، فكان في عهد النبي ﷺ على صورتين:

إحداهما: أن يهاجم الأعداء النبي ﷺ فيرد كيدهم في نحورهم.

الثانية: أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، فكان على النبي ﷺ أن يمنع ذلك الاعتداء الواقع على حرية الفكر والعقيدة^(٢).

وقد كانت سيرته ﷺ أن كل من هادنه من الكفار لم يقاتله (أي: سواء كان من مشركي العرب أو من غيرهم)، وهذه كتب السير والحديث والتفسير والفقهاء والمغازي تنطق بهذا، وهذا متواتر من سنته، فهو لم يبدأ أحدًا من الكفار بقتال، ولو كان الله أمره أن يقتل كل كافر لكان يبتدئهم بالقتل والقتال^(٣).

إن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا في الأحوال التي اجتمعت

(١) انظر « آثار الحرب » (٧٤، ٨٦).

(٢) ذكر في « آثار الحرب » (٩٠).

(٣) انظر « آثار الحرب » (١٠٥) نقلاً من رسالة القتال لابن تيمية (١٢٥).

الشرائع الإلهية، والأعراف الإنسانية على تحكيم السيف فيها. فالدولة التي يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح؟. وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣).

والدولة التي يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها، بماذا تفضُّ الخلاف بينهم إن لم تفضّه بقوة السلطان؟.

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضاً حيث جاء فيه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقَى إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩). وفي كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح. ثم يأتي الصلح والتوفيق أو يأتي التفاهم بالرضا أو الاختيار^(١).

قال «مارسيل»^(٢): «إن للمعاهدة التي عقدها محمدٌ لدى وصوله إلى المدينة مع قبائلها العربية الاثني عشرة وقبائلها اليهودية العشر لشأنًا ربيعًا جدًا، فقد أمكن اعتبارها أولَ دستور مكتوب في العالم».

كراهة تمنّي لقاء العدو

ثبت في الصحيحين عن «عبد الله بن أبي أوفى» رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم

(١) «عبقرية محمد» (٣١) بتصرف.

(٢) في «إنسانية الإسلام» (١٥٤).

قام في الناس فقال :

« يا أيها الناسُ لا تتمنوا لقاء العدوِّ واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاضربوا واعلموا أنَّ الجنةَ تحت ظلِّالِ السيوفِ » ثم قال : « اللهم منزلَ الكتابِ ، ومُجْرِي السحابِ ، وهازمَ الأحزابِ ، اهزمهم وانصُرنا عليهم »^(١) .

نَهَى النبي ﷺ عن تمني لقاء العدوِّ، رغبةً في علاج الأمور بالسُّلم، وكرهيةً لإراقة الدماء عند الخصومة، ثم حَذَرًا من الإعجاب والبغي، فإنَّ المعجَبَ مزهُوٌّ بنفسه، قليلُ المبالاة بعدوِّه، والباغي ظالم، والظالم قلَّمَا ينتصر، ومن بُغِيَ عليه فهو مظلوم، والله مع المظلوم وناصره. وأخوفُ ما يُخاف على الجيش إعجابه بنفسه، وبغيه على غيره، وقد قال قائل في غزوة حنين : لن نُغلب اليوم من قَلَّةٍ، حينما أعجبتهم كثرتهم فلم تُغْنِ عنهم من الله شيئًا.

قال الحافظ « ابن حجر » : قوله : (لا تتمنوا لقاء العدو . .) قال « ابن بطال » : حكمةُ النهي : أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، وهو نظير سؤال العافية من الفتن. وقد قال الصديق : « لأن أعاقى فأشكر أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر ». وقال غيره : إنما نُهيَّ عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب، والاتكال على النفوس، والثوق بالقوة، وقلة الاهتمام بالعدو، وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم^(٢) .

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٢٩٦٥، ٢٩٦٦) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد والسير) (١٧٤٢).

(٢) « فتح الباري » (٦ : ١٥٦).

القتال العادل

إذا كانت الحرب رفعاً لظلم واقع، أو منعاً لفساد متوقع، فهي حرب فاضلة. قاتل سيدنا محمد ﷺ وأصحابه المشركين، ولكنه قتال عادل يدفع إليه الذود عن الحرية الدينية في أفدس أحوالها، وأكمل أشكالها، فهي حرب الفضيلة ضد الرذيلة، وهي حرب الإخلاص ضد الهوى، وهي حرب السلام ضد العنف والإرهاب.

النبي ﷺ ما قصد إلى الحرب ولا أرادها إلا بعد أن فُتن المسلمون في دينهم، وأصابتهم البأساء والضراء في اعتقادهم، وكان لا بد من الحرب ليكون الدين كله لله، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣).

فحدت هذه الآية الكريمة المبدأ والغاية، والسبب والنهاية، وذكرت أن الباعث هو الفتنة في الدين، وأن الغاية هو أن يكون التدين حراً لا سلطان فيه إلا لرب العالمين، فإن انتهوا عن الفتنة والإكراه فلا عدوان إلا على الظالمين، فالوقائع التي كانت من المشركين، واضطرت النبي الكريم ﷺ إلى قتالهم تومئ إلى أن النبي لا يحارب إلا من حاربه، أو يحول بينه وبين الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - بالقهر والغلب، والآية تؤكد ذلك.

ولقد كان النبي ﷺ إلى السنة الخامسة لا يحارب إلا قريشاً؛ لأنهم هم الذين آذوه وفتنوا أصحابه، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، ولكن اجتمعت

القبائل العربية بأحزابها فكانت عليه حزباً، وصاروا على الإسلام إلباً، وبدأ ذلك الاجتماع في غزوة الأحزاب، إذ ساوروا جميعاً المدينة مثابة الإسلام وبيضته، ليطفئوا نور الله، فكان لا بدّ من المعاملة بالمثل، ولذلك نزل قوله تعالى: ﴿ وَقَدِيلُوا الْمَشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَدِّلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ (التوبة : ٣٦).

فهذه الآية الكريمة لا تدعو إلى السبق بالحرب، ولكنها تدعو إلى دفع الاعتداء بمثله، وردّ كيد المعتدي في نحره، فهي إذن الحرب العادلة، لا الحرب الفاجرة، ولقد أرهف الإسلام نفوس المسلمين فكان القتل أمراً غير محبّب إلى نفوسهم؛ لأنه هدمٌ لما صنع الباري^(١).

إن الإسلام لا يشتهي الحرب ولا يتمناها ولا يقدم عليها إلا مُضْطَرّاً، فهو دين الهدى والرحمة والسلام والطمأنينة والوقار والسكينة، ما خرج الرسول ﷺ لملاقاة قوم إلا بعد أن سطعت الأدلة على غدرهم ومكرهم وعملهم سراً أو جهراً على هدم دعوته، ووضع العقبات والعراقيل في طريقها.

وإذا كان الأصل هو الأمن والسلام بين المسلمين وغيرهم من الأمم فليس للدولة الإسلامية - في شريعتها - أن تقاتل مَنْ لا يشنُّ عليها حرباً، وليس بينه وبينها عداوة، فلا يُؤلَّبُ عليها ولا يمالئُ أعداءها، وإن لم يكن بينه وبينها عهد وسلام وأمان، حتى يكون ثمة اعتداء أو تَكشِيفُ الأماراتُ الظاهرة عن نية اعتداء قريب، فحينئذ تكون الحرب الإسلامية العادلة، وهي في جملتها حربٌ دفاعية وإن لبست لبوس الهجوم.

ولقد اقتضت حكمة الله - جلت قدرته - أن يتولى خاتم النبيين الحرب

(١) انظر « قانون الحرب في الإسلام » مجلة لواء الإسلام العدد (٨) و(٩) و(١٠) السنة الثانية.

بنفسه، فيضربَ الأمثال لفضيلة الحروب في سفك الدماء، فيخوضَ سيدنا محمد ﷺ الحروب ويقودَ الجيوش، ولا يغطِّ سيفه في دم إنسان إلا من اخترق الصفوف لقتله، وقد أدرع من قَمَّة رأسه إلى أخمص قدميه، ولا يجد الرسول ﷺ لنفسه منجاة إلا بقتله، فيستعير الرمح من بعض صحابته، ثم يضربه الضربة القاصمة في الموضع الخالي من دروعه^(١).

كان الرسول ﷺ في أشدِّ الوجع من آلام جراحاته التي أصيب بها في أُحدٍ، وقد أشيع أنه قُتِلَ، وتفرَّق المسلمون حائرين يسيرون في كل اتجاه، لا يعرفون ما يفعلون.

وقد جاء في حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: «لما كان يوم أُحد انهزم ناس عن رسول الله ﷺ...»^(٢).

وكان أول من عرف رسول الله ﷺ «كعب بن مالك»، قال: عرفت عينيه تزهرا من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين هذا رسول الله ﷺ، فلما عرفوه نهضوا ونهض معهم نحو الشعب أبو بكر وعمر وعليّ ورهط من المسلمين، وكان ﷺ في القتال لا يلتفت وراءه، فكان يقول لأصحابه: «إني أخشى أن يأتي أبي بن خلف من خلفي، فإذا رأيتموه فأذنوني» فلما أسند رسول الله ﷺ ظهره في الشعب أدركه «أبي بن خلف»، وهو يقول: أين محمد لا نجوت إن نجا؟^(٣).

(١) انظر «قانون الحرب في الإسلام».

(٢) أخرجه «البخاري» في «صحيحه» في (كتاب فضائل الأنصار) (٣٨١١) و(كتاب المغازي)

(٤٠٦٤) و«مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد والسير).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٦: ٤٠٣ - ٤١٦).

فقالوا : يا رسول الله يعطف عليه رجلٌ منّا، فقال ﷺ : « دَعَوْه »، فلما دنا تناوَل ﷺ الحربة من « الحارث بن الصّمة »^(١)، فلما أخذها منه السَّلِيلُ انتفض بها انتفاضةً تطايرنا عنه تطايرَ الشّعراء^(٢) عن ظهر البعير إذا انتفض .

ولم يكن أحدٌ يشبه رسولَ الله ﷺ إذا جدَّ الجدُّ، ثم أخذ الحربةَ فطعنه بها في عنقه، وهو على فرسيه، فجعلَ يَخُور كما يَخُور الثورُ، ويقول له أصحابُه : أبا عامرٍ ! والله ما بك بأسٌ، ولو كان هذا الذي بك بعينِ أحدنا ما ضَرَّه ! فيقول : لا واللاتِ والعُزَّى لو كان هذا الذي بي بأهلِ ذي المَجَازِ^(٣) لماتوا أجمعون ! أليس قال : لأقتلنك . فاحتملوه، وشغلهم ذلك عن طلب النبي ﷺ^(٤) .

قاد نبيُّنا ﷺ الجيوش، وحضرَ المعارك، ولكنه لم يقتل بيده الشريفة أحداً غير هذا!^(٥)

وهنا يبرز سؤالٌ مهم : بما أن النبي ﷺ يملكُ هذه الطاقة الفائقة فلماذا لم يستعملها عند الشدائد التي أهدتْ به ؟ ولماذا لم يُظهر قوَّته الجبارة في القتل دفاعاً عن نفسه ؟

(١) هو أنصاريٌّ ممن شهد بدرًا، استشهد بيثر معونة. « الإصابة » (١ : ٥٧٨).
 (٢) ذباب أزرق أو أحمر يقع على الإبل و الخُمُر والكلاب. « القاموس » (شعر).
 (٣) سوق بعرفة كانت تقوم بالجاهلية ثمانية أيام.
 (٤) « دلائل النبوة » لأبي نعيم (٢ : ٤٨٣) و« المستدرک » (٢ : ٣٢٧) و« إمتاع الأسماع » (١٤٠).
 (٥) و« المواهب اللدنية » (١ : ٤٠٤).

نقل ذلك « أبو الفرج الحلبي » في « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » (٢ : ٣١٦) كما قال فيه (٢ : ٣١١) : أنكر الإمام أبو العباس بن تيمية كونه ﷺ رمى عن قوسه حتى صارت شظايا، أي : لأنه يبعدُ وجودُ رميه ﷺ من غير إصابة، ولو أصاب أحدًا لذكر؛ لأنه مما تتوفَّرُ الدواعي على نقله. اهـ

أجل ! لأنه نبي رحمة للعالمين ، لا نبي قتلٍ ودماء . لم يُظهر ﷺ قوته في القتل وإنما أظهرها في الرحمة .

إنّ على أهل الحق والعدل والشرفاء أن يدافعوا عن أنفسهم إذا اعتدى عليهم الظالمون ، وتكون الحرب حينئذ فضيلةً ، بل ضرورية لا مناص منها ، وإن الرضا بالسلم الذليل هو الرذيلة في هذه الأحوال وأشباهها ، إنه لا شيء أشنع من الظلم ، ولا شيء أفضل من العمل على إزالته ، يستوي في ذلك الآحاد والجماعات والدول .

إن سيدنا محمداً ﷺ صور السلم الإنساني في صفح جميل ، وهو صفح القادر الذي يمدُّ للسلام والأمن يُمناه ، وفي يسراه سيفٌ غضبٌ يجعل السلم كريماً لا دُلاً فيه .

ولقد تولى سيدنا محمدٌ ﷺ قيادة الجيش بنفسه فعلم الناس بذلك طرائق الحرب الفاضلة ، وإن كانت الدوافع التي جعلته يحمل السيف أنبل دوافع الحرب ، وأشرف غايات الإنسان ، فإنَّ ما سلكه نبينا محمد ﷺ في حروبه ، وما كان يعامل به محاربيه أسوةً حسنةً بين الفضيلة في الحروب كيف تكون ، ويصور لنا أنّ الإنسان الكامل قد يستعير من الأسد ظفره ونابه ، ولكنه يستمر على إنسانيته الكاملة الفاضلة ، فلا يغط السيف في دم بريء ، ولا يضرب مَنْ لا يَضْرِبُ ، ولا يرفع السيف على مَنْ لا سيف له .

ومما سلكه سيدنا محمد ﷺ وأصحابه نقبس قبسة نورانية تكشف لنا عن الخلق العظيم في حروب الرسول الكريم ﷺ ، فنبين معاملة المحاربين في أثناء القتال والأسرى والموادعة وعهود الأمان والمعاهدات ونبذها

وكيف يكون .

وكان النبي ﷺ يتمسك بالفضيلة في حروبه كما كان مقيداً بقيدين : الخلق الكريم ، ودفع الاعتداء بمثله ما لم يتقاضَ الدفْعُ بالمثل الوقوعَ في رذيلة ، وذلك هو المعنى الواضح في قوله تعالى : ﴿ وَفَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٠) .

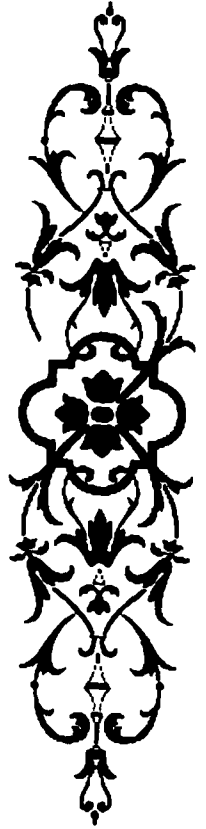
ولذلك كان يَنْهَى النبي ﷺ عن قطع الشجر ، وتخريب البيوت ، والغدر والخيانة ، وعن قتل العباد في الصوامع ، وقتل الشيخ الذي لا يقاتل ، والنساء ، والصبيان .

قال محمد أبو زهرة ^(١) : « هذا صوتُ محمدِ النبيِّ الأُمِّيِّ ﷺ يقطع أحقاب التاريخ ، مخترقاً بنوره الظلماتِ المتراكمةَ في الحروب ، وإنَّ له في عصرنا لموضعاً ، فليت ساسةَ هذا العصر وقواده يستمعون إليه فيعرفوا منَ النور النبويِّ أن الحربَ العادلةَ ليست تخريباً للبلاد ، وعبثاً بالفساد ، وقطعاً للحرث والنسل ، وإبادةً للعدوِّ ، إنما حَمَلٌ له على الجادةِ ، ودَفْعٌ ظلمه مع الإبقاء ، والعدلُ مع ضعفائه . »

(١) في خاتمة مقاله « قانون الحرب في الإسلام » .

المبحث الثالث

الشورى



الشورى

التزم الرسول ﷺ - ولنا فيه أسوة حسنة - بمبدأ التشاور مع أصحابه . وإذا استعرضنا حياته ﷺ وجدنا أنه كان يلتزم هذا المبدأ في كل أمرٍ لا نصَّ فيه من كلام الله تعالى، مما له علاقةٌ بالتدبير والسياسة الشرعية .

والحكمة من الشورى استخراجُ وجوه الرأي عند المسلمين، والبحث عن مصلحة قد يختص بعلمها بعضهم دون بعض، أو استطابة نفوسهم . فإذا وجد الحاكم في آرائهم ما سكنت نفسه إليه في ضوء الشريعة أخذ به وإلا كان له أن يأخذ بما شاء بشرط ألا يخالف نصًّا من كتاب ولا سنة ولا إجماعاً للمسلمين . فالشورى شرعت للتبصر بها، لا للإلزام أو التصويت على أساسها^(١) .

قال « البخاري » تعليقاً : باب قول الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى : ٣٨) ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) وأن المشاورة قبل العزم والتبيين، لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشرٍ التقدم على الله ورسوله .

١- شاور النبي ﷺ أصحابه « يوم أُحد » في المقام والخروج، فأوا له الخروج، فلما لبسَ لأمته وعزمَ قالوا : أقم . فلم يَمِلْ إليهم بعد العزم وقال : « لا ينبغي لنبيٍّ يَلْبَسُ لأمته فيضعها حتى يحكم الله » .

(١) « فقه السيرة » للبوطي (١٥٩، ٢٣٧) .

٢- شاور عليًا وأسامةً فيما رَمَى به أهلُ الإفك عائشةَ رضي الله عنها فسمعَ منهما، حتى نزلَ القرآنُ فجَلَدَ الرامين ولم يَلتفت إلى تنازُعهم، ولكن حكَمَ بما أمره الله.

٣- وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يَسْتَشِيرُونَ الأئمَّةَ من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وَضَحَ الكتابُ أو السُّنة لم يتعدَّوه إلى غيره اقتداءً بالنبي ﷺ ^(١).

أغراض مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه

الرسول ﷺ مؤيد بالوحي، وصاحب رأي سديد، إلا أنه كان يستشير. فمن أغراض الشورى:

- ١ - أن يؤكِّد تميز أُمَّته بالشورى.
- ٢ - أن يضع القواعدَ التي تسير عليها الحُكَّام من بعده.
- ٣ - يريد ألا يُساقَ الجنودُ إلى المعارك وغيرها سَوْقًا، بل لهم الرأي في كل عمل مما يجعلهم يقنعون بما يقومون به، ويبذلون كل الجهد في إنجاحه.
- ٤ - تأكيد معنى أخوة المسلمين ^(٢). فلا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن

(١) « صحيح البخاري » في (كتاب الاعتصام) (٢٨).

(٢) انظر « الحرب النفسية من منظور إسلامي » (٢: ١١٨).

الله - تعالى - أمر بها نبيه ﷺ فقال تعالى: ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١) (آل عمران : ١٥٩).

فالشورى هي المقياس العملي لتطبيق دستور المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي عقدها رسولُ الله ﷺ بين عامة المجتمع المسلم وخاصته، وسجلها في كتاب صار وثيقةً من وثائق المنهج النبوي الذي ربى عليه النبي ﷺ أمته، وجعله مصدرًا من مصادر التأسي به في قيادة أمته وتوجيهها.

وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « لم يكن أحدٌ أكثرَ مشاورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ ». وقد قيل: إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدي به مَنْ بعده، وليستخرج بها منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحياً: من أمر الحروب، والأمور الجزئية، وغير ذلك. فغيره ﷺ أولى بالمشورة.

مشاورة الرسول ﷺ في الخروج لقتال المشركين في غزوة بدر

ثبت في الصحيح عن أنس، أن رسولَ الله ﷺ شاورَ، حين بلغه إقبالُ أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرضَ عنه، ثم تكلم عمرُ فأعرضَ عنه.

فقام « سعد بن عبادَةَ » فقال: إيانا تريد؟ يا رسول الله! والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخِيضَها البحرَ لَأَخْضَناها، ولو أمرتنا أن نضربَ أكبادَها إلى بركِ الغمادِ (٢) لفعلنا.

قال: فندبَ رسولُ الله ﷺ الناسَ، فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا (٣).

(١) انظر « مجموع الفتاوى » (٢٨ : ٣٨٦).

(٢) موضع بأقصى اليمن.

(٣) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد والسير) (١٧٧٩).

كان الرسول ﷺ حريصًا على معرفة رأي أصحابه من قادة المهاجرين والأنصار، فكان رأي الأغلبية الرغبة في قتال المشركين والتصدي لهم.

قال النووي^(١): (شاور) قال العلماء: إنما قصد ﷺ اختبار الأنصار؛ لأنه لم يكن بايعهم على أن يخرجوا معه للقتال، وطلب العدو، وإنما بايعهم على أن يمنعوهم ممن يقصده. فلما عرض الخروج لعير أبي سفيان أراد أن يعلم أنهم يوافقون على ذلك، فأجابوه أحسن جواب بالموافقة التامة في هذه المرة وغيرها.

وفيه استشارة الأصحاب وأهل الرأي والخبرة.

مشاورة الرسول ﷺ الصحابة في الخروج أو البقاء في المدينة يوم أُحد

قال النبي ﷺ: «فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها».

كان رأي «عبد الله بن أبي بن سلول» مع رأي رسول الله ﷺ، يرى رأيته في ذلك، وألاً يخرج إليهم، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أُحد وغيره، ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يروُنَا آتًا جَبْنًا عنهم وضعفنا.

فلم يزل الناسُ برسول الله ﷺ الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى

(١) في «شرح صحيح مسلم» (١٢: ١٢٤).

دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته، ثم خرج عليهم، وقد ندم الناس، وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: « ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل »^(١).

الحكمة في عدم تراجع الرسول ﷺ بعد عزمه على القتال

قال الحافظ «ابن حجر»: فإذا عزم الرسول ﷺ على فعل أمرٍ مما وقعت عليه المشورة، وشرع فيه لم يكن لأحدٍ بعد ذلك أن يشير عليه بخلافه؛ لأنه ﷺ إذا عزم لم يرجع^(٢).

لما رأى الرسول ﷺ رغبة أكثر الصحابة في الخروج تنازل عن رأيه ونزل عند رغبتهم، ولبس درعه، وحمل سلاحه، وقاد المسلمين إلى موقع المعركة في أحد.

تبدو الحكمة في هذا الموقف الحازم في أن قضايا الحرب والقتال ينبغي أن ترفع عن مجالات الأخذ والرد والتردد فإن الاضطراب فيها هو نذير الفشل، وسوء العاقبة.

وهل يُفسر الإقلاع عن الحرب، بعد اتّخاذ لبوسها، والسير في مقوماتها

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٦٧ - ٦٨) باختصار.

(٢) « فتح الباري » (١٣: ٣٤١).

بشيء سوى الخوف من العدو، والاعتراف بوزنه؟ وهل يطمح العدو بأكثر من هذه الحقيقة، أن تأخذ سبيلها إلى القلوب، من دون أن يبذل من أجلها ثمناً ما؟^(١).

□ الرسول ﷺ يوافق « سلمان الفارسي » على حفر الخندق .

خرج زعماء يهود في بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب رسول الله ﷺ فنشطت قريش لذلك، وأتعدوا لوقت وقته، واجتمع طوائف من مشركي قريش وغيرهم من العرب وبنو النضير في عشرة آلاف رجل، ويرأس الجميع أبو سفيان.

كانت خزاعة عندما خرجت من مكة : أتى ركبهم رسول الله ﷺ - في أربع ليالٍ - حتى أخبروه، فندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم: أيرز من المدينة، أم يكون فيها ويخندق عليها، أم يكون قريباً والجبل وراءهم؟ فاختلّفوا.

وكان « سلمان الفارسي » يرى رسول الله ﷺ يهتّم بالمقام بالمدينة - ويريد أن يتركهم حتى يردوا، ثم يحاربهم على المدينة وفي طرفها - فأشار بالخندق فأعجبهم ذلك، وذكروا يوم أُحُدٍ فأحبوا الثبات في المدينة. وأمرهم رسول الله ﷺ بالجدّ، ووعدهم النصر إن هم صبروا وأتقوا وأمرهم بالطاعة^(٢).

□ نزول الرسول ﷺ عند رغبة السعدين، ﷺ .

بلغ الرسول ﷺ خبر بني قريظة، ونقضهم للعهد في غزوة الخندق، وقد

(١) انظر « صور وعبر » (١١٣).

(٢) « إمتاع الأسماع » (٢١٩).

أقام المشركون يحاصرون المدينة شهراً، ولما طالت هذه الحال على المسلمين أراد رسول الله ﷺ أن يُصالح « عيينة بن حصن » و« الحارث بن عوف » - رئيسي غطفان - على ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقوميهما، وجرت المفاوضة على ذلك فقَبِلَا، ولكنَّ الرسول ﷺ ما كان ليبرمَ أمراً لم ينزل فيه وحي حتى يستشير أصحابه.

فأرسل إلى « سعد بن معاذ » و« سعد بن عبادة » ﷺ يستشيرُهما فقالا : يا رسول الله أمراً تُحبّه فنصنعه أم شيئاً أمَرَكَ اللهُ به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا ؟

فقال ﷺ : « بل شيءٌ أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيتُ العربَ رمتكم عن قوسٍ واحدة، وكالبوكم من كلِّ جانب، فأردت أن أُكسرَ عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما ».

فقال له « سعد بن معاذ » ﷺ : يا رسول الله قد كُنَّا نحن وهؤلاء القومُ على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يظمَعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قَرَى أو بَيْعاً، أفحين أكرَمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعرّنا بك وبه نُعطيهم أموالنا !؟

والله مالنا بهذا من حاجة، والله لا نُعطيهم إلا السيفَ حتى يَحْكَمَ اللهُ بيننا وبينهم. فصوّبَ رأيهما^(١).

نستخلص من عرض النبي ﷺ الصلح، واستشارة السعدين الأمرين

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٢٣٤). انظر « زاد المعاد » (٣: ٢٧٢ - ٢٧٣) وه السيرة النبوية « لأبي شعبة (٢: ٢٨٤).

الآتين :

١ - مدى حنكة الرسول ﷺ في الحرب، وقوة التفكير، وتحري الصواب.

٢ - اختبار الرسول ﷺ استعداد الأنصار للذود عن المدينة، وقد ظهر له ﷺ أن الأخطار والمخاوف وتكالب عوامل الشر لم تزدهم إلا إيماناً وصلابة في الدفاع عن دينهم.

قبول الرسول ﷺ مشورة أم سلمة ،
عند تباطؤ الصحابة في التحلل

من عيون الشفاعة في ظهر الغيب والتماس الأعذار شفاعاً أم سلمة رضي الله عنها لأصحاب رسول الله ﷺ في صلح الحديبية، فقد دخل عليها مغضباً مهموماً وهو يقول : « هلك المسلمون، أمرتهم بالأمر فلم يفعلوا ».

فقلت : يا رسول الله لا تلمهم ؛ فإنهم قد دخلهم أمرٌ عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح، فاخرج إليهم يا رسول الله، ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلقك.

فخرج ولم يكلم أحداً منهم حتى نحر بُدْنَهُ، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً^(١). وجلا الله عنهم الكرب

(١) طرف من حديث أخرجه البخاري « في صحيحه » في (كتاب الشروط) (٢٧٣١)

و(٢٧٣٢) من حديث طويل.

الذي كاد يقتلهم وسلّمهم منه بأمر المؤمنين أم سلمة .

ولا يتنبّه لهذه الشفاعة العجيبة الرائعة إلا الأخيّار الأبرار، ممّن لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد ضربت - صلوات الله وسلامه عليه - أعلى الأمثال في الشفاعة بأمرته في أشدّ الأوقات وأحرجها .

مشاورة الرسول ﷺ في التقدم
بالجيش إلى ما بعد تبوك

لما بلغ رسول الله ﷺ بجيشه تبوك شاور أصحابه في التقدّم إلى ما وراء تبوك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن كنت أمرت بالمسير فسر. فقال رضي الله عنه: « لو أمرت بالمسير لم أستشركم فيه » .

وهذا نصّ يُعيّن مواطن ^(١) الشورى، ويبين منازلها في رسالة الإسلام، فهي لا تكون إلا فيما خلا عن نص يتضمن حكمه الاجتهاد، والاجتهاد لا يكون إلا فيما لا نصّ فيه، وهذا من أعظم معالم منهج رسالة الإسلام الخالدة في تربية الأمة؛ لأن مبدأ الشورى في الإسلام مبدأ أساسي لا يجوز للمجتمع المسلم أن يتهاون في العمل به، أو يتراخى في إقامة معالمه. ثم قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مبيّناً لحكمة رأيه: يا رسول الله، إن للروم جموعاً كثيرة، ليس بها مسلم، وقد دنونا منهم، وأفزعهم دنوك، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله أمراً ^(٢).

(١) انظر « فتح الباري » (١٣: ٣٤٠) في متعلق المشاورة.

(٢) « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » (٣: ٢٠٠) و« محمد رسول الله ﷺ » (٤: ٤٧١).

سبب الشورى عند النبي ﷺ وموطنها

١ - أن يستنَّ به مَنْ بعده.

٢ - المشاورة إنما تشرع عند عدم العزم.

٣ - المشاورة فيما لا نصَّ فيه.

٤ - المشاورة في أمر الحرب.

قال « ابن حجر » : قال الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى : ٣٨).

أخرج « البخاري » في « الأدب المفرد » و« ابن أبي حاتم » بسند قوي عن الحسن قال : « ما تشاور قوم قط بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما يحضرهم » وفي لفظ : « إلا عزم الله لهم بالرشد أو بالذي ينفع ».

وقال تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩).

أخرج « ابن أبي حاتم » بسند حسن عن الحسن أيضًا قال : قد علم أنه ما به إليهم حاجة، ولكن أراد أن يستن به مَنْ بعده.

وموطن المشاورة من النبي ﷺ قبل العزم والتبين؛ لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩).

المشاورة إنما تشرع عند عدم ظهور العزم. فإذا عزم لم يكن لأحد بعد

ذلك أن يشير عليه بخلافه ؛ لورود النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله في آيات الحجرات .

فجواز التقدم بالمشورة بإذنٍ منه ﷺ حيث يستشير . وفي غير صورة المشورة لا يجوز لهم التقدم . فإذا ثبت أمره ﷺ لم يكن لأحد أن يخالفه ، ولا يتحيل في مخالفته .

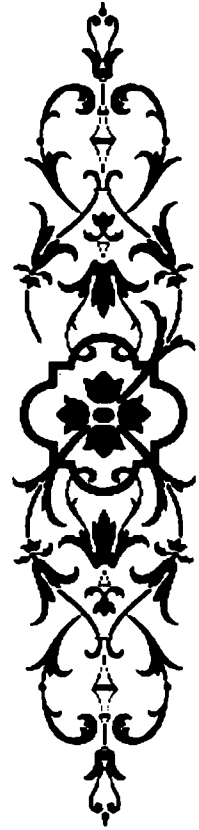
وقد اختلف في متعلق المشاورة : فقيل في كل شيء ليس فيه نصٌّ . وقيل : في الأمر الديني فقط .

وقال الداودي : إنما كان يشاور في أمر الحرب مما ليس فيه حكم ؛ لأن معرفة الحكم إنما تلتبس منه ^(١) .

* * *

(١) « فتح الباري » (١٣ : ٣٤٠ - ٣٤١) بتصرف.

المبحث الرابع
تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم



معاملة الضعفاء

□ حكم قتل النساء والصبيان :

لا يجوز قتل النساء والصبيان في الحرب إذا لم يقاتلوا .

وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فَمَنْ مَنَعَ هذا قوتل باتفاق المسلمين .

وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة، كالنساء والصبيان، والراهب والشيخ الكبير، والأعمى والزَّمن^(١)، ونحوهم، فلا يُقتل عند جمهور العلماء، إلا أن يقاتل بقوله وفعله . . .

ويشهد على ذلك ما يأتي :

١ - قال الله تعالى : ﴿ وَفَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِيَّاهُ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْعِدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠) .

وروي عنه ﷺ : « أنه مرَّ على امرأةٍ مقتولةٍ في بعض مغازيه، قد وقفت عليها الناسُ . فقال : « ما كانت هذه لتُقاتلَ »، وقال لأحدهم : « الحقُّ خالداً فقل له : لا تقتلنَّ امرأةً، ولا عسيفاً »^(٢) .

(١) الزمن: ذو العاهة الذي لا يستطيع المشي.

(٢) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجهاد) (٢٦٦٩) و « ابن أبي شيبة » في « المصنف » في (كتاب السير) (١٧: ٥٧٣) من حديث « زباح بن ربيع ». العسيف: الأجير.

وذلك أن الله - تعالى - أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق، وقال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ٢١٧). أي: أن القتل، وإن كان فيه شرٌّ وفساد، ففي فتنة الكفار من الشرِّ والفساد ما هو أكبر منه. فَمَنْ لم يمنع المسلمين من إقامة دينِ الله لم تكن مضرَّة كفره إلا على نفسه^(١).

٢- ما روي عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن امرأةً وُجِدَتْ في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولةً فأنكر رسول الله ﷺ قتلَ النساءِ والصبيان^(٢).

وروي عن « عبد الرحمن بن كعب بن مالك » قال: نهى رسولُ الله ﷺ الذين قَتَلُوا ابنَ أَبِي الْحُقَيْقِ عن قَتْلِ النساءِ والولدان. قال: فكان رجلٌ منهم يقولُ: بَرَّحَتْ بنا امرأةٌ ابنَ أَبِي الْحُقَيْقِ بِالصَّيْحِ. فَأَرْفَعُ السِّيفَ عَلَيْهَا، ثم أذْكَرُ نَهْيَ رسولِ الله ﷺ، فَأَكْفُفُ. ولولا ذلك استرحنا منها^(٣).

قال النووي: أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث، وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يُقاتلوا^(٤).

وهذا النهي عن قتلهم في حالة تمييزهم عن الكفار، أما إذا اختلطوا بالكفار، وصعب على المسلمين التحرزُ عن قتلهم فإنهم يُقاتلون الكفار ولا

(١) « السياسة الشرعية » (١٠٦ - ١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٣٠١٤) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٧٤٤) و« مالك » في « الموطأ » في (كتاب الجهاد) (٢: ٤٤٧).

(٣) أخرجه « مالك » في « الموطأ » في (كتاب الجهاد) (٢: ٤٤٧) قال ابن عبد البر: اتفق رواة الموطأ على إرساله.

(٤) « شرح صحيح مسلم » (١٢: ٤٨).

يقصدون الذرية، امثالاً لأوامر النبي ﷺ فإن جاء قتلهم تبعاً لذلك فلا إثم عليهم ولا بأس، كما في حالة تحصن المشركين في قراهم، فاحتاج المسلمون إلى ضربهم بالمدافع، ونتج عن ذلك قتل الذرية والنساء، أو أغار المسلمون على الكفار ليلاً وأدى ذلك إلى قتل ذرياتهم ونسائهم.

ويشهد لهذا الرأي ما روى «الصَّعْبُ بن جَثَّامَةَ» قال: سئل رسول الله ﷺ عن الذَّراريِّ من المشركين يُبَيِّتُونَ فُيُصِيبُونَ من نسائهم وذَراريِّهم فقال: «هم منهم»^(١).

أي: يأخذون حكم آبائهم في حِلِّ قتلهم. أما إذا قاتل النساء والصبيان أو استُعِين بهم بأي نوع من أنواع المشاركة في قتال المسلمين فيجوز قتالهم في حالة المقاتلة وبعدها، لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠). والنساء والصبيان إذا قاتلونا فيقتلون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَمُوهُمْ﴾ (البقرة: ١٩١) وهذا أمر بقتل من يُقاتلنا حيث نجده، وهو بعمومه يشمل النساء والصبيان الذين يقاتلوننا.

٣- كراهية ضرب المرأة بسيف رسول الله ﷺ:

قال ابن إسحاق: وقال «أبو دُجَانَةَ سِمَاكُ بن خَرَشَةَ»: رأيت إنساناً يَحْمِسُ الناسَ حَمْسًا شَدِيدًا، فصمدتُ له، فلما حملتُ عليه السَّيفَ وَلَوْلَ، فإذا امرأةٌ، فأكرمتُ سيفَ رسولِ الله ﷺ أن أضرب به امرأة^(٢). لأنه يخصه لضرب الأبطال الأشداء.

(١) أخرجه «البخاري» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد) (٣٠١٢) و«مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد) (١٧٤٥) واللفظ لمسلم. قال «النوي»: المراد بالذراري هنا النساء والصبيان.

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣: ٧٣) و«مجمع الزوائد» (٦: ١٠٩).

وبطل الإسلام أبو دجانة الأنصاري يزيّن شجاعته بالنخوة والمروءة فلا يصبّ نيرانها على ضعيف لا ناصر له، ولا سيما إذا كان سلاحه في هذه الشجاعة مشرفاً، حُصّ به دون سائر أبطال الإسلام وشجاعته، ولهذا أبت عليه نخوته البطولية، ومروءته أن يقتل بسيف رسول الله ﷺ امرأة صاحت تطلب الصريخ، وتستصرخ مستغيثة، إذ رفع السيف على رأسها تطلب النصر فلا تجد نصيراً، لكنه فلق به هامات الأبطال المشركين، فكان لا يلقى جمعاً منهم إلا فضّه، ولا يعرض له بطل من أبطالهم إلا جعله كأمس الدابر^(١).

□ حكم قتل الشيخ الهرم والأعمى والراهب والزّمن :

لا يجوز قتلهم، إذا لم ينصبوا أنفسهم لعداء المسلمين، ولم يشاركوا في قتالهم^(٢).

والأصل أن كلّ مَنْ لم يكن أهلاً للقتال لا يُقتل، ولا يجوز قتله إلا إذا قاتل حقيقة أو معنى بالرأي والطاعة والتحريض^(٣).

لأن المسلمين دعاءً سلم حتى في حروبهم، فهم لا يقاتلون إلا مَنْ قاتلهم، ويكفون عن الرهبان والصبيان والنساء، ولا يفسدون الزروع، ولا يخربون البيوت، ولا يجتثون الشجر.

ويشهد لذلك : ١- قوله تعالى : ﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونََكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ (البقرة: ١٩٠).

(١) انظر « محمد رسول الله ﷺ » (٣: ٥٩).

(٢) انظر « المغني » (١٣: ١٧٨ - ١٧٩).

(٣) « بدائع الصنائع » (كتاب السير) (٩: ٤٠٠).

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية : لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير، ولا من ألقى إليكم السلم، وكف يده، فإن فعلتم فقد اعتديتم^(١).

٢- ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « انطلقوا باسم الله، وباللله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولا صغيراً ولا امرأة^(٢) ».

٣- عن مالك عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق بعث جيوشاً إلى الشام. فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان. فزعموا أن يزيد قال لأبي بكر: إما أن تترك، وإما أن أنزل، فقال أبو بكر: ما أنت بنازل وما أنا براكب. إني أحسب خطي هذه في سبيل الله. ثم قال له: إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله. فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له. لا تقتلن امرأة، ولا صبياً، ولا كبيراً هرمًا^(٣).

٤- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ إذا بعث جيوشه قال : « أخرجوا باسم الله، تقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع^(٤) ».

(١) « جامع البيان » (٣: ٢٩١).

(٢) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجهاد) (٢٦١٤) و « ابن أبي شيبة » في « المصنف » في (كتاب السير) (١٧: ٥٧٤) و « البيهقي » في « السنن الكبرى » (٩: ٩٠).

(٣) أخرجه « مالك » في « الموطأ » في (كتاب الجهاد) (٢: ٤٤٧) وانظر « المغني » (١٣: ١٧٧).

(٤) أخرجه « البيهقي » في « السنن الكبرى » (٩: ٩٠).

عقد الرسول ﷺ رايته البيضاء إلى نصل رمح، ودفعه إلى « زيد بن حارثة »، واستمر يشيع جيشه حتى وصل إلى ثنية الوداع، فألقى إلى الجيش في الأمراء الثلاثة قواد غزوة مؤتة بهذه التوصيات :

« أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرًا . اغزوا باسم الله، فقاتلوا من كَفَرَ بالله . لا تَغْدُرُوا ولا تَعْلُوا ولا تَقْتُلُوا وليدًا . . . وستجدون رجالًا في الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم . . لا تَقْتُلَنَّ امرأةً، ولا صغيرًا ضَرَعًا^(١)، ولا كبيرًا فانيًا، ولا تَحْرِقَنَّ نخلاً، ولا تَقْلَعَنَّ شجرًا، ولا تَهْدِمُوا بَيْتًا^(٢) .

قال « النووي »^(٣) : أمَّا شيوخ الكُفَّار فإن كان فيهم رأي قُتِلوا . ا هـ

ويشهد لذلك أن « دُرَيْدُ بن الصَّمَّة » قتله « ربيعةُ بن رُفَيْعِ السُّلَمِيِّ » يوم حنين، وهو شيخ كبير لا يستطيع القتال؛ لأنه ذو رأي، وصاحب خبرة في المعارك، ولذلك استصحبه قومه ليهتدوا برأيه، وأقره النبي ﷺ على قتله^(٤) .

وخبر « دريد » ما روي أن « مالك بن عوف » أقبل فيمن معه ممن جمع من قبائل قيس وثقيف، ومعه « دُرَيْدُ بن الصَّمَّة » شيخ كبير في شِجار^(٥) له، يُقَادُ به حتى نزل الناس بأوطاس^(٦) فقال دريد - حين نزلوا بأوطاس فسمع رُغاء

(١) الصغير السن الضعيف.

(٢) « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » (٣ : ٩٦) وه إمتاع الأسماع » (٣٤٦).

(٣) في « شرح صحيح مسلم » (١٢ : ٤٨).

(٤) انظر « صحيح البخاري » في (كتاب المغازي) (٤٣٢٣).

(٥) شجار: شبه الهودج إلا أنه مكشوف الأعلى.

(٦) أوطاس: واد في ديار هوازن، كانت فيه وقعة حنين، وتسمى أيضًا غزوة أوطاس.

البعير، ونهيق الحمير، ويُعار الشاء، وبُكاء الصغير - : بأيّ وادِ أنتم؟
 فقالوا: بأوطاس. قال: نِعَمَ مجالُ الخيلِ، لا حَزْنُ ضِرْسٍ^(١)، ولا سَهْلٌ
 دَهْسٍ^(٢)، مالي أسمع رُغاءَ البعير، ونهيقَ الحمار، ويُعار الشاء؟
 فقالوا: ساق «مالك» مع الناس أموالهم وذرائعهم ونساءهم. قال: فأين
 مالك؟ فدُعِيَ مالك. فقال: يا مالك! إنك قد أصبحت رئيسَ قومك، وإن
 هذا يومٌ كائنٌ له ما بعده من الأيام، فما دعاك إلى أن تسوقَ مع الناس أموالهم
 وأبناءهم ونساءهم؟.

قال: أردتُ أن أجعل خلف كل رجل أهله وأمواله ليقاتل عنهم.
 فَأَنْقَضَ به^(٣) دريدٌ، وقال: يا راعي ضأنٍ^(٤) والله! وهل يَرُدُّ وجهَ المنهزم
 شيءٌ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورُمحه، وإن كانت عليك
 فُضِحَتْ في أهلك ومالك، فأرْفَعِ الأموال والنساء والذرائعَ إلى عُليا قومهم،
 ومُمَّتَّعِ بلادهم^(٥).

و«دريد» شيخ كبير مُجَرَّبٌ لا يستفاد منه إلا التيمُّنُ برأيه، ومعرفة في
 الحرب.

أما من التزم جانب السلام، ولم ينصب نفسه لعداء المسلمين ولا لقتالهم

(١) الحزن: المرتفع من الأرض. الضرس: الذي فيه حجارة محددة.

(٢) سهل: ضد الحزن. دهس: اللين الكثير التراب.

(٣) فأنقض به: زجره كما تزجر الدابة.

(٤) يُجْهَلُهُ بذلك.

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤: ٨٠ - ٨١) و«سير أعلام النبلاء» (٢٧: ١٩٣).

ولا لتحريض الأعداء عليهم، كالمدينين الذين ألقوا السلام، والمنهمكين في أعمالهم، والمعزولين من السلاح، فلا يُعتبرون محاربين في نظرة الشريعة^(١).

ويشهد لذلك ما ورد في كتاب عمر رضي الله عنه إلى قواده حيث قال: « اتقوا الله في الفلاحين فلا تقتلوهم إلا أن ينصبوا إليكم الحرب »^(٢).

هذه هي تعاليم الإسلام وآدابه في الحروب.

معاملة الجرحى والمرضى والقتلى

□ معاملة الجرحى والمرضى في العهد النبوي :

كان النبي ﷺ حَسَنَ المعاملة مع أعدائه، ومن ذلك موقفه مع كفار مكة، بعد كفاح مرير دام بضع سنين، حصل له النصرُ وفتحُ مكة، فأحاط الذعرُ والخوفُ بقريش؛ لمعرفتهم ما قدّموه للنبي ﷺ وأصحابه، لكن نبيَّ الرحمة والهدى عفا عنهم وأطلقهم، فالرحمة تخالط بشاشة قلب النبي ﷺ في كل وقت، وتعلو فوق القوة والسلاح في كل حال، والرحمة الحقيقية في هذا العالم هي في قطع الفساد، ومنع الشرّ، وإصلاح المجتمع^(٣).

ومنطق الإسلام في معاملاته العفو والمسامحة. قال تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا

(١) انظر « آثار الحرب » (٥٠٢ - ٥٠٣).

(٢) أخرجه « البيهقي » في « السنن الكبرى » في (كتاب السير) (٩: ٩١).

(٣) انظر « آثار الحرب » (١٤٤) و« قواعد الحرب » (١٣٦).

سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ (المائدة : ٩٥).

فالإسلام دينُ العدل والرحمة ولذلك يأمر بعلاج الجرحى والمرضى من الأعداء .

فإذا انتهت المعركة، ووجد مَنْ هو جريح من الأعداء، أو مريض فلا بأس بمعاملته بالإحسان ومداواته ؛ لأن الأمر بالإحسان إلى الأسارى يتناول علاجهم . والاطمئنان على سلامتهم ^(١) .

أما جرحى المسلمين ومرضاهم فمهمة المسلمين في الجهاد، وقد تُوكل إلى النساء عند الحاجة إليهن في ذلك .

فلقد رخص رسول الله ﷺ للمرأة في ساعة العُسرة، وشدة الحاجة أن تناضل وتقاتل، وتحمل السلاح لإعلاء كلمة الله، وتفتح الميدان لتمرير الجرحى في سبيل الله تعالى .

كان رسول الله ﷺ قد جعل « سعد بن معاذ » ^(٢) في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها : « رُقيدة » في مسجده، كانت تُداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسولُ الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهمُ بالخذق : اجعلوه في خيمة رُقيدة حتى أعوده من قريب ^(٣) .

وكان رسول الله ﷺ يغزو بأُمَّ سَلِيمٍ ونسوة معها من الأنصار يسقين الماء،

(١) انظر « آثار الحرب » (٤٧٦).

(٢) شهد بدرًا، ورُمي بسهم يوم الخندق، فعاش بعد ذلك شهرًا، وذلك سنة خمس، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: اهتزَّ العرش لموت سعد بن معاذ. « الإصابة » (٣ : ٨٤).

(٣) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ٢٥٠).

ويُداوِينَ الْجَرْحَى (١).

وقالت أم عطية الأنصارية : غزوتُ مع رسول الله سبعَ غزوات، أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقومُ على المرضى (٢).

قالت « الرُّبَيْع بنت معوذ » : « كُنَّا مع النبي ﷺ فنسقي القومَ ونخدمُهم، ونُرَدُّ الْجَرْحَى والقَتلى إلى المدينة » (٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال : لما كان يوم أُحُد انهزم الناسُ عن النبي ﷺ. ولقد رأيتُ عائشة بنتَ أبي بكرٍ، وأم سُلَيْمٍ وإنهما لمُشَمَّرتانِ، أرى خَدَمَ سَوْقِيهما، تَنْقُرَانِ الْقِرْبَ. وقال غيره : تَنْقُرَانِ الْقِرْبَ على مُتُونِهما ثم تُفْرِغَانِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ، ثم تَرْجِعَانِ فتمَلَأْنِها، ثم تَجِيئَانِ فْتُفْرِغَانِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ (٤).

هكذا كانت سيرة النبي ﷺ. ومنها تظهر عناية الرسول ﷺ بجرحاهم ومرضاهم، وللنساء دور كبير في جلب الماء ومداواة الجرحى، وذلك عند الحاجة إليهن في ذلك (٥).

لقد حرَّرَ الرسول ﷺ المرأةَ مما كانت عليه في الجاهلية، وصان كرامتها، وأحاطها بسياج من الطهر والأخلاق، وأوصى بها، قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ

(١) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجهاد) (٢٥٣١) و« الترمذي » في « جامعه » في (كتاب السير) (١٥٧٥) من حديث « أنس » رضي الله عنه.

(٢) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٨١٢).

(٣) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٢٨٨٣). لـ « الرُّبَيْع » ولأبيها صحبة. « فتح الباري » (٦ : ٨٠).

(٤) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٢٨٨٠) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٨١١).

(٥) انظر « قواعد الحرب » (١٣٨).

بِالْمَعْرُوفِ ﴿ (النساء: ١٩)، وقال ﷺ: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي »^(١).

فمن النساء الممرضات المدافعات عن حياض الإسلام، الدّيّات الصيّات العفيفات الشريفات، لا المتبرّجات ولا المتكشفات، جئن مع أزواجهنّ أو آبائهنّ أو إخوانهنّ، كل ذلك بضوابط شريعة محكمة.

□ المثلة في الشريعة :

المثلة : الجذعُ، وظهورُ آثار الفعل عليه تنكيلاً^(٢). والنكال يقتضي تعذيب من يُمثّل به، وهذا ممنوع شرعاً.

إن الإسلام قد حرّم المثلة بالقتلى؛ لأنها تدل على انعدام الشعور الإنساني، وتنبو عن الذوق الآدمي، وتنفرّ منها الطباع السليمة، والفظر القويمة.

إن قطع أذن العدو بعد قتله، أو فقء عينه، أو كسر رأسه، أو قطع يديه أو رجله، أو قطع لسانه، أو جدد أنفه، أو بقر بطنه مُثلةً قبيحةً نهى الإسلام عنها^(٣).

الإسلام لا يجيز التعذيب بمن هو في الرمق الأخير، ولا التمثيل بالقتلى، أو قطع شيء من أطرافهم بعد الظفر بهم^(٤).

(١) أخرجه « ابن ماجه » في « سننه » في (كتاب النكاح - باب حسن معاشره النساء) (١٩٧٧) عن « ابن عباس » رضي الله عنهما.

(٢) انظر « المصباح المنير » (مثل ٥٦٤).

(٣) « المدرسة النبوية العسكرية » (٢٦٥).

(٤) « فتح القدير » لابن الهمام (٤: ٢٩٠).

ويُكره نقلُ رؤوس القتلى من بلد إلى بلد، والمُثَلَّةُ بقتلاهم وتعذيبهم^(١).
ويشهد لذلك ما يأتي :

١ - حديث « بريدة » أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيشٍ أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال : « اغزُّوا باسم الله، في سبيل الله، وقاتلوا مَنْ كَفَرَ بالله، اغزُّوا ولا تَغْلُوا، ولا تَعْدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا، ولا تقتلوا وليداً... »^(٢). واستدل « النووي » بهذا الحديث على كراهة المُثَلَّةِ^(٣) مع أن الظاهر حرمتها لأن الأصل في النهي التحريم. وذكر الصنعاني : أن المُثَلَّةَ محرمة بالإجماع^(٤).

وقال الشوكاني : هذا الحديث دليل على تحريم المُثَلَّةِ^(٥).

٢ - ما روي عن « أبي يعلى شَدَّاد بن أوسٍ » ﷺ قال : نِتانَ حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله كتبَ الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ »^(٦).

٣ - ما روي عن « سَمْرَةَ بنِ جُنْدَبٍ » ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة، وينهانا عن المُثَلَّةِ^(٧).

(١) « المغني » (١٣ : ١٩٩).

(٢) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٧٣١) و« مالك » في « الموطأ » (٢ : ٤٤٨).

(٣) « شرح النووي على مسلم » (١٢ : ٣٧).

(٤) « سبيل السلام » (٤ : ٤٦).

(٥) « نيل الأوطار » (٨ : ٧٥).

(٦) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الصيد والذباح) (١٩٥٥).

(٧) أخرجه « البيهقي » في « السنن الكبرى » في (كتاب السير) (٩ : ٦٩).

٤- قال ابن إسحاق : وكان « سُهَيْلٌ » رجلاً أَعْلَمَ ^(١) من شَفْتَه السفلى .

وقال ابن إسحاق : قال « عمر بن الخطاب » ﷺ لرسول الله ﷺ : دغني أَنْزَعُ نَنِيَّتِي « سُهَيْلُ بن عمرو » يَدْلَعُ ^(٢) لسانه ، فلا يقومُ عليك خطيباً في موطن أبداً . فقال رسول الله ﷺ : « لا أُمَثِّلُ به فيمَثِّلُ اللهُ بي وإن كنتُ نبياً » . قال « ابن كثير » : وهذا حديث مرسل ، بل مُعْضَلٌ .

قال ابن إسحاق : قال رسولُ الله ﷺ لعمرَ في هذا : « إنه عسى أن يقومَ مقاماً لا تَدُمُهُ » ^(٣) .

قال « ابن كثير » : وهذا هو المقامُ الذي قامه سهيلٌ بمكة ، حين مات رسولُ الله ﷺ وارتدَّ من ارتدَّ من العرب ، ونَجَمَ النفاقُ بالمدينة وغيرها ، فقام بمكة فخطب الناسَ ، وثبَّتهم على الدين الحنيف ^(٤) .

موقف « سهيل » ، حين افتتان المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ

قال ابن إسحاق : ولما توفي رسول الله ﷺ عَظُمَتْ به مصيبة المسلمين ، فكانت عائشة تقول : لما تُوفي رسول الله ﷺ ارتدَّ العرب ، واشْرَأَبَتْ ^(٥) اليهودية والنصرانية ، وَنَجَمَ ^(٦) النفاقُ ، وصار المسلمون كالغنم المَطِيرَةِ في الليلة الشاتية ، لفقد نبيهم ﷺ حتى جَمَعَهُم الله على أبي بكر .

(١) الأعلام: المشقوق الشفة السفلى.

(٢) يخرج.

(٣) « السيرة النبوية » لابن هشام (٤: ٣١٦).

(٤) انظر « البداية والنهاية » (٥: ٢٠٢).

(٥) اشْرَأَبَتْ: تطلعت.

(٦) نجم: ظهر.

قال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم : أن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله ﷺ همُّوا بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك، حتى خافهم « عتَّاب بن أسيد » ^(١) فتوَارَى. فقام « سهيل بن عمرو » فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال :

إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوةً، فمن رابنا ضربنا عنقه. فتراجع الناس، وكفُّوا عما همُّوا به، وظهر « عتَّاب بن أسيد ».

فهذا المقام الذي أراد رسول الله ﷺ في قوله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تدمُّه » ^(٢).

قوله ﷺ : « لا أمثل فيمثل الله بي، وإن كنت نبيًا، إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تدمُّه ».

هذا جوابٌ بالغُ السموِّ في الرحمة والإنسانية. تفجَّرَ عن قلبٍ مستنير أشرق بنور النبوة، وعن عقلٍ كبير تربي على التأمل والنظر، وترعرع في حياة الله ورعايته، وتمرَّس بآيات الوحي والحكمة، فوسَّع العقول، ولو وُزنت به العقولُ كُلُّها لرجحها ^(٣).

فقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنية « سهيل »، ورأى أن ذلك من باب التمثيل، وتشويه خلقة الإنسان، وقال لعمر : « لا أمثلُّ به فيمثل الله بي، وإن كنت نبيًا ».

(١) كان « عتَّاب بن أسيد » والي مكة حين توفي رسول الله ﷺ، وكان أمره عليها.

(٢) « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ٣١٦).

(٣) انظر « السيرة النبوية » لأبي شهبة (٢ : ١٧٥).

وهذا أنموذج من منهج رسالته ﷺ وَضَعَهُ لِيَكُونَ نَبْرَاسًا لِأُمَّتِهِ فِي
انتصاراتها على أعدائها.

خطبة الرسول ﷺ في عرفة في حجة الوداع

خطب الرسول ﷺ خطبته الجامعة المانعة التي أرسى فيها قواعد العدل،
وبيّن فيها الحقوق والواجبات بما لا يستطيع أحد مجاراتها.

فقال : « إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي
شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بِلَدِكُمْ هَذَا . أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِيَّ
مَوْضُوعٌ ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ
بِْنِ الْحَارِثِ كَانَ مَسْتَرِضِعًا فِي بَنِي سَعْدِ فَقَتَلْتَهُ هُذَيْلٌ ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ،
وَأَوَّلُ رَبَا أَضَعُ رَبَانَا ، رَبَا الْعَبَّاسِ بِنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ .

فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانِ الله ، واستحللتم فروجهنَّ
بكلمة الله ، ولكم عليهنَّ ألاَّ يُوطئنَ فرشكم أحدًا تكرهونه ، فإنَّ فعلنَ ذلك
فاضربوهن ضربًا غيرَ مُبرَّحٍ ، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف . وقد
تركتُ فيكم ما لن تَصلُّوا بعده إن اعتصمتم به كتابَ الله . وأنتم تُسألون عني ،
فما أنتم قائلون ؟ » . قالوا : نشهدُ أنك قد بلَّغْتَ وأدَّيتَ ونصحتَ .

فقال : يَا ضَبْعَةَ السَّبَابَةِ ، يَرُفِعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا ^(١) إِلَى النَّاسِ وَيَقُولُ :
« اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ » ثَلَاثَ مَرَاتٍ ^(٢) .

(١) يقليبها ويردها إلى الناس مشيرًا إليهم.

(٢) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ) (١٢١٨) عن
جابر بن عبد الله، من حديث طويل.

وخطب ﷺ يوم النحر، ثم خطب ﷺ خطبة أوسط أيام التشريق يؤكد فيها حقوق الإنسان والعدل.

• ألقى الضوء على بعض فقرات خطبة الرسول ﷺ الجامعة :

- ١- « ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع » فيه إبطال لأفعال الجاهلية؛ لكشف زيفها، ووضوح شناعتها.
- ٢- « دماء الجاهلية موضوعة » فيه أنه لا قصاص في قتلها.
- ٣- « أول رباً أضع ربانا، ربا العباس » فيه أنه ينبغي على الإمام ونوابه ممن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر أن يبدأ بنفسه أولاً فهو أقرب إلى قبول قوله، وامثال أمره.
- ٤- « فاتقوا الله في النساء » فيه الحث على مراعاة حقوق النساء، والوصية بهنّ، ومعاشرتهنّ بالمعروف، ووجوب نفقة الزوجة وكسوتها على الزوج^(١). وفي ذلك تكريم للمرأة ما بعده تكريم، وحفظ لحقوقها لم يكن له نظير لا من قبل ولا من بعد، فقد كانت المرأة مستهجنة، وحقوقها مهدورة. فجاء الرسول ﷺ فسوى بينها وبين الرجل في الأحكام بله ما استثناه الشرع، مراعيًا طبيعتها وأنوثتها.

* * *

(١) انظر « فتح المنعم » (٥: ٢٥٤).

مبايعة الرسول ﷺ للنساء يوم الفتح

بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ بَايَعَ الرِّجَالَ عَلَى وَفْقِ مَبَايَعَتِهِنَّ اقْتِدَاءً بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَعْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المتحنة: ١٢).

روي عن عائشة بنت قدامة رضي الله عنها قالت: أنا مع أمي رائطة بنت سفيان الخزاعية، والنبى ﷺ يبايع النسوة، ويقول: «أبَايَعُكُمْ عَلَى الْأَلَّا تَشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقْنَ، وَلَا تَزْنِينَ، وَلَا تَقْتُلْنَ أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، وَلَا تَعْصِينَ فِي مَعْرُوفٍ».

قالت: فأطرقن، فقال لهن النبي ﷺ: «قُلْنَ: نعم فيما استطعتن».

فكنَّ يقلن وأقول معهن، وأمى تلقننى قولى: أى بُنَيَّةً فيما استطعت^(١).

وروي عن أميمة بنت رقيقة^(٢) رضي الله عنها أنها قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة بايعنه على الإسلام. فقلن: يا رسول الله نبايعك على ألا نشرك بالله

(١) أخرجه «أحمد» في «مسنده» (٦: ٣٦٥) و«النسائي» في «سننه» في (كتاب البيعة) (٤١٨٦)، وفي آخر الحديث: هَلُمَّ نَبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أصافح النساء. إنما قولى لمتة امرأة كقولى لامرأة واحدة».

(٢) صحابئة، وأمها أخت خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها.

شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بهتاناً نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيك في معروف. فقال رسول الله ﷺ: « فيما استطعتن وأطقتن ». قالت: فقلن: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، هلّم نبايعك يا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ:

« إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة »^(١).
دلّت هذه البيعة على ما يأتي:

- ١- النسوة شقائق الرجال في الأحكام الشرعية، قال تعالى: ﴿ وَهَلْنَ مِثْلُ لَذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، إلا ما استثناه الشرع.
- ٢- أن مبايعتهن لا تختلف عن مبايعة الرجال في الجوهر والهدف، سوى أنه لا مصافحة فيها، لحديث: « إني لا أصافح النساء »^(٢).
- ٣- حق المرأة في تعلم شؤون دينها ثابت مشروع، بل هو مفروض.
- ٤- ليس صوتها بعورة، وللرجال أن يحدثوها عند الضرورة. وأن تحدثهم في جدية، بلا تكسر ولا تئن ولا إغواء.
- ٥- احتفال القرآن العظيم والنبى ﷺ بمبايعة النساء أعظم دليل على إنقاذ المرأة من وهديتها، وإعلاء الإسلام لمكانتها، والسّموم بها إلى أوج العزة والكرامة.

(١) أخرجه « مالك » في « الموطأ » في (كتاب البيعة) (٢: ٩٨٢) و« الترمذي » في « جامعه » في (كتاب السير) (١٥٩٧).

(٢) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (٦: ٤٥٩) وفي « سنن ابن ماجه » في (كتاب الجهاد) قالت عائشة رضي الله عنها: « والله ما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ».

قاتل نفسه في النار

دخل في غزوة خيبر « قُرْمان الظَّفري » على رسول الله ﷺ وحوله جماعة من أصحابه، فلما انصرف الرجل قال الرسول ﷺ لمن حوله : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ » .

وظنَّ السامعون أنه منافق، وحرصوا على متابعته والاطلاع على تصرفاته، وبدأ القتال بين المسلمين والكفار، وإذا بالرجل يصول ويجول، ويُعْمِلُ سَيْفَهُ مرة، ونبله أخرى في المشركين، يقتل منهم ويجرح، ولا يدع منهم شاردة ولا واردة، ولا شاذة، ولا فاذة إلا أعمل سيفه .

مَثَلٌ رَائِعٌ مِنْ أَمْثَلَةِ الْبَطُولَةِ، وَصُورَةٌ فَدَّةٌ مِنْ صُورِ الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ وَمَحَارِبَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَدُهْشِ الَّذِينَ سَمِعُوا عَنْهُ مَا سَمِعُوا مِنَ الرَّسُولِ ﷺ .

وهاك حديثه :

عن « سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ التَّقِيُّ هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدْعُ لَهُمْ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ . فَقَالُوا : مَا أَجْزَأُ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأُ فُلَانٌ .

فقال رسول الله ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ » .

فقال رجل من القوم : أنا صاحبه . فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا

أسرعَ أسرعَ معه .

فجرح الرجلُ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموتَ، فوضعَ سيفه بالأرضِ
وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه .

فخرج الرجلُ إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهدُ أنك رسول الله . قال :
« وما ذاك ؟ » .

قال : الرجل الذي ذكرتَ أنّها من أهل النار، فأعظمَ الناسُ ذلك، فقلتُ :
أنا لكم به، فخرجتُ في طلبه حتى جرحَ جرحًا شديدًا، فاستعجلَ الموتَ،
فوضعَ نصلَ سيفه بالأرضِ، وذبابه بين ثدييه . ثم تحاملَ عليه فقتل نفسه .

فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « إنّ الرجل ليعملُ عملَ أهل الجنة فيما
يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعملُ عملَ أهل النار فيما يبدو
للناس وهو من أهل الجنة »^(١) . الذي تابعه وكشف أمره هو « أكثم بن أبي
الجون الخزاعي » .

• ذكر « ابن القيم » ما يستفاد من الحديث :

١ - أن المسلم إذا قتل نفسه، فهو من أهل النار، لقوله ﷺ في « قُزَمان » الذي
أبلى يومَ أُحدٍ بلاءً شديدًا، فلما اشتدَّت به الجراحُ نَحَرَ نفسه، فقال ﷺ :
« هو من أهل النار »^(٢) .

٢ - التحذير من الاغترار بالأعمال، وأنه ينبغي للعبد ألا يتكل عليها، ولا

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي - باب غزوة خيبر) (٤٢٠٣) و«

مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الإيمان) (١١٢) .

(٢) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٢ : ١٧١) .

يركن إليها، وكذا ينبغي للعاصي ألا يقنط من رحمة الله، إذ معنى « إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » أن الأعمال بالخواتيم.

- ٣- إخباره ﷺ بالمغيبات، وذلك من معجزاته الظاهرة ﷺ.
- ٤- جواز الإخبار عن حال الرجل السيئ إذا كان الإخبار يحقق مصلحة مشروعة. كالنية الحسنة، والإخلاص، والخوف من الله - تعالى - وعدم الغرور.
- ٥- الوعيد والتحذير من قتل النفس مهما كانت الآلام.
- ٦- أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وفجوره على نفسه. ولا يعارض هذا قوله ﷺ: « لا نستعين بمشرك »؛ لأن الفاجر غير المشرك.
- ٧- استدل به بعضهم على أنه لا يطلق على كل مقتول في الجهاد أنه شهيد، لاحتمال أن يكون مثل هذا، وإن كان مع ذلك يُعطى حكم الشهداء في الأحكام الظاهرة^(١).

* * *

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا. وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ وَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مَخْلَدًا فِيهَا أَبَدًا »^(٢).

(١) « زاد المعاد » (٣: ٢١٢).

(٢) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الإيمان - باب تحريم قتل الإنسان نفسه) (١٠٩) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

□ ويؤخذ من هذا الحديث :

- ١- تحذير الرسول ﷺ من الإقدام على التخلص من الحياة مهما كانت الأسباب والدواعي؛ لأن الحياة هبة من الله، وأنه ينبغي أن تُترك الروح لخالقها يسلبها متى يريد.
- ٢- وجوب الصبر على الآلام، وعدم السخط والجزع، والرضا بالقضاء، وهذا من أعظم العبادات، والرضى بتسليم قبض الروح لواهب الحياة.
- ٣- أن جناية الإنسان على نفسه كجنايته على غيره في الإثم؛ لأن نفسه ليست ملكاً له مطلقاً، بل هي لله - تعالى - فلا يتصرف فيها إلا بما أذن له فيه^(١).

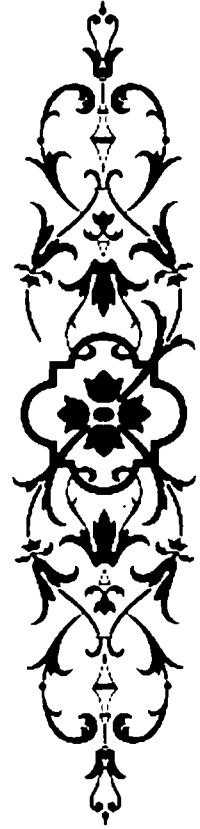
الرسول ﷺ ينهى عن ترويع المسلم

كان « زيد بن ثابت » فيمن ينقل التراب في الخندق. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه نعم الغلام! وغلبته عيناه فنام في الخندق، وكان القر شديدًا فأخذ « عمارة بن حزم » سلاحه وهو لا يشعر، فلما قام فرع. فقال له رسول الله ﷺ: « يا أبا رقاد! نمت حتى ذهب سلاحك » ثم قال: « من له علمٌ بسلاح هذا الغلام؟ » فقال عمارة: يا رسول الله، هو عندي. فقال: فردّه عليه. ونهى أن يروّع المسلم، ولا يؤخذ متاعه جادًا ولا لاعبًا^(٢).

(١) انظر « فتح المنعم » (١: ٣٥٥) بتصرف.

(٢) « الإصابة » (٢: ٥٩٤) و« إمتاع الأسماع » (٢٢٢).

المبحث الخامس
الأسرى



موقف الإسلام من الأسرى

لقد أشار القرآن إلى مواقف متعددة بالنسبة للأسرى، ولكنها غير متناقضة، ففي أول الأمر نرى حُضًا واضحًا على قتل الأسرى، وعتابًا على أخذ الفداء منهم.

وذلك لأن المسلمين في أول الأمر كانوا قلة، والكفار كثرة، فكانت الحاجة ماسة إلى كسر شوكة الكافرين آنذاك أكثر من حاجتهم إلى مال الفداء الذي يأخذونه من الكافرين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَبْخَرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧ ﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ (الأنفال: ٦٧ - ٦٩).

وفي الحديث الصحيح قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: « ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ » فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار. فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: « ما ترى يا ابن الخطاب؟ » قلت: لا والله، يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمكَّنَّا فنضرب أعناقهم. فتمكَّن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه. وتمكَّن من فلان - نسيبًا لعمر - فأضرب

عنه . فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها .

فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ ، فَإِنْ وَجَدْتُ بَكَاءَ بَكَيْتُ ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بَكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ (شَجَرَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ) وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخَبَ فِي الْأَرْضِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (الأنفال : ٦٧ - ٦٩) فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ »^(١) .

وروي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدرٍ، قال رسول الله ﷺ : « ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ »، فقال أبو بكر : يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقيهم، واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، قربهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه : يا رسول الله، انظر وادياً كثيراً الحطبِ، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً . فقال العباس : قطعت رحمتك .

فدخل رسول الله ﷺ، ولم يرده عليهم شيئاً .

فقال ناسٌ : يأخذُ بقول أبي بكرٍ، وقال ناسٌ : يأخذُ بقول عمرٍ، وقال ناسٌ : يأخذُ بقول عبد الله بن رواحة .

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد والسير) (١٧٦٣) .

فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ، فقال: « إِنَّ اللهَ لَيَلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ، حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللهَ لَيَشُدُّ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ، حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنْ الْحِجَارَةِ، وَإِنْ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿ فَمَنْ يَبْعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٦)، وَمَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٨)، وَإِنْ مَثَلَكَ يَا عَمْرُ كَمَثَلِ نُوحٍ، قَالَ: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح: ٢٦)، وَإِنْ مَثَلَكَ يَا عَمْرُ كَمَثَلِ مُوسَى، قَالَ: ﴿ أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَشُدِّدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (يونس: ٨٨) أَنْتُمْ عَالَةٌ، فَلَا يَنْفَلِتَنَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ، أَوْ ضَرْبَةٍ عُنِيَّ «.

قال عبد الله: فقلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإني سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليَّ حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال: « إلا سهيل بن بيضاء»، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُنْخِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧٧) ﴿ تُولَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لِمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨) (١).

كان أعظمُ جهادٍ هو جهادُ يوم بدرٍ. وهذه الآية نزلت بعد قضية فداء أسرى بدر مشيرة إليها. ونزلت لبيان الأمر الأجدر.

هوِي رسولُ الله ﷺ ما قاله أبو بكر فأخذ منهم الفداء؛ لأنه من اليسر والرحمة بالمسلمين؛ إذ كانوا في حاجة إلى المال، وكان رسولُ الله ﷺ ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

(١) الحديث أخرجه « أحمد » في « مسنده » (١: ٣٨٣).

والنبي ﷺ قتاله متمحّض لغاية واحدة، هي نصر الدين، ودفع أعدائه، وليس قتاله للملك والسلطان. فإذا كان أتباع الدين قلّة كان قتل الأسرى تقيلاً لعدد أعداء الدين حتى إذا انتشر الدين، وكثر أتباعه صلح الفداء لنفع أتباعه بالمال.

فهذا وجه تقييد هذا الحكم بقوله : (ما كان لنبي).

والكلام موجه للمسلمين الذين أشاروا بالفداء، وليس موجهًا للنبي ﷺ لأنه ما فعل إلا ما أمره الله به من مشاورة أصحابه في قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ^(١) (آل عمران : ١٥٩).

وهذه الآية تدل على أن الأسر مشروع، ولكن بشرط سبق القتل والتخويف للمشركين، وليس من شرط الإيخان قتل جميع الناس، بل المقصود إكثار القتل بحيث يوجب وقوع الرعب في قلوب أعداء الإسلام، حتى لا يجترثوا على محاربة أهله ^(٢).

ولما نزلت الآياتان أمسك الصحابة ﷺ عن الانتفاع بما أخذوا من الفداء وأسفوا لهذا العتاب. فأنزل الله سبحانه : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ^(٣) (الأنفال : ٦٩).

وعن ابن عباس : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ يعني في أم الكتاب الأول أن الغنائم والأسارى حلال لكم ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(١) انظر « التحرير والتنوير » (١٠ : ٧٣ - ٧٤).

(٢) « التفسير الكبير » (١٥ : ١٩٩).

(٣) انظر « التحرير والتنوير » (١٠ : ٧٨).

واختار ابن جرير^(١) هذا الرأي.

قال ابن كثير^(٢) : ويشهد لهذا القول ما أخرجاه في الصحيحين عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيْتُ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَظَهْرًا ، وَأَجِلْتُ لِي الْعَنَائِمُ وَلَمْ تَجَلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً »^(٣).

هذا هو موقف الإسلام من الأسرى أول الأمر، ثم لما كثر المسلمون، وقويت شوكتهم أباح لهم الإسلام اختيار ما يناسبهم من أمور أربعة : هي القتل، أو المن، أو أخذ الفدية، أو الاسترقاق.

لكن هذه الأمور إنما تكون بعد إرهاب الكافرين في ميدان القتال، والاستكثار من القتل منهم في أثناء المعركة.

قال تعالى مشيرًا إلى ذلك : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا ائْتَمَتُوهُمْ فَنُدُّوا إِلَيْكَ فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد : ٤).

قال ابن كثير^(٤) : والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر فإن الله - سبحانه - عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يوم بدر بقوله : ﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشِخِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ

(١) في « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » (١١ : ٢٧٧).

(٢) في « تفسير القرآن العظيم » (٤ : ٩٠).

(٣) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » (كتاب التيمم) (٣٣٥) و« مسلم » في « صحيحه » (كتاب المساجد) (٥٢١).

(٤) في « تفسير القرآن العظيم » (٧ : ٣٠٧).

يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كُنْتُ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨).

حكم الأسرى

إن حكم الأسرى في الإسلام مفوض إلى رأي الإمام أو نائبه ؛ ليختار حكماً من أربعة، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامة والأحكام الأربعة هي :

١ - القتل : وقد قتل رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن حارث .

قال الكمال بن الهمام وغيره : « وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه ؛ لأن الرأي فيه إلى الإمام . . »^(١).

٢ - المنّ : وهو إطلاق الأسير من دون مقابل ، وهذا ما فعله رسول الله مع أبي عزة الجمحي .

٣ - الفداء : إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال ، وهذا ما حدث مع العباس عم النبي ﷺ ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبي طالب وغيرهم .

فهذه الثلاثة تؤخذ من مجموع آيات سورتي (الأنفال، والقتال).

٤ - الاسترقاق : وقد أخذ من السنة العملية للرسول ﷺ . ففيها أنه ﷺ ضرب الرقّ على الكثيرين من الأسارى ، ومن هؤلاء نساء بني قريظة وذرائعهم^(٢) .

(١) « فتح القدير » (٤ : ٣٠٦).

(٢) انظر « السيرة النبوية » للصلاحي (٧٥٤).

تعاليم الرسول ﷺ نحو أسرى الحرب

١ - إطعام الأسير :

ضَرَبَ الإسلامُ المثلَ الأعلى في الرفق بالأسارى، والرحمة بهم،
والعناية بِشأنهم.

فعن أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير قال : كنت في الأسرى يوم
بدر، فقال رسول الله ﷺ : « استوصوا بالأسارى خيراً »^(١).

وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قَدَّموا
غداءهم وعشاءهم خَصُونِي بالخبز، وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله ﷺ
إيَّاهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كِسْرَةٌ من الخبز إلا نَفَخَنِي بها، قال :
فَأَسْتَحِييَ فَأَرَدَهَا على أحدهم فِيرَدُّهَا عَلَيَّ ما يمسها^(٢).

وبموجب هذا نصَّ الفقهاء على أنه لا يجوز تعذيبُ الأسير بالجوع
والعطش وغير ذلك من أنواع التعذيب؛ لأن ذلك تعذيب من غير فائدة.

وقد روي أن رسول الله ﷺ لما أمر بقتل اليهود شكَّوا العطش فقال : « لا
تجمعوا عليهم حرَّ السيف والعطش » فسُقُوا^(٣).

وقد وقع « ثمامةُ بن أنالٍ » أسيراً في أيدي المسلمين فجاؤوا به إلى
النبي ﷺ، فقال :

(١) رواه الطبراني في الصغير وإسناده حسن. « مجمع الزوائد » (٦ : ٨٦).

(٢) « السيرة النبوية » لابن هشام (٢ : ٣٠٠).

(٣) ذكره « المناوي » في « فيض القدير » (٤ : ٤٠٦).

« أحسنوا إيساره »، وقال: « اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه ».

وكانوا يقدمون إليه لبن لِقْحَة^(١) رسول الله ﷺ غدواً ورواحاً.

وقال « أبو العاص بن الربيع »: كنتُ في رهط من الأنصار - جزاهم الله خيراً - كُنَّا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبزُ معهم قليلٌ، والتمر زادهم حتى إنَّ الرجل لتقع في يده كِسْرَةٌ فيدفعها إليّ^(٢).

وكان « الوليد بن الوليد بن المغيرة » يقول مثلاً ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون^(٣).

ونجد في القرآن الكريم الحضَّ على إطعام الأسير، قال الله تعالى:

﴿ وَيُطْعَمُونَ أَطْعَامًا عَلَىٰ حُبِّهِمْ ۖ وَنِسِيئًا وَنَيْمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ (الإنسان: ٨-٩) .

قال ابن كثير: « قال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء»^(٤).

كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، ودكَّر به النبي ﷺ أصحابه فاتخذوه خُلُقًا، وكان لهم طبيعة قد أُنزِرَ في إسراع مجموعة من أشرف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم

(١) أي: ناقة حلوب.

(٢) كان الخبز يومئذ أحب وأغلى وأشهى إلى القوم من التمر؛ لكثرة التمر، وقلة الخبز.

(٣) انظر « المغازي » للواقدي (١: ١١٩).

(٤) « تفسير القرآن العظيم » (٨: ٢٨٨).

« أبو عزيز » عقيب بدر، بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وتنفيذ وَصَاة رسول الله ﷺ، وأسلم معه « السائب بن عبيد » بعد أن فدى نفسه .

فقد سَرَتْ دعوةُ الإسلام إلى قلوبهم سريان الماء في العروق، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهليهم يتحدّثون عن سيدنا محمد ﷺ ومكارم أخلاقه، ولطفه وسماحته، وعن دعوته لتوحيد الله -تعالى- وما فيها من البرِّ والتقوى، والإصلاح والخير والإيثار لهؤلاء المحاربين .

إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهدٌ على سموّ الإسلام في المجال الأخلاقي .

٢- كسوة الأسير :

أ - روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « لما كان يوم بدر وأُتِيَ بالعباس ولم يكن عليه ثوبٌ، فنظرَ النبيُّ له قميصًا، فوجدوا قميصَ عبد الله بن أبيي يُقدَرُ عليه، فكساه النبيُّ ﷺ إِيَّاه، فلذلك نَزَعَ النبيُّ ﷺ قميصَهُ الذي ألبَسَهُ » .

قال « ابنُ عُيَيْنَةَ » : كانت له عند النبيِّ ﷺ يدٌ فأحبَّ أن يُكافئَهُ^(١) .

وذلك لأنهم لم يجدوا قميصًا يصلح للعباس إلا قميصَ عبد الله ؛ لأن العباس كان طويلًا جدًّا .

والإسلام لا يهدر كرامة الإنسان بتركه عاريَ البدن، فهذا مما تأباه الطبائع، ولا تستسيغه النفوس ؛ إذ لا يجوز النظر إلى العورات أصلًا .

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٣٠٠٨) وانظر « فتح الباري » (٦) :

ب - قال « محمد بن إسحاق » في « المغازي » : أصابت خيلُ رسول الله ﷺ ابنة حاتم [الطائي] في سبايا طيِّء، فُقَدِمَتْ بها على رسول الله ﷺ، فُجِعِلَتْ في حظيرةِ باب المسجد، فمرَّ بها رسول الله ﷺ، فقامت إليه، وكانت امرأةً جزلة^(١)، فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد. فقال: «ومن وافدك؟» قالت: «عديُّ بن حاتم». قال: «الفارُّ من الله ورسوله؟» ومضى حتى مرَّ ثلاثاً، قالت: فأشار عليُّ بن أبي طالب أن قومي فكلميه. قالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامننَّ عليَّ من الله عليك. قال: «قد فعلتُ، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي [من قومك] ثقةً يُبلِّغك بلادك، ثم آذنيني». وقدَّم ركبٌ من «بليي»^(٢)، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: قدم رهطٌ من قومي. قالت: كساني رسول الله ﷺ وحملني وأعطاني نفقةً، فخرجتُ حتى قدمت على أخي. فقال: ما ترين في هذا الرجل؟ فقلت: أرى أن تلحق به. واسمها «سَفَّانة بنت حاتم» وأسلمت وحسن إسلامها^(٣).

وقد أخرج قصة أسرها «أبو بكر البيهقي» بسنده. ومما ذكره: لما أتيت بسبايا طيِّء قالت [أي سفَّانة]: يا محمد، إن رأيت أن تُخلِّي عني ولا تُسميت بي أحياء العرب، فإنني ابنة سيِّد قومي، وإنَّ أبي كان يحمي الدِّمار، ويُفكُّ العاني، ويُشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقرِّي الضيف، ويُطعم الطعام، ويُفشي السلام، ولم يردَّ طالب حاجة قطُّ، أنا ابنة حاتم طيِّء.

(١) يقال: فلان جزلٌ الرأي، أي: واسع.

(٢) قبيلة. وبليي بن عمرو بن الحافي بن فُضاعة من القحطانية. «تاج العروس» (بلي: ١٠: ٤٤) و«جمهرة أنساب العرب» (٤٤٢).

(٣) «مجمع الزوائد» (٥: ٣٣٥) و«الإصابة» (٧: ٧٠١) و«المواهب اللدنية» (١: ٦٢٠).

فقال النبي ﷺ : « يا جارية، هذه صفة المؤمنين حقاً لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلّوا عنها، فإن أباهما كان يُحبُّ مكارمَ الأخلاق، والله تعالى يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ »^(١).

* * *

هكذا كانت معاملة رسول الله ﷺ للأسرى، يراعي حقوق الإنسان، برحمة نابعة من داخل ذاته الشريفة.

كان « العباس » مع جيش المشركين محارباً ثم أسيراً لم يكن عليه ثوبٌ، فألبسه ﷺ ثوباً واسعاً أخذه من « عبد الله بن أبيّ ». ولقد رسخت في ذاكرة النبي ﷺ هذه المكرمة

لـ « عبد الله بن أبيّ » فنزع النبي ﷺ قميصه فكفّنه به بعد موته^(٢) مكافأةً له. إنها رحمةٌ لا حدود لها، ووفاءٌ لا حدود له.

أما « سفانة » فخلّى سبيلها رسولُ الله ﷺ بلا فداء وكساها، وزوّدها بالنفقة، وألحقها بأهلها، فأسلمت، وانطلقت داعية للإسلام تُعطرُ بفضائل القائد العام ﷺ المجامع، وتُفكُّه بثمرات أخلاقه المسامح.

٣- تبادل الأسرى :

أ- قال إياسُ بنُ سلمةَ : حدثني أبي^(٣) غَزَوْنَا فزارَةَ وَعَلِينَا أَبُو بَكْرٍ. أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا. فَلَمَّا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَاءِ سَاعَةً، أَمَرَنَا أَبُو بَكْرٍ

(١) « دلائل النبوة » (٥ : ٣٤١) وقد نقله عنه « ابن كثير » في « البداية والنهاية » (٣ : ٢٥٥).

(٢) كما في « صحيح مسلم » في (كتاب صفات المنافقين) (٢٧٧٣).

(٣) هو « سلمةُ بنُ عمرو بن الأكواع الأسلمي » رضي الله عنه.

فَعَرَسْنَا^(١). ثم شَنَّ الغارة. فورد الماء فقتلَ مَنْ قَتَلَ عَلَيْهِ، وَسَبَى. وأنظُرُ إلى عُتُقِ من الناس، فيهم الذَّراريُّ، فخشيتُ أن يَسْبِقُونِي إلى الجبل، فرميتُ بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهمَ وَقَفُوا، فجئتُ بهم أسوقهم، وفيهم امرأةٌ من بني فزارة، عليها قِشْعٌ من أَدَم^(٢)، معها ابنةٌ لها من أحسن العرب. فسُتُّهُمُ حتى أتيتُ بهم أبا بكرٍ، فنقلني^(٣) أبو بكر ابنتها.

فقدِمنا المدينةَ وما كشفتُ لها ثوبًا. فلَقَيْتَنِي رسولُ الله ﷺ في السُّوقِ، فقال: « يا سلمةُ ! هَبْ لي المرأةَ ». فقلتُ: يا رسولَ الله! والله! لقد أعجَبَنِي^(٤)، وما كشفتُ لها ثوبًا.

ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق، فقال لي: « يا سلمةُ ! هَبْ لي المرأةَ. لله أبوك ! ». فقلتُ: هي لك يا رسولَ الله! فوالله ما كشفتُ لها ثوبًا.

فبعث بها رسولُ الله ﷺ إلى أهل مكة، ففَدَى بها ناسًا من المسلمين كانوا أسيروا بمكة^(٥).

ب- روي عن عمران بن حصين. قال: كانت ثقيف حلفاء لبني عَقِيلِ. فأسرت ثقيف رجُلَيْنِ من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسرا أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عَقِيلِ.

(١) عرس: معناها هنا: أمرنا بالتوقف عن المسير والاستراحة آخر الليل.

(٢) القِشْعُ: الثَّطَعُ.

(٣) فنقلني: أعطاني نافلة زائدة على الحقِّ الواجب.

(٤) اعتذار عن عدم الإجابة إلى الهبة المطلوبة بأدب. « فتح المنعم » (٧: ١٤٠).

(٥) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد والسير) (١٧٥٥) وانظر « إنسان العيون

في سيرة الأمين المأمون » (٣: ٢٥٢).

وأصابوا معه العَضْبَاءَ^(١)، فأتى عليه رسولُ الله ﷺ وهو في الوثاقِ. قال :
يا محمدُ ! فأتاه، فقال : « ما شأنك ؟ » فقال : بِمِ أأخذتني ؟ وبِمِ أخذتِ سابقةَ
الحاجِّ^(٢) ؟ فقال : « أخذتُكَ بجريرةِ حُلْفانك ثقيفَ » .

ثم انصرف عنه فناداه . فقال : يا محمدُ ! يا محمدُ ! وكان رسولُ الله ﷺ
رحيمًا رقيقًا . فرجع إليه فقال : « ما شأنك ؟ » قال : إني مسلمٌ . قال : « لو
قلتَها وأنت تملك أمرَكَ، أفلحتِ كلَّ الفلاحِ » . ثم انصرف .

فناداه . فقال : يا محمدُ ! يا محمدُ ! فأتاه فقال : « ما شأنك ؟ »

قال : إني جائعٌ فأطعمني ، وظمآنٌ فاسقيني . قال : « هذه حاجتُكَ » ففدى
بالرجلين .

قال : وأسيرتِ امرأةً من الأنصار . وأصيبتِ العَضْبَاءُ . فكانت المرأةُ في
الوثاقِ . وكان القومُ يُريحون نَعَمَهُمْ بين يدي يَبُوتِهِمْ . فانفلتت ذاتَ ليلةٍ من
الوثاقِ فأتت الإبلَ . فجعلت إذا دنت من البعيرِ رَعًا فتركُه . حتى تنتهي إلى
العَضْبَاءِ . فلم ترعُ . قال : وهي ناقةٌ مَنوَّقةٌ^(٣) . فقعدت في عَجْزِها ، ثم زَجَرَتْها
فانطلقت . ونذروا^(٤) بها فطلبوها فأعجزتْهم . قال : ونذرتُ لله إن نجَّها اللهُ
عليها لتنحرَّنها . فلما قدِمَتِ المدينةَ رآها الناسُ . فقالوا : العَضْبَاءُ ، ناقةٌ
رسولِ اللهِ ﷺ .

(١) (أصابوا معه العَضْبَاءِ) أي: أخذوها. وهي ناقةٌ نجبية كانت لرجل من بني عقيل، ثم انتقلت إلى رسول الله ﷺ.

(٢) (سابقة الحاج) أراد بها العَضْبَاءِ . فإنها كانت لا تُسبق، أو لا تكاد تسبق . هي معروفةٌ بذلك .

(٣) مذلةٌ .

(٤) علموا وأحسوا بهربها .

فَقَالَتْ : إِنهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا اللَّهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَّنَّهَا . فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فذكروا ذلك له . فقال : « سبحانَ الله ! بئسَ مَا جَزَّئَهَا . نَذَرْتُ لله إِنْ نَجَّاهَا اللَّهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَّنَّهَا . لا وفاءَ لِنَذْرٍ في معصيةٍ ، ولا فيما لا يَمْلِكُ العبدُ » . وفي روايةِ ابنِ حُجْرٍ : « لا نَذْرَ في معصيةِ الله »^(١) .

ج - كان في الأَسارى « عمرو بنُ أبي سفيانَ صَخْرِ بنِ حَرْبٍ » . فقيل لأبي سفيانَ : أفدِ عَمْرًا ابْنَكَ . قال : أَيْجَمُعُ عَلَيَّ دمي ومالي؟ قَتَلُوا حنظلَّةً ، وأفدي عَمْرًا؟! دَعُوهُ في أيديهم يُمَسِّكُوهُ ما بدا لهم .

قال : فبينما هو كذلك محبوسٌ بالمدينةِ ، إذ خرج « سعدُ بنُ التُّعْمانِ بنِ أَكْغَالٍ » ، أخو بني عمرو بنِ عَوْفٍ ، ثم أحدُ بني معاويةَ مُعْتَمِرًا ، ومعه مُرِيَّةٌ له ، وكان شيخًا مسلمًا في غَنَمٍ له بالنَّقِيعِ^(٢) ، فخرج من هنالك مُعْتَمِرًا ، ولا يَخْشَى الذي صُنِعَ به ، لم يَظُنَّ أَنَّهُ يُحْبَسُ بمكةَ ، إنما جاء معتمرًا ، وقد كان عَهْدَ قُرَيْشًا لا يَعرِضون لأحدٍ جاء حاجًا أو مُعْتَمِرًا إِلَّا بخير ، فعدا عليه « أبو سفيان بنُ حربٍ » بمكةَ ، فحبسه بابنه عمرو ، ومشى بنو عمرو بن عوفٍ إلى رسولِ الله ﷺ فأخبروه خبره ، وسألوه أن يُعْطِيَهُم « عمرو بنُ أبي سفيانَ » ففكُّوا به صاحبهم ، فأعطاهم النبيُّ ﷺ ، فبِعَثُوا به إلى أبي سفيانَ ، فَخَلَّى سبيلَ سعدٍ^(٣) .

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب النذر) (١٦٤١) و« أحمد » في « مسنده » (٤) : (٤٣٠ ، ٤٣٤) وانظر « نيل الأوطار » (٨ : ١٤٦) .

هذا الحديث رواه « مسلم » من طريق شَيْخِيَّةٍ : « زهير بن حرب » و« علي بن حُجْر السُّعْدِي » وساق « مسلم » لفظ زهير ، ونصَّ على رواية « علي بن حُجْر » .

(٢) موضع قريب من المدينة ، وهو وادٍ يدفع سيَّله إلى المدينة « المغانم المطابة » (٣ : ١١٢٩) .

(٣) « البداية والنهاية » (٥ : ٢٠٣ - ٢٠٤) .

٤- النهي عن ضرب الأسير :

جاء في الصحيح في (غزوة بدر) : وَوَرَدَتْ عَلَيْهِمُ رِوَايَا قُرَيْشٍ^(١) . وفيهم غلامٌ أسودُ لبني الحَجَّاجِ فأخذوه، فكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه .

فيقول : مالي علمٌ بأبي سفيانَ، ولكن هذا أبو جهلٍ، وَعُتْبَةُ، وشيبةُ، وأمِيَةُ بنِ خَلْفٍ . فإذا قال ذلك، ضربه، فقال : نعم . أنا أخبرُكم، هذا أبو سفيانَ، فإذا تركوه فسألوه فقال : مالي بأبي سفيانَ علمٌ، ولكن هذا أبو جهلٍ، وَعُتْبَةُ، وشيبةُ، وأمِيَةُ بنِ خَلْفٍ في الناس، فإذا قال هذا أيضاً ضربه، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ يصلي، فلما رأى ذلك انصرف^(٢)، قال : « والذي نفسي بيده ! لتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم »^(٣) .

فالإسلامُ لا يجيزُ ضربَ الأسير، ولا تعذيبه، ولو كان ذلك للحصولِ على معلوماتٍ منه . سُئِلَ « مالكٌ » رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « أَيُعَذَّبُ الأَسِيرُ إن رُجِيَ أن يدلَّ على عورةِ العدوِّ؟ قال : ما سمعتُ بذلك »^(٤) .

٥- النَّهْيُ عن التفريق بين الوالدة وولدها في السبي :

نَهَى الرسولُ ﷺ عن التفريق بين الأم وولدها؛ لأن الله ﷻ جعل الأم وعاءً للعطف والحنان، وحرمانُ الأطفال من أمهاتهم جنائيةٌ على حقوقهم، وظلمٌ لهم؛ لذلك قال النبي ﷺ : « من فَرَّقَ بين والدة وولدها فَرَّقَ اللهُ بينه »

(١) (رواية قريش) أي: إبلهم التي كانوا يستقون عليها. فهي الإبل الحوامل للماء. واحداً رواية.

(٢) أي: سلم من صلته.

(٣) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد والسير) (١٧٧٩) وانظر « السيرة النبوية »

لابن هشام (٢: ٢٦٨).

(٤) « التاج والإكليل » (٣: ٣٥٣).

وبين أجبته يوم القيامة .»

قال أبو عيسى : العملُ على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم ، كرهوا التفريق بين السَّبي : بين الوالدة وولدها ، وبين الولد والوالد ، وبين الإخوة^(١) .

ولما فرَّق عليٌّ ﷺ بين جارية وولدها ، نهى النبي ﷺ عن ذلك وردَّ البيع^(٢) .

وثبت في الصحيح عن عمر ﷺ قال : قَدِمَ على النبي ﷺ سَبِيٌّ ، فإذا امرأةٌ من السَّبي تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي ، إذا وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبي أَخَذَتْهُ ، فَأَلْصَقَتْهُ بِيطنها وَأَرْضَعَتْهُ ، فقال لنا النبي ﷺ : « أَتُرُونَ هذه طَارِحَةً وَلَدَهَا في النار؟ » قلنا : لا ، وهي تَقْدِرُ على أَلَّا تَطْرَحَهُ . فقال : « لله أَرْحَمُ بعباده من هذه بولدها »^(٣) .

قال ابن حجر : وهذا السَّبيُّ هو سَبِيُّ هِوَاذَنَ . أَتُرُونَ : أي : أَتظنونَ ؟ (وهي تقدر على أَلَّا تطرحه) أي : لا تطرحه طائعة أبداً^(٤) .

وهذا التفريق مقيد بما كان دون البلوغ ، وهو سن الرعاية ، وعدم التكليف .

(١) أخرجه « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب السير - باب في كراهية التفريق بين السَّبي) (١٥٦٦) من حديث أبي أيوب ، ﷺ .

(٢) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجهاد - باب في التفريق بين السبي) (٢٦٩٦) .

(٣) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في « كتاب الأدب » (٥٩٩٩) .

(٤) « فتح الباري » (١٠ : ٤٣٠) .

قال « عبادة بن الصامت » رضي الله عنه : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْأُمِّ وَوَلَدِهَا . فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِلَى مَتَى ؟ قَالَ : « حَتَّى يَبْلُغَ الْغُلَامُ ، وَتَحِيضَ الْجَارِيَةَ » ^(١) .

فالرحمة والرفق من الأخلاق العظيمة التي دعى إليها الإسلام، وحضَّ عليها . ومعيار الرحمة التي يحتكم إليها الناس عند الاختلاف هو رسول الله ﷺ .

٦- وجوب فكك الأسرى :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فُكُّوا الْعَانِي - يَعْنِي الْأَسِيرَ - وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ » .

وعن أبي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه قال : « قُلْتُ لِعَلِيِّ رضي الله عنه : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟

قال : لا والذي فَتَقَ الْحَبَةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فِهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ .

قلت : وما في الصحيفة ؟ قال : الْعَقْلُ ، وَفَكَّاكُ الْأَسِيرِ ، وَأَلَّا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ » ^(٢) .

وعن « الحسن » أن « الحجاج » أتى بأسيرٍ ، فقال لعبد الله بن عمر : قم فاقتله . فقال : « ابن عمر » : ما بهذا أمرنا ، يقول الله : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَخْتَضُّوهُمُ فَنُذِّقُوا أَلْوَانَ الْوَتَاكِ فِيمَا مَتَاءٌ بَعْدُ وَإِمَاً فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ

(١) أخرجه « البيهقي » في « السنن الكبرى » (٩ : ١٢٨) .

(٢) الحديث والأثر أخرجهما « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٣٠٤٦) .

وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبَلَّوْا بَعْضَكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ (محمد : ٤).

قال ابن حجر : قال ابن بطلال : فكاك الأسير واجب على الكفاية، وبه قال الجمهور.

وقال إسحاق بن راهويه : من بيت المال . وروى عن مالك أيضاً .

وقال أحمد : يفادى بالرؤوس، وأما بالمال فلا أعرفه، ولو كان عند المسلمين أسارى وعند المشركين وانفقوا على المفاداة تعينت، ولم تجز مفاداة أسارى المشركين بالمال^(٢).

٧- التعليم مقابل الفداء :

من لم يكن من الأسارى عنده مال، ويعرف القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم القراءة والكتابة. وهذا مظهر من مظاهر الترغيب في العلم. ويومئذ تعلم « زيد بن ثابت » الكتابة في جماعة من غلمان الأنصار^(٣).

أخرج « أحمد »^(٤) عن « ابن عباس » قال : كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار

(١) الأثر أخرجه « ابن أبي شيبة » في « المصنف » (١٨ : ٦٣).

(٢) « فتح الباري » (٦ : ١٦٧) وانظر « آثار الحرب » (٤٧٣).

(٣) « إمتاع الأسماع » (١٠١).

(٤) في « المسند » (١ : ٢٤٧) و« الحاكم » في « المستدرک » في (كتاب قسم الفيء) (٢ : ١٣٩)

وقال: حديث صحيح الإسناد.

الكتابة^(١).

وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في هذا الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يُرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة وإزالة الأمية.

وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ١-٥).

استفاضت نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم، وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يُعدُّ النبي ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية، وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام^(٢).

قال الشيخ « محمد عبد العظيم الزرقاني » : « هكذا أعلن الرسول ﷺ بعمله هذا أن القراءة والكتابة عديلان للحرية، وهذا منتهى ما تصل إليه الهمم في تحرير شعب أميٍّ من رقِّ الأمية. وبمثل هذه الطريقة أخذت ظلمات الأمية تتبدد بأنوار الإسلام شيئاً فشيئاً، وحلَّ محلَّها العلم والكتابة والقراءة. وهذا من أدل الأدلة على أن الإسلام دين العلم والحضارة والمدنية^(٣) ».

كان رسولُ الله ﷺ يشجّع العلماء وطلاب العلم على التعليم والتعلم،

(١) « البداية والنهاية » (٥ : ٢٥٦).

(٢) « السيرة النبوية » لأبي شهبه (٢ : ١٦٥).

(٣) « مناهل العرفان » (١ : ٣٥٣).

وإن التشجيع العلمي بلغ أوجه.

ويكفي أهل العلم فضلاً أن رسول الله ﷺ رائداهم، وحث الأمة على احترام العلماء، ومعرفة حقوقهم فقال: « ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه »^(١).

٨- الجزية مقابل عقد الذمة :

أسر « خالد بن الوليد » ﷺ في أحد سراياه « أكيدر بن عبد الملك » صاحب دومة الجندل، فجاء به إلى الرسول ﷺ فعقد الذمة لنفسه ولقومه وأقر بدفع الجزية فأطلقه ﷺ^(٢).

كما جاء « يُحَنُّ بن ربيعة » صاحب أيلة^(٣) فدفع الجزية لرسول الله ﷺ وعقد الذمة لقومه، وجاءه أهل أذرح والجرباء، فأمنهم الرسول جميعاً وعقد لهم الذمة وكتب لهم كتباً^(٤).

* * *

(١) جاء في « مجمع الزوائد » (١: ١٢٧): رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسناده حسن من حديث « عبادة بن الصامت » ﷺ.

(٢) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤: ١٧٠).

(٣) أيلة: مدينة على ساحل البحر الأحمر، تعرف اليوم بالعقبة.

(٤) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤: ١٦٩).

من أخلاق الرسول ﷺ الرحمة والعدل

روي عن « ابن عباس » رضي الله عنهما قال : لَمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ،
وَالْأَسَارَى مَجْبُوسُونَ بِالْوَثَاقِ بَاتَ النَّبِيُّ ﷺ سَاهِرًا أَوَّلَ اللَّيْلِ .

فَقَالَ أَصْحَابُهُ : مَا لَكَ لَا تَنَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « سَمِعْتُ أَنِينَ عَمِي
الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ » فَأُظْلِفُوهُ ، فَسَكَتَ ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

قال ابن إسحاق : وكان رجلاً موسراً ففادى نفسه بمئة أوقية من ذهب .

قال « ابن كثير » : وهذه المئة كانت عن نفسه، وعن ابني أخوته عقيل
ونوفل، وعن حليفه عتبة بن عمرو وأحد بني الحارث بن فهر، كما أمره بذلك
رسولُ الله ﷺ حين ادَّعى أنه كان قد أسلم . فقال له رسولُ الله ﷺ : « أما
ظاهرك فكان علينا ، والله أعلمُ بإسلامك وسيجزيك » .

فادَّعى أنه لا مال عنده، قال : « فأين المال الذي دفتته أنت وأُمُّ الفضلِ ،
وقلتَ لها : إن أصبتُ في سفري فهذا المالُ لِيَنِّي : الفضلُ وعبدُ الله وقَتْمٌ ؟ » .

فقال : واللهِ إني لأعلم أنك رسولُ الله ، إنَّ هذا شيءٌ ما عَلِمَهُ إلا أنا وأُمُّ
الفضل^(١) .

(١) « البداية والنهاية » (٥ : ١٦٩ - ١٧٠) . و« أم الفضل » هي « لبابة بنت الحارث الهلالية » امرأة
العباس، أول امرأة أمنت بعد خديجة . وشقيقتها أم المؤمنين ميمونة . ماتت في خلافة عثمان قبل
زوجها العباس . « الإصابة » (٨ : ٢٧٦) .

وثبت في « الصحيح »^(١) عن أنس بن مالك قال : إن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ قالوا : ائذن لنا فلتترك لابن أختنا العباس فداءه ، فقال : « والله لا تَدْرُونَ منه درهماً » .

ورجع العباس لمكة ، وقد دفع الفداء عنه وعن أبناء أخوته ، وأخفى إسلامه وأصبح يقود جهاز استخبارات الدولة الإسلامية بمكة بمهارة فائقة ، وقدرة نادرة ، حتى انتهى دَوْرُهُ في فتح مكة ، فأعلن إسلامه قبلها بساعات^(٢) . وهنا تتجلى عدالة الرسول ﷺ في أتم مظاهرها في أخذ الفداء من القادرين عليه ، وعدم محاباته لذوي قرباه .

وعد الله الأسارى بالخير إن أسلموا

وقد وَعَدَ اللهُ - سبحانه - الأسارى مَنْ آمَنَ منهم وأسلمَ وَحَسُنَ إسلامُهُ بِالْخَلْفِ عما أُخِذَ منهم في الدنيا والآخرة ، قال عز شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣) (الأنفال : ٧٠) .

وهو ترغيب لهم في الإيمان ، وعِدَّةٌ لهم بِالْخَلْفِ في الدنيا والغفران في الآخرة .

وكان العباس رضي الله عنه ممن ناله هذا الوعد الكريم ، فكان يقول : أْبَدَلَنِي اللهُ من ذلك عشرين عبداً - وفي رواية : أربعين - كلهم تاجر بمالي .

(١) في « صحيح البخاري » في (كتاب الجهاد) (٣٠٤٨) وفي (كتاب المغازي) (٤٠١٨) .

(٢) انظر « السيرة النبوية » للصلاحي (٧٥٠) .

(٣) « البداية والنهاية » (٥ : ١٦٩) .

وأعطاني زمزم - يريد السقاية - ، وما أَحِبُّ أَنْ لي بها جميعَ أموال أهل مكة . وكان يقول بعد ما ناله من الخير حتى رضي : وأنا أرجو المغفرة التي وَعَدَنَا الله ، جلَّ ثناؤه ^(١) .

الرسول ﷺ يُطَلِّقُ أَبَا العاصِ بلا فداء

أطلق الرسول ﷺ جماعة من الأسارى مجاناً بلا فداء، منهم : « أبو العاص بن الربيع » و« المطلب بن حنطب » و« صيفي بن أبي رفاعه » و« أبو عزة الشاعر » و« وهب بن عمير الجمحي » ^(٢) .

كان في الأسارى « أبو العاص بن الربيع » ختن رسول الله ﷺ زوج ابنته زينب .

وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانةً وتجارةً، وكانت أمه « هالة بنت خويلد » أخت « خديجة بنت خويلد » وكانت خديجةً هي التي سألت رسول الله ﷺ أن يزوجه بابنتها زينب، وكان لا يخالفها، وذلك قبل الوحي .

وكان النبي ﷺ قد زوج ابنته رقية أو أم كلثوم من « عتبة بن أبي لهب » فلما جاء الوحي قال أبو لهب : أشغلوا محمداً بنفسه، وأمر ابنه « عتبة » فطلق ابنة رسول الله ﷺ قبل الدخول، فتزوجها « عثمان بن عفان » ^{رضي الله عنه} ومشوا إلى أبي العاص فقالوا له : فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأي امرأة من قريش شئت، قال : لا والله إذن ؛ لا أفارق صاحبتني وما أحبُّ أَنْ لي بامرأتي امرأة من

(١) « السيرة النبوية » لأبي شهبه (٢: ١٦٥).

(٢) « البداية والنهاية » (٥: ٢٥٥).

قريش، وكان رسولُ الله ﷺ يثني عليه في صِهْرِهِ^(١). كان الإسلامُ قد فرَّقَ بين زينبِ ابنةِ رسولِ الله ﷺ وأبي العاص، وكان لا يَقْدِرُ على أن يفرِّقَ بينهما. إنما حرَّم اللهُ المسلماتِ على المشركين عامِ الحديبية، سنة ست من الهجرة^(٢).

عن عائشة قالت: لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةِ فِي فِدَاءِ أُسْرَاهُمْ، بَعَثَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ فِي فِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ بِمَالٍ، وَبَعَثَتْ فِيهِ بِقِلَادَةٍ لَهَا كَانَتْ خَدِيجَةٌ أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَى أَبِي الْعَاصِ حِينَ بَنَى عَلَيْهَا.

قالت: فلما رآها رسولُ الله ﷺ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً وَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا لَهَا أُسِيرَهَا وَتَرَدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا فَافْعَلُوا».

قالوا: نعم يا رسولَ الله، فأطلقوه وردُّوا عليها الذي لها.

وقد كان رسولُ الله ﷺ قد أخذَ عليه أن يُخْلِى سَبِيلَ زَيْنَبَ. يعني أن تُهاجر إلى المدينة، فوقَى أبو العاصِ بذلك^(٣).

وبعث رسولُ الله ﷺ زيدَ بنَ حارثةَ ورجلاً من الأنصار، فقال: «كونا بيطن يَأْجِجَ»^(٤) حتى تَمَرَّ بِكَمَا زَيْنَبُ فَتَصْحَبَاهَا حَتَّى تَأْتِيَا بِهَا»^(٥).

إن «أبا العاص بن الربيع» زوجَ زينب بنت رسولِ الله ﷺ لم يُعرف عنه قط

(١) الحديث في الثناء على أبي العاص ثابت في «صحيح البخاري» (٣١١٠، ٣٧٢٩) و«صحيح مسلم» (٢٤٤٩).

(٢) «البدية والنهاية» (٥: ٢٠٥).

(٣) «البدية والنهاية» (٥: ٢٠٦).

(٤) موضع قريب من مكة مما يلي التنعيم «معجم ما استعجم» (١: ١١٠).

(٥) أخرجه «أبو داود» في «سننه» في «كتاب الجهاد» (٢٦٩٢).

موقفاً في مقاومة الدعوة، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ، وشغلته تجارته وحيأؤه من رسول الله ﷺ عن مواقف الشراسة في مقاومة الدعوة إلى الله، وفي بذر كان أبو العاص من بين الأسرى لم يُسمع له في المعركة صوتٌ، ولم يُعرف له رأيٌ، ولا شُهدت له في القتال جولةٌ.

لما رأى رسولُ الله ﷺ قِلادةَ ابنته رَقَّ لها رقة شديدة، إذ كانت هذه القِلادة الكريمة مبعثَ ذكريات أبوية عنده ﷺ، وذكريات زوجية، وذكريات أسرية، وذكريات عاطفية، فالنبي ﷺ أبٌ له من عواطف الأبوة أرفعُ منازلها في سجل المكارم الإنسانية، وأشرفها في فضائل الحياة، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرمة أسمى مشاعر الرحمة، وتزاحمت على فؤاده الأظهر عواطفُ الحنان والحنين، فتوجه إلى أصحابه متلطفًا يطلب إليهم في رجاء الأعز الأكرم رجاءً يدفعهم إلى العطاء ولا يسلبهم حقهم في الفداء، لو أنهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحق وهو في أيديهم يملكون التصرف فيه، فقال لهم: « إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها الذي هو لها ».

وهذا أسلوب من أبلغ وألطف ما يسري في حنايا النفوس الكريمة، فيطوِّعها إلى الاستجابة الراغبة الراضية رضاً يُنمُّ عن الغبطة والبهجة^(١).

إن هذا الموقف وما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه ﷺ على ابنته، يحمل في طياته مقصداً آخر وهو أنه كان يتألف صهره للإسلام بذلك، لما عرَفَ عنه من العقل السديد، والرأي الرشيد، فقد كان ﷺ يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة.

(١) انظر « محمد رسول الله ﷺ » (٣: ٤٨٠، ٤٨٧).

رد الرسول ﷺ السني إلى هوازن بعد إسلامهم

لقد كانت غنائم هوازن يوم حنين شيئاً كثيراً غامراً . أفاض الله - تعالى - فيها من فضله وخيره وبركاته على المسلمين ما لم يكن له مثيل قط في غزوة من الغزوات التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه . ثم ألقى الله نور الإسلام في قلوب هوازن فاهتدت، وقدمت وفودها وأشرافها على رسول الله ﷺ مبايعين مسلمين، ولكن قدومهم كان بعد أن قُسمت غنائمهم من الأموال والسبايا والأطفال على المجاهدين، ومَلَكَ كلُّ ذي حقٍّ منهم حقَّه، وأسرعوا التصرف في الأموال .

وقام أشراف هوازن يسألون رسولَ الله ﷺ أن يرُدَّ عليهم سييهم وأموالهم، فقالوا - يستعطفونه ﷺ، ويستزلون مكارم أخلاقه من علياء فضائله - : يا رسول الله، إنا أهلُ عشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا من الله عليك .

ثم قام خطيبهم « زهير بن صرد » - وهو أحد أشراف بني سعد الذين أترضوا رسولَ الله ﷺ وهم بطن من هوازن - فقال : يا رسول الله، إن اللواتي في الحظائر من السبايا خالاتك وعماتك، وحواضنك اللاتي كنَّ يَكْفُلُنَّكَ وأنت خير مكفول .

قال رسولُ الله ﷺ لأشراف هوازن مبيناً أن إسلامهم كان أحبَّ إليه من

أموالهم وسباياهم : « وقد كنتُ استأنيتُ بكم حتى ظننتُ أنكم لا تُقدّمونَ، وقد قسمت السبيَ، فاخترتُوا إحدى الطائفتين : إمّا السبيَ، وإمّا المالَ » فاخترتُوا السبيَ، فكلمتُ أصحابه في ردِّ سبيهم عليهم، وبدأ ﷺ بنفسه وخاصة أهله وأقاربه^(١). فقال رسول الله ﷺ : « أمّا ما كان لي ولبنّي عبد المطلب فهو لكم ». فأسرع المهاجرون فقالوا : وما كان لنا فهو لرسول الله .

وقفّاهم الأنصار فقالوا : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وقالت بنو سُلَيْمٍ بمثل ما قال خُلصُ المسلمين من المهاجرين والأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله . وامتنع بعضهم عن ردِّ حقّه .

فقال ﷺ : « أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل إنسان سِتٌّ فرائض - أو قلائص - من أول ما نصيبه^(٢) . فطابت نفوس من كان مخالفاً، وردّ المجاهدون على هوازن سبيهم من النساء والذرياري .

وقد كان المسلمون المجاهدون المثل الأعلى في الورع والتقوى، ونظافة الضمير والمبادرة إلى الاستجابة لشفاعة رسول الله ﷺ .

وهنا أقف مع هذا الحدث متأملاً قول إمام المسلمين رسول الله ﷺ : « أمّا ما كان لي ولبنّي عبد المطلب فهو لكم » فأستنتج منه خلقاً عظيماً في القيادة، وهو أنه ﷺ بدأ بنفسه وأهله، وهذا أقرب إلى قبول قوله، وامتنال

(١) انظر « صحيح البخاري » في (كتاب المغازي) (٤٣١٨) و« السيرة النبوية » لابن هشام (٤) : (١٣١) و« فتح الباري » (٨ : ٣٣).

(٢) أخرج بعضه « النسائي » في « سننه » في (كتاب الهبة) (٣٧١٨).

أمره ؛ لذلك صار أصحابه بسياسته الحكيمة طوعَ إرادته، ورهنَ إشارته، وانصبغوا بصبغته، وتخلَّقوا بأخلاقه، إن سُولموا فهم بحارٌ وغُيُوثٌ، وإن حُوربوا فهم صقورٌ ولُيُوثٌ، وإن لُويِنوا فهم أغصانٌ تُجتنى، وإن حُوشِنوا فهم سيوفٌ وقنا. وقد جاء في التنزيل: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩).

* * *

فتح الإسلام أبواب العتق على مصارعها، ويسرَّ سُبُلَهُ، وجعله من أعظم أسباب مرضاة الله، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا أَفْجَحَ الْعَقَبَةَ ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿ ١٢ ﴾ فَكَ رَقَبَةٌ ﴿ (البلد: ١١-١٣).

حوار الرسول ﷺ له ثُمَامَةُ بنِ أَنَاثِلِ ،

انظر ما التزمه الرسول ﷺ في سيرته من التسامح مع أناس أسروا وهم على شركهم، فلم يلجئهم على الإسلام بل تركهم واختيارهم.

المسلمون أسروا في سرية من السرايا سيّد بني حنيفة « ثُمَامَةُ بنِ أَنَاثِلِ الحنفي » وهم لا يعرفونه.

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفة، يقال له : « ثُمَامَةُ بنِ أَنَاثِلِ » سيّد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال : « ماذا عندك يا ثُمَامَةُ؟ ».

فقال : عندي يا محمدُ خيرٌ، إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دمٍ، وإن تُنْعِمَ تُنْعِمَ على شاكرٍ، وإن كنتَ تريدُ المالَ فسلْ تُعْطَ منه ما شئتَ .

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال : « ما عندك يا ثُمَامَة ؟ » قال : ما قلتُ لك، إن تُنْعِمَ تُنْعِمَ على شاكرٍ، وإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دمٍ، وإن كنتَ تريدُ المالَ فسلْ تُعْطَ منه ما شئتَ .

فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد . فقال : « ماذا عندك يا ثُمَامَة ؟ » فقال : عندي ما قلت لك، إن تُنْعِمَ تُنْعِمَ على شاكرٍ، وإن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دمٍ، وإن كنتَ تريدُ المالَ فسلْ تُعْطَ منه ما شئتَ . فقال رسولُ الله ﷺ : « أطلقوا ثُمَامَة » .

فانطلق إلى نخلي قريبٍ من المسجد، فاغتسلَ ثم دخل المسجدَ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . يا محمدُ والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليّ من وجهك، فقد أصبحَ وجهك أحبَّ الوجوهِ كُلِّها إليّ . والله ما كان من دين أبغضَ إليّ من دينك فأصبحَ دينك أحبَّ الدينِ كُلِّهِ إليّ . والله ما كان من بلدٍ أبغضَ إليّ من بلدك فأصبحَ بلدك أحبَّ البلادِ كُلِّها إليّ . وإن خيلك أخذتني وأنا أريدُ العمرةَ فماذا ترى ؟

فبشَّره رسولُ الله ﷺ وأمره أن يعتمرَ فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوتُ ؟

فقال : لا، ولكني أسلمتُ مع رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذنَ فيها رسولُ الله ﷺ^(١) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب المغازي) (٤٣٧٢) و « مسلم » في صحيحه في (كتاب الجهاد) (١٧٦٤) . وانظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ٢٨٦) و « المواهب اللدنية » (١ : ٤٧٢) .

ولقد استرقت قلب ثمامة هذه السماحة الفاتحة، وهذه المعاملة الكريمة، فذهب واغتسل ثم عاد إلى النبي ﷺ مسلماً مختاراً.

ولقد سر رسول الله ﷺ بإسلامه سروراً عظيماً، فقد أسلم بإسلامه كثير من قومه، ولم يقف أثر هذا التسامح في المعاملة عند إسلام ثمامة وقومه بل كانت له آثارٌ بعيدة المدى في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد ذهب إلى مكة معتمراً، فهم أهلها أن يؤذوه ولكنهم ذكروا حاجتهم إلى حبوب اليمامة، فألى على نفسه ألا يرسل لقريش شيئاً من حبوب اليمامة حتى يؤمنوا، فجهدوا جهداً شديداً فلم يروا بُداً من أن يستعينوا برسول الله ﷺ.

تُرى ماذا كان من أمر رسول الله ﷺ معهم؟ أيدع ثمامة حتى يلجئهم بسبب منع الحبوب عنهم إلى الإيمان؟ لا، لقد عاملهم بما عُرف عنه من التسامح، وأن لا إكراه في الدين، فكتب إلى ثمامة أن يُخلي بينهم وبين حبوب اليمامة، ففعل.

امتد أثر دخوله في الإسلام على أساس من الاختيار والرغبة الصادقة إلى ما بعد حياة النبي ﷺ، ذلك أنه لما ارتدَّ بعض أهل اليمامة ثبت « ثمامة » ومن اتبعه من قومه على الإسلام، وصار يحذر المرتدين من اتباع مسيلمة الكذاب، ويقول لهم: « إياكم وأمرأ مظلماً لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه الله - عز وجل - على من أخذ به منكم، وبلاء على من لم يأخذ به منكم ».

ولما لم يُجدِ النصيح معهم خرج هو ومن معه من المسلمين وانضموا لـ « العلاء بن الحضرمي » مدداً له، فكان هذا، مما فت في عضد المرتدين،

والحق بهم الهزيمة^(١).

□ أخلاق الرسول ﷺ التي تستبطن من هذا الحديث :

١ - تعظيم أمر العفو عن المسيء، لأن ثُمَامَةَ أقسم أن بغضه انقلب حُبًّا في ساعة واحدة لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمنّ بغير مقابل.

٢ - إن الإحسان يُزيل البغض ويُثبت الحب.

٣ - قوله : « ما عندك يا ثُمَامَةَ ؟ » فيه الملاطفة بمن يُرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العددُ الكثير من قومه^(٢).

* * *

(١) انظر « الإصابة » (١ : ٤١١) و« السيرة النبوية » لأبي شهبه (٢ : ١٠٠).

(٢) انظر « فتح المنعم » (٧ : ١٧٨).

لطافة الرسول ﷺ وحنائه

كان في سبي غزوة حنين « الشيماء بنت الحارث السعدية » أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، ولم تجد بين سائقي السبي مَنْ يعرفها، وقد أتعبها في السير مَنْ كان يسوق بالسبايا، فقالت لهم « الشيماء » متوددة مستعطفة : تَعَلَّمُوا^(١) أني أخت صاحبكم - تعني رسول الله ﷺ - من الرضاعة ! فلم يتقبلوا كلامها بتصديقها فيما قالت^(٢).

قال ابن إسحاق، عن أبي وجزة السعديّ: إن الشيماء لما انتهت إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، إنني لأختك من الرضاعة. قال: « وما علامة ذلك؟ ». قالت: عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك. فعرف رسول الله ﷺ العلامة. فبسط لها رداءه، ثم قال لها: ها هنا. فأجلسها عليه [ودمعت عيناه] وخيرها، فقال: « إن أحببت فأقيمي عندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتّعك وترجعي إلى قومك فعلت ». فقالت: بل تُمتّعني وتردني إلى قومي. فمتّعها وردّها إلى قوما.

فزعم بنو سعد بن بكر أنه أعطاها غلاماً يقال له: مكحول وجارية، فزوّجت إحداهما الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهم بقية^(٣).

(١) بمعنى: اعلّموا.

(٢) « محمد رسول الله ﷺ » (٤: ٣٨٥).

(٣) « السيرة النبوية » لابن هشام (٤: ١٠٠ - ١٠١).

قال ابن سعد : فأسلمتُ ، وأعطاهَا رسولُ الله ﷺ نَعْمًا وشَاءَ وثلاثةُ أعبد وجارية . وقال محمد بن المعلّى الأزدي في كتاب الترقيص : وكانت الشيماء ترقص النبي ﷺ وهو صغير بقولها :

يا رَبِّنا أبقِ لنا محمدا
حتى أراه يافعاً وأمردا
ثم أراه سيِّداً مسوِّدا
واقْبُتْ أعاديهِ معاً والحُسدا
وأعطِهِ عِزًّا يَدومُ أبدا

قال : فكان أبو عُروة الأزديّ إذا أنشد هذا يقول : ما أحسنَ ما أجابَ الله دعاءها !^(١)

له ﷺ لُطْفٌ خُلِقَ يَسْعَى اللُطْفُ لينظر إليه . قالت الشيماء : أنا أختكُ ، فبسط لها رداءه ، ثم قال ﷺ : « ها هنا » . فأجلسها عليه ، ودمعت عيناه .

وانسابت من لسانه ﷺ كلماتُ كأنها العسل يسيل من الشهد حلاوةً ورقةً تسلُبُ العقولَ ، وتأسِرُ النفوسَ . قال : « إن أحببتِ فأقيمي عندي محبةً مكرّمةً ، وإن أحببتِ أن أمتّعكِ وترجعي إلى قومكِ فعلتُ » .

هذا الموقف النبيل الكريم الذي وقفه رسول الله ﷺ من « الشيماء » يمثّل جانباً في منهج الرسالة الخالدة ، ذلك هو منهجُ في اللطف ، وحسنِ العشرة ،

(١) « الإصابة » (٧ : ٧٣٣) . و« محمد بن المعلّى » له ترجمة مختصرة في « معجم الأدباء » (١٩) :

وإخاء الوُدِّ.

ونالت الشيماء من حفاوة الإكرام ما لم يكن لها ولا لقومها من الحسابان.

حكمة الرسول ﷺ من زواجه بـ «جُوَيْرِيَّة» ﷺ

بَنَى - صلوات الله وسلامه عليه - بيته الثامن بَبْرَةَ^(١) بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد بني الْمُضْطَلِق. وكان أبوها وقومُه قد جمعوا الجموع لقتاله ﷺ في «المُرَيْسِيع»^(٢) ماء لَحْزَاعَة، فأحاط بهم المسلمون، وأخذوهم أسرى بعد قتل عشرة، منهم «مسافع بن صفوان» زوج بَرَّة. فجاءت إلى رسول الله ﷺ تشكو إِسَارَها، وترجو رحمة الله على يده، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - أكرمُ الأكرمين لعزیز قوم ذلِّ، فلم يكذب يسمع شكاتها حتى اصطفها لنفسه، ثم أعتقها وألحقها بأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وسَمَّاهَا جُوَيْرِيَّة.

□ برکتها على قومها :

وما أن تسامع الصحابةُ ﷺ بهذه المَكْرَمَة النبویة حتى حدث أمران جليلان :

- ١- أعتقوا ما بأيديهم من الأسرى، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ !
- ٢ - ثم أسلم بنو الْمُضْطَلِق وسيدُّهم من بعد أن أسلم العتقى جميعًا،

(١) كان اسمها بَبْرَة، فحوّل رسول الله ﷺ اسمها إلى جُوَيْرِيَّة، وكان ﷺ يكره أن يقال: خرج من عند بَبْرَة. كما في «صحيح مسلم» في (كتاب الآداب) (٢١٤٠).
 (٢) ماء من ناحية قُدَيْد إلى الساحل. «المغانم المطابة» (٣: ١٠٨٧).

وكانوا مئة أهل بيتٍ أو يزيدون ! حتى قالت أم المؤمنين « عائشة » ﷺ : فما أعلم امرأةً أعظمَ بركةً على قومها منها^(١).

والإسلام حدّد أسباب الرّق، وضيّق روافده، وألغى أكثرها، إلا سببًا واحدًا، وهو الاسترقاق في الحروب، ضرورة التماثل في التعامل الخارجي، وقد أحرزت سياسة تحرير الرقيق نجاحًا كبيرًا في الصف الإسلامي عبر القرون . . . وعادت على المسلمين برصيد وافر، وحصيلة ضخمة، من الأمم والشعوب والرجال الأفاضل.

إن مردّد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد، هو حبّ الصحابة للنبي ﷺ وتكريمهم إيّاه، وإكبارهم لشخصه العظيم، وكذلك يؤتي الحبّ النبويّ هذه الثمار الطيبة، ويضع هذه المآثر الفريدة في التاريخ^(٢).

وتعدّ غزوة المُريّسيّ من الغزواتِ الفريدةِ المباركة التي أسلمت عقبها قبيلةٌ بأسرها.

الرسول ﷺ يحفظ المعروف لـ « المطعم بن عدي »

روي عن « جبير بن مطعم » أن النبي ﷺ قال في أسارى بدرٍ : « لو كان المُطعمُ بنُ عديّ حيًّا ثم كَلّمني في هؤلاء التّنّي لَتَرَكْتُهم له »^(٣).

(١) انظر « الإصابة » (٧: ٥٦٥) و« إمتاع الأسماع » (١٩٨ - ١٩٩).

(٢) « صور وعبر » (١٩٨ - ١٩٩) بتصرف.

(٣) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٠٢٤) و« أحمد » في « مسنده »

قال ابن حجر^(١) : قوله « لتركتمهم له » أي : بغير فداء، لأن النبي ﷺ حين رجع من الطائف دخل في جوار « المطعم بن عدي ». كان المطعم أمر أربعة من أولاده فلبسوا السلاح، وقام كل واحد منهم عند ركن من أركان الكعبة . فبلغ ذلك قريشاً فقالوا له : أنت الرجل الذي لا تُخْفَرُ ذمتك .

وقيل : إنه كان من أشد من قام في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم ومن معهم من المسلمين حين حَصروهم في الشعب^(٢) .

وروى الطبراني عن « جبير بن مطعم » قال : « قال المطعم بن عدي لقريش : إنكم قد فعلتم بمحمد ما فعلتم، فكونوا أكف الناس عنه، وذلك بعد الهجرة . ثم مات المطعم بن عدي قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة . » وذكر الفاكهي : أن حسان بن ثابت رثاه لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ . اهـ .

هذا تعبير صادق من النبي ﷺ عن الوفاء، واعتراف جميل بالجميل لمواقف الرجال ولو كانوا مشركين . فأسلم عند ذلك « جبير » ﷺ .

جزاء مجرمي الحرب ورؤوس الفتنة القتل

قَتَلَ رسول الله ﷺ يوم بدرٍ ثلاثة صبراً :

١ - النَّضْر بن الحارث، من بني عبد الدار .

٢ - طعيمة بن عدي، من بني نوفل .

(١) في « فتح الباري » (٧ : ٣٢٤) .

(٢) انظر « حقائق الأنوار ومطالع الأسرار » (١٩١) .

٣ - عقبه بن أبي مُعَيْط^(١).

قال ابن كثير^(٢) : « أول من أسروا عقبه بن أبي مُعَيْط، والنضر بن الحارث، قُتِلَا صَبْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ الْأَسَارَى ».

قال ابن هشام: كان النَّضْرُ من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ، وَيَنْصِبُ له العداوة. وكان قد قدم الحيرة، وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وأسفنديار.

فكان إذا جلس رسولُ الله ﷺ مجلساً فذكّر فيه بالله، وحذّر قومَه ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمة الله خَلَفَه في مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً منه، فهلَمَّ إليّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورُستم وأسفنديار، ثم يقول : بماذا محمداً أحسنُ حديثاً مني ؟

وقال ابن هشام : وهو الذي قال فيما بلغني : سأُنزل مثل ما أنزل الله.

قال ابن إسحاق : وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول فيما بلغني : نزل فيه ثمان آيات من القرآن : قولُ الله ﷻ : ﴿ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالِ اسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴾ (المطففين : ١٣) وكلّ ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن^(٣) اهـ.

و « النضر » قتله « عليّ » صبراً عند رسول الله ﷺ بالصفراء^(٤).

(١) رواه « الطبراني » في الأوسط. « مجمع الزوائد » (٦ : ٨٩).

(٢) في « البداية والنهاية » (٥ : ٢٥٥).

(٣) « السيرة النبوية » لابن هشام (١ : ٣٢١).

(٤) « السيرة النبوية » لابن هشام (٢ : ٣٦٧). الصفراء : وادٍ قرب المدينة ، كثير النخل والعيون

« المغانم المطابة » (٢ : ٨٨٩).

فمن العدالة أن يَنْزِلَ أَشَدُّ الْعِقَابِ فِيمَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهُ سَيُنزِلُ أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ، وَكَانَ يَصُدُّ عَنِ الدَّعْوَةِ.

ولما سمع «عقبة بن أبي مُعَيْطٍ» بأمر قتله قال : يا ويلي عَلامٌ أَقْتُلُ يا معشر قريشٍ مِنْ بَيْنِ مَنْ هَاهُنَا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لعداوتك لله ورسوله ». وفي رواية :

« بكفرك وافتراءك على رسول الله ﷺ »^(١). قال : يا محمد مَنُكُ أَفْضَلُ، فَاجْعَلْنِي كَرَجُلٍ مِنْ قَوْمِي، إِنْ قَتَلْتَهُمْ قَتَلْتَنِي، وَإِنْ مَنَنْتَ عَلَيْهِمْ مَنَنْتَ عَلَيَّ، وَإِنْ أَخَذْتَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ كُنْتُ كَأَحَدِهِمْ، يَا مُحَمَّدُ مَنْ لِلصَّبِيَةِ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « النَّارُ، قَدَّمَهُ يَا عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ فَاضْرَبْ عُنُقَهُ » فَقَدَّمَهُ عَاصِمٌ فَضْرَبَ عُنُقَهُ.

قال ابن هشام : أَبِي بْنُ خَلْفٍ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، كَانَا مُتَصَافِيَيْنِ، حَسَنًا مَا بَيْنَهُمَا. فَكَانَ عُقْبَةُ قَدْ جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَمِعَ مِنْهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبِيًّا، فَآتَى عُقْبَةَ فَقَالَ لَهُ : أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّكَ جَالَسْتَ مُحَمَّدًا وَسَمِعْتَ مِنْهُ ! وَجَهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ أَنْ أَكَلِّمَكَ - وَاسْتَغْلَظَ مِنَ الْيَمِينِ - إِنْ أَنْتَ جَلَسْتَ إِلَيْهِ أَوْ سَمِعْتَ مِنْهُ، أَوْ لَمْ تَأْتِهِ فَتَتَّقُلْ فِي وَجْهِهِ. فَفَعَلَ ذَلِكَ عَدُوُّ اللَّهِ (عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ) لَعْنَهُ اللَّهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمَا : ﴿ وَيَوْمَ بَعْضُ الظَّالِمِ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ ﴿٧٧﴾ يَوْمَ لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ حَذُولًا ﴿٧٩﴾ (الفرقان : ٢٧ - ٢٩)^(٢).

(١) كما في « مجمع الزوائد » (٦ : ٨٩).

(٢) « السيرة النبوية » (١ : ٣٨٧).

كان هؤلاء الثلاثة من أكبر دعاة الحرب ضد الإسلام، والمتربّصين بالمسلمين الدوائر، وكانوا أكثر كفراً وعناداً وحسداً، وهجاء للإسلام وأهله. فبقاؤهم مصدرٌ خطرٍ على الدعوة، ولا سيّما في تلك الظروف الحاسمة التي تمرُّ بها الدعوة الإسلامية، فإطلاق سراحهم يكون فيه إفساح المجال لهم ليكيدوا للإسلام وأهله، فقتلُهم مما تقتضيه المصلحة العامة، ولذلك أمر الرسول ﷺ بقتلهم.

* * *

رحمة الرسول ﷺ وحزمه

كان « أبو عزة الجمحي » الشاعر يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويؤذي الله ورسوله.

وذلك أنه أسر في « غزوة بدر »، فيمن أسر من المشركين، فصرع إلى النبي ﷺ أن يعتقه دون فداء، وقال : يا محمد، إني فقير، وذو حاجة قد عرفتُها، فامننْ عليّ لفقري وبناتي، فرقَّ الرسول ﷺ له وأطلقه، بعد أن أخذ عليه الميثاق ألا يظاهر أحداً ؛ لأن الإسلام من طبيعته السماحة وحبُّ العفو، والرفقُ بالمستضعفين، كالبنات والصغار. فلما عاد إلى مكة أبى عليه لؤمُهُ وسوء طويته إلا أن ينقض ما كان عاهد عليه رسولُ الله ﷺ، وينال من المسلمين بشعره، وأن يطيع المشركين في الخروج إلى أُحد، واستنفار الأعداء لمحاربة النبي ﷺ وأصحابه.

ويشاء الله أن يقع أسيراً في « غزوة حمراء الأسد »^(١)، وهي التي استجاب المؤمنون فيها لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح، فعاد سيرته الأولى، يضرع ويشكو، ويقول للنبي ﷺ: امنن عليّ لفقري وبناتي، وأعاهدك على ألا أعود لمثل ما فعلت.

فأجابه سيد الحكماء ﷺ إجابته الخالدة: « لا أدعك تمسح عارضيك »^(٢) بمكة، وتقول: خدعت محمداً مرتين. لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين^(٣)، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت « فضرِبَ عنقه »^(٤).

كان - صلوات الله وسلامه عليه - في الأولى مَضْرِبَ المثل حليماً ورفقاً ورحمةً، كما كان في الثانية مَضْرِبَ المثل سياسةً وكياسةً وحكمة.

هذه نهاية الظلم والعدوان، وجزاء الغدر والخيانة.

إن للنفوس أبعاداً مقيدة، وحدوداً مشروعة، فإذا لم تُراعَ أدت إلى مضمون مضادّ، ومعنى سيئ في مجالات السياسة والإدارة، كالغباء والغفلة والخديعة.

(١) تقع على نحو ثمانية أميال من المدينة. وكانت هذه الغزوة في اليوم التالي لغزوة أحد « المعانم المطابة » (٢: ٧٦٤).

(٢) العارضان: صفحتا الخد، وقيل: مسحهما كناية عن الزُّهور والاستخفاف.

(٣) قال « النووي » في شرحه على صحيح مسلم (١٨: ١٢٥) عند قوله ﷺ: « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين »: وسبب الحديث معروف، وهو أنّ النبي ﷺ أسر أبا عزة الشاعر يوم بدر إلخ. كما ذكر ذلك « ابن حجر » في « فتح الباري » (١٠: ٥٣٠) وذكر قصة قتله ثم قال: وأخرج قصته ابن إسحاق في المغازي بغير إسناد.

(٤) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ١١٠) و« البداية والنهاية » (٥: ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٥٥) وانظر « من ذخائر السنة النبوية » (١: ٤٤٦).

من الحزم محاسبة المجرمين

أهدر النبي ﷺ يوم الفتح الأعظم بعد أن دخل مكة سِلْمًا دماءً أقوام كادوا للإسلام كيدًا شديدًا، وعبثوا بشرع الله، وأجرموا في حقّ الناس فكان من حسن التدبير النبوي إهدارُ دمائهم، ولو كانوا داخلَ الحَرَم، ولو تعلقوا بأستار الكعبة.

أمر ﷺ بقتل « عبد الله بن حَظَل » وكان متعلقًا بأستار الكعبة^(١) ؛ لأنه كان مسلمًا فبعثه ﷺ مُصَدِّقًا^(٢)، وبعث معه رجلًا من الأنصار، وكان معه مَوْلَى يخدمه، وكان مسلمًا، ونزل منزلاً فأمر المَوْلَى أن يذبح تيسًا ويصنع له طعامًا ونام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئًا، فعَدَى عليه فقتله، ثم ارتدَّ مشرِكًا، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ^(٣). فأمر بقتلهما معه، وكان ممن يؤدي رسول الله ﷺ^(٤).

عضو الرسول ﷺ عن عُمير. وإطلاق أسيره

عن ابن شهاب : لما رجع كلُّ المشركين إلى مكة فأقبل « عُمير بن وَهَب » حتى جلس إلى « صفوان بن أمية » في الحجر. فقال صفوان : قَبَّحَ اللهُ العيش بعد قتلى بدر.

قال : أجل، والله ما في العيش خيرٌ بعدهم، ولولا دَيْنٌ عليَّ لا أجد له

(١) كما في « صحيح البخاري » في (كتاب المغازي) (٤٢٨٦). انظر « إمتاع الأسماع » (٣٩٤).

(٢) أي: جانيًا للصدقات، وهي الزكاة.

(٣) « المواهب اللدنية » (١: ٥٧٧).

(٤) « سير أعلام النبلاء » (٢٧: ١٨٠).

قضاء، وعيال لا أدعُ لهم شيئاً، لرحلتُ إلى محمد فقتلته إن ملأت عيني منه، فإن لي عنده علة أعتل بها عليه، أقول : قدمتُ من أجل ابني هذا الأسير .

ففرح صفوان، وقال له : عَلَيَّ دَيْنُكَ، وعيالك أسوة عيالي في النفقة، لا يَسْغُنِي شيء فأعجز عنهم . فاتفقا، وحمله صفوان وجهَّزه، وأمر بسيف عمير فصُقل وسمِّ . وقال عمير لصفوان : اكنتم خَبْرِي أَيامًا .

وقَدِمَ عمير المدينة، فنزل بباب المسجد، وعقل راحلته، وأخذ السيف، وعمد إلى رسول الله ﷺ، فنظر إليه عمرُ وهو في نَفَرٍ من الأنصار، ففرع ودخل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، لا تأمنه على شيء .

فقال : « أدخله عَلَيَّ »، فخرج عمر وأمر أصحابه أن يدخلوا إلى رسول الله ﷺ ويحترسوا من عُمير .

وأقبل عمر وعُمير حتى دخلا على رسول الله ﷺ ومع عُمير سيفُهُ، فقال رسول الله ﷺ لعمر : تأخرُ عنه . فلما دنا عُمير قال : أنعموا صباحًا، وهي تحية أهل الجاهلية . فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرَمنا الله عن تحيتك، وجعل تحيتنا تحية أهل الجنة وهو السلام » . فقال عمير : أما و الله يا محمدُ إن كنتُ بها لحديثَ عهدٍ . فقال : « ما أقدمك يا عُمير ؟ » . قال : قدمتُ على أسيري عندكم، تفادونا في أسرانا، فإنكم العشيرة والأهل . فقال : « ما بال سيف في عنقك ؟ » .

فقال : قَبَّحها الله من سيوف ! وهل أغنت عَنَّا شيئًا ؟ إنما نسيته في عُنقي حين نزلت . فقال رسول الله ﷺ : « اصدقني ما أقدمك يا عُمير ؟ » قال : ما قدمت إلا في طلب أسيري . قال : « فماذا شرطتَ لصفوان في الحجر ؟ » ففرع

عُمير، وقال: ماذا شرطتُ له؟ قال: «تَحَمَّلْتُ له بقتلي على أن يعولَ أولادَكَ ويقضي دَيْنَكَ، واللَّهُ حائل بينك وبين ذلك».

فقال عُمير: أشهد أنك رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، كُنَّا يا رسول الله نكذِّبُك بالوحي وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر كما قلت، لم يطلع عليه أحدٌ، فأخبرَكَ اللهُ به، فالحمدُ لله الذي ساقني هذا المساق. ففرح به المسلمون، وقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «اجلس يا عُمير نُؤاسِكَ».

وقال لأصحابه: «عَلِّمُوا أخاكم القرآن» وأطلقَ له أسيره.

وفي رواية «ابن كثير»: فقال رسول الله ﷺ: «فَقَّهُوا أخاكم في دينه، وعَلِّمُوهُ القرآن، وأُظْلِقُوا أسيرَه» ففعلوا^(١).

فقال عُمير: ائذن لي يا رسول الله فألحق بقريش، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله أن يهديهم، فأذن له فلحق بمكة، وجعل صفوان يقول لقريش: أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر. وجعل يسأل كلَّ راكب قدم من المدينة: هل كان بها من حَدَث؟ حتى قدم عليهم رجل فقال لهم: قد أسلم عُمير، فلعنه المشركون، وقال صفوان: لله عليّ ألا أكلمه أبداً، ولا أنفعه بشيء.

ثم قدم عُمير، فدعاهم إلى الإسلام ونصحهم بجهدِه، فأسلم بسببِه بَشْرٌ كثيرٌ^(٢).

(١) «البدية والنهاية» (٥: ٢١١).

(٢) «الإصابة» (٤: ٧٢٦ - ٧٢٨).

معاملة الرسول ﷺ العادلة للرقيق

الاسترقاق نظام معروف قبل الإسلام والرسول ﷺ جفّف منابعه .
 جاء الرسول ﷺ والرقّ نظام معترف به في جميع أنحاء العالم .
 كانت معاملة الرقيق عند غير المسلمين معاملةً وحشية قاسية ، وكانت
 إنسانيته مهدورةً .

والقانون الروماني أعطى للسيد الحقّ المطلق في قتل الرقيق وتعذيبه
 وتسخير واستغلاله .

فجاء الإسلام فجفّف منابع الرق القديمة كلّها إلّا منبع استرقاق الأسرى
 في حرب شرعية إذا رأى إمام المسلمين مصلحةً في الاسترقاق .

والحرب الشرعية أن يكون القتال في سبيل الله . قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا
 يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (النساء : ٧٦) .

وهذه الحرب لا تقوم على شهوة الفتح ، ولا رغبة الاستغلال ، ولا قصد
 الشهرة والأمجاد ، ولا غاية الاستعباد والاستبداد ، وإنما تقوم من أجل هداية
 البشرية وإصلاحها ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق
 الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

وللإمام أن يعدلّ عن الاسترقاق إلى المنّ والفداء إذا اصططح العالمُ على
 منع الرقّ في الحروب .

الرسول ﷺ هو الصادق في تحرير الرقيق

□ الإسلام عامل الرقيق على الاعتبار الآتية :

١- اعتبار الرقيق إنساناً له حق الكرامة والحياة.

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: ١٣) وقرر الرسول ﷺ في خطبة « حجة الوداع » بمنى مبادئ حقوق الإنسان. فمما جاء فيها قوله ﷺ :

« يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمَر على أسود، ولا أسود على أحمَر إلا بالتقوى »^(١).

٢- معاملة الرقيق بالعدل في الحقوق والواجبات.

روي أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلَنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ، وَمَنْ خَصَىٰ عَبْدَهُ خَصَيْنَاهُ »^(٢).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١١ : ٥) في خطبة وَسَطَ أيام التشريق.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠ : ٥) وأبو داود في سننه (٤٥١٥) والترمذي في

جامعه (١٤١٤) وقال: حديث حسن غريب، وأبو ماجه في سننه (٢٦٦٣)

كلهم في (كتاب الديات) من دون « ومن خصى عبده خصيناه » وهي في المسند (٥):

(١٨) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

٣- اعتباره أخاً في المعاملة.

ثبت في « الصحيحين » عن المَعْرُورِ بْنِ سُؤَيْدٍ^(١) قال : مَرَرْنَا بِأَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ وَعَلَى غَلَامِهِ مِثْلُهُ، فَقَلْنَا : يَا أبا ذَرٍّ لَوْ جَمَعْتَ بَيْنَهُمَا كَانَتْ حُلَّةً، فَقَالَ : إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ إِخْوَانِي كَلَامٌ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَشَكَانِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَقِيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « يَا أبا ذَرٍّ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَأَطِعْمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ »^(٢).

٤- اعتبار الرقيق إنساناً في جواز نكاح الإماء المؤمنات فيمن لم يستطع نكاح المحصنات الحرائر.

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ (النساء: ٢٥).

وهذه المبادئ التي قررها الإسلام للأرقاء واضحة الدلالة على تقرير الإسلام للعدالة، وهذه المبادئ تؤكد على أن الإسلام دين الرحمة والعدل والإحسان.

وثبت في « الصحيحين » : أنه ﷺ قال : « لا يقولنَّ أحدُكم : عبدي،

(١) هو أبو أمية الكوفي، تابعي ثقة. قال الأعمش: رأيتُه وهو ابن (١٢٠) سنة. « تهذيب التهذيب » (١٠: ٢٣٠).

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الإيمان) (٣٠) و(كتاب العتق) (٢٥٤٥) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الإيمان) (١٦٦١).

وأمتي، ولكن ليقبل: غلامي وجاريتي وفتاتي وفتاتي»^(١).

وقرر القرآن الكريم أن يُعاملَ الرقيق كما يُعاملُ الوالدانِ وذوو القرباة فقال: ﴿وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَيَذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (النساء: ٣٦).

سمو معاملة الرقيق في تعاليم الرسول ﷺ

١- آخى الرسول ﷺ بين بعض الموالى وبعض الأحرار من سادة قريش.

فآخى بين «زيد بن حارثة» وعمه «حمزة بن عبد المطلب»^(٢).

٢- زوّج الرسول ﷺ بنت عمته «زينب بنت جحش» من مولاه «زيد بن حارثة».

٣- زوّج أبو حذيفة مولاه سالمًا ابنة أخيه «فاطمة بنت الوليد بن عتبة»^(٣).

والمرأة تقبل أن تتزوج من يفضّلها مقامًا، ولكنها تستكف أن يكون زوجها دونها في الحسب والنسب والمال، وتحسّ أن هذا يحطّ من شأنها، ولكن الرسول ﷺ كان يهدف إلى معنى أسمى من كلّ ذلك، وهو أن يجتث من المجتمع الجاهلي جذور العصبية الجاهلية.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في (كتاب العتق) (٢٥٥٢) و«مسلم» في صحيحه،

في (كتاب الألفاظ من الأدب) (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) «الإصابة» (٢: ٦٠١).

(٣) «الإصابة» (٣: ١٤).

وبهذا يستأصلُ الرسولُ ﷺ من أمته عنجهية الافتخار بالأنساب^(١).

٤- أرسل الرسول ﷺ « زيداً » على رأس جيش فيه الأنصار والمهاجرون من سادات قريش لقتال الروم في (غزوة مؤتة) وولّى ابنه « أسامة بن زيد » على جيش عظيم، وتوفي النبي ﷺ قبل أن يتوجّه، فأنفذه أبو بكر^(٢)، وكان تحت إمرته أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما.

٥- جاء في خطبة الوداع قوله ﷺ: « لو استُعْمِلَ عليكم عبدٌ يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا »^(٣).

وثبت في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان سالمٌ مؤلىً أبي حذيفة يؤمُّ المهاجرين الأولين وأصحاب النبي ﷺ في مسجد قُبَاء، قبل مقدّم رسول الله ﷺ، وكان أكثرهم قرأنا^(٤).

وقد قال عمر رضي الله عنه لما احتضر: « لو كان سالمٌ مولىً أبي حذيفة حيّاً لما جعلتها شورى » أي: لوليته^(٥).

وفي هذا إسناد المناصب إلى الأقوياء الأكفاء بغض النظر عن أحسابهم أو

(١) انظر « نظام الرق في الإسلام » (٣٨).

(٢) « الإصابة » (١: ٤٩).

(٣) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الحج) (١٢٩٨) و(كتاب الإمارة) (١٨٣٨) و« النسائي » في « سننه » في (كتاب البيعة) (٤١٩٧) من حديث « يحيى بن الحُصَيْن » عن جدّته « أم الحُصَيْن ».

وفي رواية لـ « مسلم »: « عبدٌ مُجَدِّعٌ أسود » وفي رواية النسائي « عبد حبشي ».

(٤) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الأذان - باب إمارة العبيد والمولى) (٦٩٢) و(كتاب الأحكام - باب اشتقضاء المولى واستيعمالهم) (٧١٧٥).

(٥) « البداية والنهاية » (٩: ٤٩٦).

أجناسهم أو أولوانهم.

ومما يؤكد هذا أن بعض المنافقين حينما طعنوا بإمرة « أسامة بن زيد » قال ﷺ : « إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل ، وإيم الله إن كان لخليقًا للإمرة ، وإن كان لمن أحب الناس إليّ ، وإن هذا من أحب الناس إليّ بعده »^(١).

في ظل هذه المناهج إشعارُ الرقيق أنه إنسان ذو كرامة وذو إنسانية، والإسلام قبل أن يحرّر الرقيق عمليًا حرّره من داخل نفسه ، وأعماق ضميره، لكي يحسّ بكيانه فيطلب الحرية بصدق وعزيمة .

الأسس التي وضعها الرسول ﷺ في تحرير الرقيق

دخل تحرير الرقيق في كثير من الأحكام الشرعية ، وهي على النحو الآتي :

١- العتق بالترغيب قال تعالى : ﴿ فَلَا أَفْئَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١١﴾ فَكَرِهَةٌ ﴿ (البلد: ١١-١٣) .

وقال النبي ﷺ : « أيما رجلٍ أعتق امرأ مسلمًا استنقذ الله بكلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ »^(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ) (٣٧٣٠)

و(كتاب المغازي) (٤٢٥٠) و(كتاب الأيمان والنذور) (٦٦٢٧) و«مسلم» في صحيحه

في (كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم) (٢٤٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب العتق) (٢٥١٧) و«مسلم» في صحيحه

في (كتاب العتق) (١٥٠٩) من حديث «أبي هريرة» رضي الله عنه.

وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق أموالاً طائلة في شراء العبيد من سادة قريش ليعتقهم ابتغاء مرضات الله، وَعَجَّلَكَ.

٢- العتق بالكفارات :

- جعل الإسلام من كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة، ودية مسلمة إلى أهله قال تعالى: ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ (النساء: ٩٢).

وجعل من كفارة القتل لقوم بيننا وبينهم ميثاق وعهد تحرير رقبة قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء: ٩٢).

- وجعل من كفارة الحنث باليمين المنعقد تحرير رقبة^(١).

قال تعالى: ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُمْ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ هَلِيكُمُ أَوْ كِسْفَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ (المائدة: ٨٩).

وجعل كفارة الظهار^(٢) إذا تلفظ به المسلم ثم رجع عنه تحرير رقبة قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآتَا ﴾ (المجادلة: ٣).

- وجعل كفارة الإفطار العمد في رمضان تحرير رقبة.

لحديث الأعرابي كما جاء في الكتب الستة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى

(١) « شرح فتح القدير » (٤ : ١٨).

(٢) الظهار: هو أن يقول الزوج لزوجته: « أنت علي كظهر أمي » فنحرم عليه بهذا اللفظ كحرمة أمه

عليه. « شرح فتح القدير » (٣ : ٢٢٦).

رجل النبي ﷺ قال : هلكتُ . قال : ما شأنك ؟ قال : وقعتُ على امرأتي في رمضان . قال : فهل تجد رقبة تعتقها ؟ الحديث^(١) .

٣- العتق بالمكاتب :

هي منح الحرية للرقيق مقابل مبلغ من المال مقسّطًا ، فإذا آذاه فهو حرّ^(٢) .
قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيعُونَ الْكَاتِبَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ ﴾ (النور: ٣٣) .

٤- العتق بكفالة الدولة :

والإسلام وضع للدولة مَصْرِفًا خاصًا لتحرير الأرقاء من أموال الزكاة قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠) .

٥- العتق بأم الولد :

حينما تكون الأمة مملوكة لمسلم ، فيجوز له أن يعاشرها معاشرة الزوجات ، فإذا وَلَدَتْ له ولدًا ، واعترف بالولد أنه ابنه أصبحت شرعًا « أم ولد » وفي هذه الحالة يَحْرُمُ على السيد أن يبيعها^(٣) .

وإذا مات ولم يعتقها في حياته ، فإنها تصبح حرّة بعد مماته مباشرة^(٤) .

(١) انظر « شرح فتح القدير » (٢: ٧١) .

(٢) انظر « شرح فتح القدير » (٧: ٢٢٦) .

(٣) « شرح فتح القدير » (٧: ٢٥٠) .

(٤) « شرح فتح القدير » (٧: ٢٥٤) .

وبهذه الأحكام تستشعر المرأة بكيانها، وتحسّ بوجودها، وترفل عزيزة
مكرمة في ظلّ مبادئ الإسلام.

٦- العتق بالضرب الظالم :

كان الرسول ﷺ ينكر على أصحابه إذا رأى واحداً منهم يعنف عبده أو
يضره، ويهين كرامته.

قال ابن عمر رضي الله عنهما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ
ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتَقَهُ »^(١).

قال أبو مسعود البدري^(٢) : كُنْتُ أَضْرِبُ غَلامًا لِي بِالسَّوْطِ ، فَسَمِعْتُ
صَوْتًا مِنْ خَلْفِي : « اِعْلَمْ أبا مَسْعُودٍ ! » فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ ، فَلَمَّا دَنَا
مِنِّي ، إِذَا هُوَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقولُ : « اِعْلَمْ أبا مَسْعُودٍ ! اِعْلَمْ أبا
مَسْعُودٍ ! » .

قال : فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدَي ، فَقَالَ : « اِعْلَمْ أبا مَسْعُودٍ ! أَنْ اللَّهَ أَقْدَرُ
عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغَلامِ » فَقُلْتُ : لا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا^(٣) .

وفي رواية بعده : فسقط من يدي السَّوْطُ ، من هيئته .

وجاء في آخر الحديث : فَقُلْتُ : يا سول الله هو حرٌّ لوجه الله ، فقال :

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الأيمان) (١٦٥٧).
(٢) أبو مسعود، عُقبَةُ بن عمرو البدري، مشهورٌ بكنيته، شهد العقبة، واختلفوا في شهوده بدرًا. وقال
الأكثر: إنَّما نزل ماءٌ بيدر فَنَسِبَ إليه. مات بعد سنة (٤٠هـ). « الإصابة » (٤: ٥٢٤).
(٣) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الأيمان) (١٦٥٩) و« البخاري » في (الأدب
المفرد) (١٧١).

« أما لو لم تفعلْ لَلْفَحْتِكَ النَّارُ » أو « لَمَسْتِكَ النَّارُ ».

□ أضواء على الحدث :

الرحمة عند الرسول ﷺ سمة وخلق جُبِلَ عليه، وشعور لا يفارقه، ومَعْلَمٌ من معالم شخصيته الفريدة ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وهو يأمر الناس بالرحمة، ويدعوهم إليها، ويشدد الإنكار على الذين لا يرحمون، ويخوفهم بالله بكلام تهتز له المشاعر، وتتشعر منه الأبدان « اعلم أبا مسعود ! أن الله أقدّرُ عليك منك على هذا الغلام ». لقد ارتدع أبو مسعود من وقع هذا الكلام وصرامته وحزمه على مسامعه فقال : لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا.

وإذا أباح الإسلام تأديب العبد إذا أساء فإن لهذا التأديب حدودًا فلا يجوز للسيد أن يتعدّها ويتجاوزها، فإذا لطمه على خدّه أو ضربه في موضع أذى من جسمه كان التعدي مبررًا شرعيًا لتحريره من الرّق.

وهذا التدرج في القضاء على الرّق إظهار لعظمة الإسلام في حلّ القضايا، ومعالجة الأمور بحكمة بالغة، وبيان لخصائص هذا الدين في شموليته وعالميته على مدى الزمان^(١).

(١) انظر « نظام الرق في الإسلام » هل في العالم اليوم رق؟ (٨٣ - ٨٩).

هذه نبذة يسيرة عرضناها من تعاليم الرسول ﷺ في معاملة الرقيق، وهي صفحة مشرقة في تاريخ البشرية، ومفخرة عظيمة في سجل الإنسانية.

فالرسول ﷺ سبق إلى تحرير الرقيق قبل أن تنادي الثورة الفرنسية بتحرير الرق في أوروبا، وقبل أن يصدر « أبراهام لينكولن » قرارًا بتحرير الرق في أمريكا، وقبل أن تعلن « هيئة الأمم » مبادئ حقوق الإنسان في العالم.

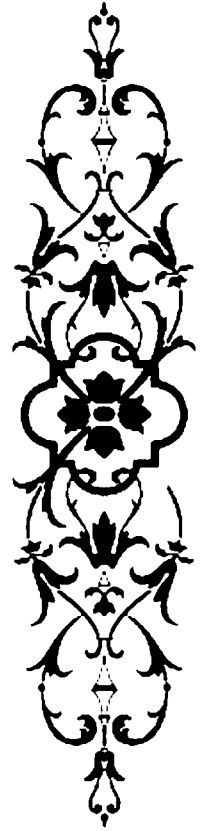
وكل ذلك تحوّل إلى دعاوى وأسماء وشعارات، فالرق عندهم لم يبلغ، ولكنه اتخذ منحى جديدًا، ولونًا آخر، وسلوكًا سلوغيًا آخر في استرقاق المرأة، واستعباد العباد تحت أنظمة مستعمرة متسلطة باغية. وما أحسن ما وازن بعضهم!

قتل امرئ في غابة جريمة لا تفتفز
وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر^(١)

(١) انظر « نظام الرق في الإسلام » (٨٨ - ٩٦).

المبحث السادس

الجوار



الجوار في الإسلام

روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ ، وَإِنْ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا » ^(١) .

□ فمن مزايا الإسلام ما يأتي :

١ - تقدير الإسلام للإنسانية :

إنما عدّ الإسلام الجوار عقدًا محتومًا يُوجبُ احترامه، وعهدًا مسؤولاً يُحتمُّ الوفاء به . هذا إلى ما يضيفه الإسلام على المُجير - وإن قلَّ شأنه - من معاني الإعزاز والتكريم لأتباعه مما لا يوجد له نظيرٌ في قانونٍ دوليٍّ على وجه المعمورة .

وأى عِزَّةٍ وَعِظْمَةٍ وَمَنَعَةٍ يشعر بها الجنديُّ العاديُّ من جنود الإسلام وهو يوقن أنه ذو حقٍّ أن يجيرَ من استجار به، ويحمي من التجأ إليه، ويرى أن قانون الإسلام الحربيُّ تكفَّل له بهذا الحقِّ أحسنَ كفالة، وضمَّنه له أحسنَ ضمان . لا جرم أنه حينئذ يستعمل هذا الحق في خيرٍ وجوهه، وأدناها إلى المصلحة العامة ؛ ليكون دائمًا موضعَ ثقةِ المسلمين به، وكفى بهذا تقديرًا للإنسانية في منهاج الإسلام، الذي جاء ناشرًا للسلام، و متممًا لمكارم الأخلاق .

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجزية) (٣١٦٦).

٢ - عناية الإسلام بجوار أهل الذمة :

عُني الإسلام بجوار أهل الذمة، والإحسان إليهم عنايةً لم تعرفها دولةٌ أخرى على وَجْه البسيطة ولو كانت تدين بدينهم. وكان اليهود - وهم أشدُّ الناس عداوةً للذين آمنوا - يعيشون في جوار الرسول ﷺ والمسلمين، في رَغَدٍ من العيش آمنين مطمئنين، حتى نقضوا عهدهم ونكثوا أيمانهم، وخانوا الله ورسوله في كلِّ مرة، ثم أخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

٣ - عناية الإسلام البالغة في أهل الذمة :

وأما الذميون فهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهم في حقيقة الأمر معاهدون من طراز آخر، لهم ذمة الله وذمة رسوله، وعهد الله وعهد رسوله، في جوار الإسلام ورعايته، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، نحميمهم وندافع عنهم، ونقاتل مَنْ يعتدي على دينهم أو أنفسهم وأموالهم، ولا نكلفهم من الجزية - التي أمر الله بها أن تؤخذ منهم - ما لا طاقة لهم به، فمن ضيع حقًّا من حقوقهم هذه، أو أعان على ضياعه، فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله، وانتهك حرمة الإسلام والمسلمين ! ومن قتل واحدًا منهم كان جديرًا بسخط الله ورسوله، خليفًا بأن يتوعده الصادق المصدوق ﷺ بما يتوعد به التارك لدينه، فلا يدخل الجنة ولا يُشْمُ ريحها، وإنَّ ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عامًا. ومن المقرر في قواعد الشريعة : أن مرتكب المعصية المجمع على تحريمها مرتد عن دينه إن استحلها، وإلا فهو آثم متخلف عن ركب الطائعين إلى رضوان الله - تعالى - إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا^(١).

(١) انظر « من ذخائر السنة النبوية » (٢ : ٥٨٧ - ٥٩٣).

٤ - معاملة الإسلام للمعاهدين والمستأمنين :

وأما المعاهدون فهم الذين أبرمت بينهم وبين المسلمين معاهدة وميثاق على السلم، ومنهم المستأمنون الذين دخلوا في جوار الإسلام بتأمين واحد من أهله. وسبيل الإسلام مع هؤلاء أن يوفي لهم بعهدهم كاملاً غير منقوص وأن يستقيم لهم ما استقاموا للمسلمين.

وإذا أخذ محارب أماناً لينظر في الدين ولم ينشر صدره للإسلام، فما لنا إلا أن نرده إلى داره آمناً، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَجُرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْنِئْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (التوبة: ٦).

ولو ظفر المسلمون بمحاربٍ جاء مقبلاً من بلد العدو فقال: جئت لأطلب الأمان لم يجز التعرض له بمكروه، وإذا لم يروا المصلحة في تأمينه رذوه إلى مأمنه^(١).

ومن عجيب أمر الإسلام في الوفاء بالمعاهدات أنه لا يبيح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين الذين حرموا التمتع بسلطاننا، على المعاهدين من الكفار، وقد كان الرجل يفر بدينه مسلماً، لائثاً بالمسلمين في عهد الحديبية، فيرده النبي ﷺ إلى قومه الكافرين ويقول له: «إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم»^(٢) وكانوا عاهدوا النبي ﷺ فيما عاهدوه في صلح الحديبية أن يرد إليهم من جاء منهم مسلماً، على حين لا يردون من جاء من المسلمين كافراً.

(١) انظر «رسائل الإصلاح» (١: ١١٩).

(٢) أخرجه «أحمد» في «مسنده» (٤: ٣٢٥) من حديث طويل.

الجوار في الحرب

لقد بلغ من عناية الإسلام بالجوار وحبه له، أن أجاز لكل مسلم أن يجيرَ في الحرب ويؤمن، رجلاً كان أو امرأة، عبداً كان أو حراً، وجعل ذمامهم وأمانهم كشيء واحد، فلو صدر أمان من أحدهم - كائناً من كان - لعدو، كان تأمينه نافذاً، واعتصم بهذا التأمين من أن يناله أحدٌ بسوء حتى يبلغ مأمنه فليس للإمام ولا للقائد ولا لغيرهما من أولي الأمر أن ينقضه.

وذلك قوله ﷺ: « ذمّة المسلمين واحدةٌ يسئى بها أديانهم، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ! »^(١).

« وليس من شرط التأمين البلوغ ولا الإسلام، فلو آمن صبي يعلم ما يقول أو أحدٌ من أهل الذمة بعض المحاربين، كان هذا التأمين عقداً محترماً.

لقد بلغ الدين في رعاية عهد الأمان أقصى غاية، فلو أشار المسلم إلى الحربي إشارة يريد بها عدم التأمين، ففهمها الحربي على التأمين، وجب له الأمان على حسب ما فهم من تلك الإشارة.

ومن رعاية الإسلام لعهد التأمين أن أكد في احترام أموال المعاهدين، حتى إذا رجع المعاهد إلى بلده وترك في دار الإسلام وديعةً أو ديناً وجب إرسالها إليه، فإن مات بُعثَ بها إلى ورثته إن عُرفوا، فإن لم يُعرفوا أرسل بها إلى رئيس قومه»^(٢).

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الفرائض) (٦٧٥٥) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) « رسائل الإصلاح » (١: ١١٩).

إجارة رُسل المحاربين

وكذلك يُجِيرُ النبي ﷺ رُسلَ العدوِّ المُحَارِبِ، فلا يعرض لهم بسوء ولا أذى، ولو جاؤوا مُنذِرِينَ بالحرب، مُستهزئين بالإسلام.

روي عن « عبد الله بن مسعود » رضي الله عنه قال جاء ابن النُّوَاحَةِ وابنُ أُنَالِ، رسولاً مسيلمَةً إلى النبي ﷺ فقال لهما: « أَتَشْهَدَانِ أَنِي رَسُولُ اللَّهِ؟ » قالا: نَشْهَدُ أَنَّ مَسِيلِمَةَ رَسُولُ اللَّهِ. فقال ﷺ: « آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَوْ كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَقَتَلْتُكُمْ » قال عبد الله: فمضت السُّنَّةُ عَلَى أَنَّ الرَّسَلَ لَا تُقْتَلُ^(١).

وروي عن أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنِي قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَقَعَ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ. قَالَ: « إِنِّي لَا أُخَيِّسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أُخَيِّسُ الْبُرْدَ^(٢)، لَكِنْ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الْآنَ، فَارْجِعْ ». فَارْجَعَ أَبُو رَافِعٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ^(٣). وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ قَبْطِيًّا.

وفي إجارة النبي ﷺ لرسل المحاربين وحمائهم دعوة إلى الهداية، ونشر لرسالته ﷺ في سياسة رشيدة، وخطة حميدة، وقد تردّد بين النبي ﷺ وقريش جماعة من الرسل واحداً بعد واحد، فأروا من مكارم أخلاقه ومعاملته لأصحابه ما لم يروه عند كسرى ولا قيصر، فأخبروا قومهم بذلك.

(١) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (١: ٣٩٦) وأخرج قريظاً منه « الحاكم » في « المستدرک » في

(كتاب قسم الفيء) (٢: ١٤٢) من حديث « نعيم بن مسعود الأشجعي » رضي الله عنه.

(٢) لا أخيس العهد: لا أنقضه، من خاس إذا غدر. البرد: جمع بريد، بمعنى الرسول.

(٣) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (٦: ٨) و « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجهاد)

وكان لهذا وأمثاله أعظم الآثار في نشر الدعوة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً^(١).

إجارة « العباس » لأبي سفيان

روي أن عمر رضي الله عنه لما رأى أبا سفيان رديف « العباس » دخل على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، هذا أبو سفيان، دعني أضرب عنقه، فقال العباس، يا رسول الله : إني أجرته، فقال ﷺ : اذهب يا عباس به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأنتني به، فذهب فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عني شيئاً.

ثم قال : « ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟ » قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه ففي النفس منها شيء. فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضربَ عنقك. فأسلم وشهد شهادة الحق.

فقال العباس : يا رسول الله إنَّ أبا سفيان رجلٌ يُحب الفخرَ فاجعل له شيئاً، قال : نعم، وأمر ﷺ فنادى مناديه : « من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، فتنفَّرَ الناس إلى دورهم وإلى المسجد »^(٢).

(١) انظر « من ذخائر السنة النبوية » (٢ : ٥٨٩).

(٢) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الخراج - باب ما جاء في خبر مكة) (٣٠٢١ -

٣٠٢٢) من حديث العباس، وانظر « المواهب اللدنية » (١ : ٥٧٢).

إجارة النساء

□ أجرتنا من أجرتِ يا أمَّ هانئِ :

عن أمِّ هانئٍ رضي الله عنها قالت : ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عام الفتح ، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تسترُه ، فسلمتُ عليه ، فقال : « مَنْ هذه ؟ » فقلتُ : أنا أمُّ هانئِ بنتُ أبي طالب ؛ فقال : « مرحباً بأمِّ هانئِ » . فلَمَّا فرَغَ من غُسلِهِ قام فصلى ثمانِي رَكَعَاتٍ مُلتَحِفاً في ثوبٍ واحدٍ ، فقلتُ : يا رسولَ الله ، زعم ابنُ أُمِّي عليُّ أنه قاتلُ رجلٍ قد أجرتَه ، فلانُ ابنُ هُبَيْرَةَ . فقال رسولُ الله ﷺ : « قد أجرتنا من أجرتِ يا أمَّ هانئِ » . قالت أمُّ هانئِ : وذلك ضُحى ^(١) .

قيل : اسمها فاخنة ، شقيقة علي بن أبي طالب رضي الله عنه راوية هذا الحديث ، يجير النبي ﷺ من أجارتِ ، ويؤمن من آمنَت .

كانت فاخنة من ذوات الرأي الجزل ، والأدب الجم في عقائل قريش .

فلَمَّا أسلمت عام الفتح فرَّق الإسلام بينها وبين زوجها « هُبَيْرَةَ بن أبي وَهَبِ المخزومي » الذي هربَ عند فتح مكة إلى نجران مُشركاً ^(٢) ، فلم يزل بها حتى مات .

وكان النبي ﷺ قد أهدر دم خمسة عشر رجلاً وامرأة ، أمعنوا في الكيد

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجزية والموادعة) (٣١٧١) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب صلاة المسافرين) (٧١٩) .

(٢) « الإصابة » (٨ : ٣١٨) .

للإسلام والإفساد في الأرض لكن تداركتهم - إلا قليلاً منهم - مع فضاة جرمهم، نعمة جوارِ النبي ﷺ، وشفاعة الصَّحْبِ الكرام عند مَنْ أرسله الله رحمة للعالمين .

فَرَّ من هؤلاء - وَعِدَّتْهم أحدَ عشرَ - جُعدة بن هُبيرة، ورجلٌ آخر من أحماء أمّ هانئ^(١)، فَرَّ إليها واختبأ في بيتها، فتوَعَّدَها عليٌّ، وأقسم ليقتلنَّهما، إنفاذاً لإيعاد النبي ﷺ إليها، وجزاءً لما اجترَّحاه من الحنث العظيم^(٢).

لكنَّ أخته أجارَتْهُما وَمَنَعَتْهُما منه، ثم ذهبت تشكوه إلى النبي ﷺ.

إجارة زينب بنت رسول الله ﷺ لأبي العاص

أقام أبو العاص بمكة، وأقامت زَيْنَب عند رسولِ الله ﷺ بالمدينة، حين فرَّق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام، وكان رجلاً مأموناً، بمالٍ له وأموالٍ لرجال من قريش، أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً، لقيته سرية^(٣) لرسولِ الله ﷺ فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما قَدِمَتِ السَّرية بما أصابوا من ماله، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دَخَلَ على زَيْنَب بنت رسولِ الله ﷺ فاستجار بها، فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج رسولُ الله ﷺ إلى الصُّبح فكَبَّرَ وكَبَّرَ

(١) أي: من أقارب زوجها.

(٢) قال الزرقاني في حاشيته على « المواهب » (٢: ٣٢٦): والرجلان هما الحارث بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي، شقيق أبي جهل، من مُسلمة الفتح، استشهد في خلافة عمر. وزهير بن أبي أمية المخزومي أخو أم سلمة أم المؤمنين، أسلم وحسن إسلامه. انظر « المواهب اللدنية » (١: ٥٨٠).

(٣) هي سرية زيد بن حارثة إلى العيص. « إمتاع الأسماع » (٢٦٥).

الناس معه . صرخت زينب من صُفَّة^(١) النساء : أيها الناسُ ، إني قد أجزتُ أبا العاص بن الرِّيع . فلما سلّم رسولُ الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس ، فقال : « أيها الناس ، هل سمِعتم ما سمعتُ ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أما والذي نفسُ محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم ، إنه يُجير على المُسلمين أذنهم » ثم انصرف رسولُ الله ﷺ ، فدخل على ابنته ، فقال : « أي بُنية ، أكرمي مثواه ، ولا يَخُلُصَنَّ إليك ، فإنك لا تحلين له » .

ويروى قال رسول الله ﷺ : « ما علمتُ بشيء من هذا ، وقد أجزنا من أجزتِ »^(٢) .

□ المسلمون يردّون عليه ماله :

قال ابن إسحاق : إنّ رسولَ ﷺ بعث إلى السريّة الذين أصابوا مال أبي العاص ، فقال لهم : « إن هذا الرجل منا حيثُ قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تُحسِنوا وتردّوا عليه الذي له ، فإننا نحبُّ ذلك ، وإن أبيتم فهو فيّ الله الذي أفاء عليكم ، فأنتم أحقّ به » . فقالوا : يا رسول الله ، بل نردّه عليه فردّوه عليه ، حتى إن الرجل ليأتي بالدّلّو ، ويأتي الرجل بالثنّة^(٣) وبالإداوة^(٤) ، حتى إن أحدهم ليأتي بالشظاظ^(٥) ، حتى ردّوا عليه ماله بأسره ، لا يفقد منه شيئاً . ثم احتمل إلى مكة ، فأدى إلى كل ذي مال من قريش ماله ، ومن كان أبضع معه ، ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا :

(١) الصفة: السقيفة.

(٢) انظر « المواهب اللدنية » (١ : ٤٧٧ - ٤٧٨).

(٣) الثنّة: السقاء البالي.

(٤) الإداوة: إناء صغير من جلد.

(٥) الشظاظ: خشبة عفاء تدخل في غروتي الجوّالقي، والجمع: أشظة.

لا . فجزاك الله خيراً! فقد وجدناك وفيّاً كريماً .

١- إسلام أبي العاص :

قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعتني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أذاها الله إليكم ، وفرغت منها أسلمت . ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ .

٢- الرسول ﷺ يكرم أبا العاص بردّ زينب إليه :

عن ابن عباس قال : ردّ عليه رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول لم يُحدث شيئاً^(١) بعد ستّ سنين .

٣- مثل أعلى من أمانة أبي العاص :

قال ابن هشام : وحدثني أبو عبيدة : أنّ أبا العاص بن الربيع لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين ، قيل له : هل لك أن تُسلم وتأخذ هذه الأموال ، فإنها أموال المشركين؟ فقال أبو العاص : بش ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي^(٢) .

(١) قال السهيلي : « يعارض هذا الحديث ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ: ردّها عليه بنكاح جديد. وهذا الحديث هو الذي عليه العمل، وإن كان حديث داود بن الحصين أصحّ إسناداً عند أهل الحديث. ولكن لم يقل به أحد من الفقهاء فيما علمت، لأن الإسلام قد كان فرق بينهما. قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا﴾ (المتحنة: ١١)، ومن جمع بين الحديثين قال في حديث ابن عباس: معنى ردها عليه على النكاح الأول، أي: على مثل النكاح الأول في الصداق والحباء، لم يحدث على ذلك من شرط ولا غير . « الروض الأنف » (٣: ٦٩).

(٢) « السيرة النبوية » لابن هشام (٢: ٣١٢ - ٣١٤).

□ طريقة إسلام « أبي العاص » صورة مثالية :

إن إسلام « أبي العاص بن الربيع » مشهّد رائع من مشاهد السيرة النبوية .

□ ثمرات إجارة زينب لزوجها أبي العاص :

إن سبب إسلامه يعود إلى أمرين مجتمعين :

الأمر الأول : أخلاقُ الرسول ﷺ ومواقفه العظيمة حينما خَلَّى سبيله من الأسر مجاناً . وأخلاق « زينب » عندما أرادت فكّاه من الأسر بقلادتها .

وعندما أجارته حينما استولى المسلمون في سرية على أمواله التي هي لرجال قريش .

وحين أنفذ رسول الله ﷺ إجارة ابنته بقوله : « إنه يجيرُ على المسلمين أدناهم » . وهذه قاعدة عظيمة وضعها رسول الله ﷺ في تأمين المحارب ، فلا يجوز الاعتداء عليه ، ولا التعرض له بمكروه .

وقد تجلّى أدبُ الرسول ﷺ الجَمِّ مع أصحابه حينما خيّرهم برّد المال أو إمساكه بعبارته الرقيقة : « قد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحبُّ ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحقُّ به » .

عذوبةُ كلمات رسول الله ﷺ تكادُ نفسُ سامعها تذوب ، فالأسماعُ والقلوب والعقولُ من بعض أسرارها تقول : إمّا متناً بعدُ وإمّا فداً .

وهنا تهتّزُ مروءة أصحابه ﷺ طرباً لأريحية نغمات كلماته ، فينزلون عندما يحبُّ ﷺ تاركين الدنيا تحت أقدامهم ، فقد ردّوا على « أبي العاص » ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً .

الأمر الثاني : شخصية « أبي العاص » العالية النزاهة، الذي أثنى عليه ﷺ

بقوله :

« حَدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي ، وَوَعَدَنِي فَوَفَّى » كما في الصحيحين . فقد أبى إلا أن يرد المال مأموناً ورشيدياً ، وبعدها نطق لسانه بكلمتي التوحيد أمام الملائم من قريش ، ثم يمم وجهه تلقاء طيبة الطيبة قادماً على الرسول ﷺ مسلماً ، فردّ عليه زوجته الطاهرة « زينب » وهو الذي يصدق الدهر بكلماته : « بش ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي » .

هذه أخلاق الدعاة الشرفاء الذين تتعطر بذكرهم المجالس ، وتشدوا بأنغام سيرتهم العوالم .

إجارة « سلمى بنت قيس » لـ « رفاعة بن سيموال »

روي أن سلمى بنت قيس ، أم المُنذر ، أخت سليط بن قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ ، قد صلّت معه القبلتين ، وبايعته بيعة النساء - سألت « رفاعة بن سيموال القرظي » ، وكان رجلاً قد بلغ ، فلاذّ بها ، وكان يعرفهم قبل ذلك ، فقالت : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، هب لي رفاعة ، فإنه قد زعم أنه سيصلي . قال : فوهب لها ، فاستحيت^(١) .

أكرم النبي ﷺ المرأة ، واعتمد شفاعتها ، وشجّعها على فعل الخير .

وكان « رفاعة » من يهود بني قريظة ، وقد أسلم^(٢) .

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ٢٥٥) .

(٢) انظر « الإصابة » (٢ : ٤٩١) .

الرسول ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه

روي عن « مصعب بن سعد » : لما كان يومُ الفتح أمَّن رسول الله ﷺ الناسَ إلا أربعة نفرٍ فذكرهم . ثم قال : وأما « ابن أبي سرح » فاختبأ عند عثمان بن عفان ؓ فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ .

فقال : يا نبيَّ الله بايع عبدَ الله ، فرفع رأسه ، فنظر إليه ثلاثاً ، كلُّ ذلك يابئ عليه ، فبايعه بعد ثلاثٍ ، ثم أقبل على أصحابه فقال : « أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رأني كففتُ يدي عن بيعته ، فيقتله ؟ » . فقالوا : يا رسول الله ما ندري ما في نفسك ، ألا أومأتُ إلينا بعينك ؟

قال : « إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكون له خائنةُ الأعين »^(١) .



قال « ابن القيم » - فيما يستفاد من هذا الحديث - :

« جواز قتل المرتد الذي تغلظت رِدَّتُه من غير استتابة . فإن « عبد الله بن سعد بن أبي سرح » كان قد أسلم وهاجر ، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، ثم ارتدَّ ، ولحق بمكة ، فلما كان يومُ الفتح أتى به عثمان بن عفان

(١) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجهاد) (٢٦٨٣) من حديث « مصعب بن سعد » عن « سعيد » و« ابن سعد » في « الطبقات الكبرى » (٢ : ١٠٢) . و« الإصابة » (٤ : ١٠٩) . انظر « المواهب اللدنية » (١ : ٥٧٧) .

رسولَ الله ﷺ لبياعه، فأمسك عنه طويلاً، ثم بايعه، وقال: إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. فقال له رجل: هلاً أو مات إلي يا رسول الله؟ فقال: « ما ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين »^(١).

فهذا كان قد تغلظ كفره برده بعد إيمانه، وهجرته، وكتابة الوحي، ثم ارتدَّ ولحقَ بالمشركين يطعن على الإسلام ويعيبه، وكان رسول الله ﷺ يريد قتله، فلما جاء به عثمان بن عفان، وكان أخاه من الرضاعة، لم يأمر النبي ﷺ بقتله حياءً من عثمان، ولم يُبايعه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتله.

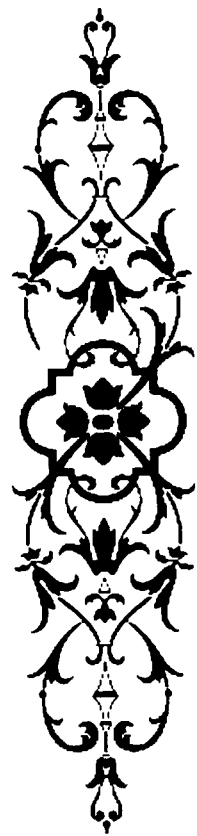
فهابوا رسولَ الله ﷺ أن يُقدِّموا على قتله بغير إذنه، واستحى رسولُ الله ﷺ من عثمان، وساعدَ القدرُ السابقُ لما يريد الله - سبحانه - بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح فبايعه.

وكان ممن استثنى الله بقوله: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٦) أُولَئِكَ جَرَّأُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ (آل عمران: ٨٦ - ٨٩).

وقوله ﷺ: « ما ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين »، أي: أن النبي ﷺ لا يُخالِفُ ظاهره باطنه، ولا سِرُّه علانيته، وإذا نفذ حكمُ الله وأمره لم يُؤم به، بل صرَّح به، وأعلنه، وأظهره.

(١) « زاد المعاد » (٣: ٤٦٤ - ٤٦٥).

المبحث السابع
المعاهدات



صلح الخديبية

□ سبب الصلح :

بعد حروب بين المسلمين و كفار قريش في بدر وأحُدِ والخندقِ، وبعد أن زاد مسلمو المدينة على ألف وخمس مئة مسلم، رأى رسولُ الله ﷺ في منامه أنه والمسلمين يدخلون المسجد الحرام ويطوفون بالكعبة، ويسعونَ بين الصفا والمروة. ورؤيته ﷺ حقٌّ وصدقٌ. أصبح فأخبر أصحابه، وفرحوا، وبخاصة المهاجرون الذين يحتون إلى وطنهم العزيز، ونادى ﷺ أنه سيخرج إلى العُمرة، فمَن شاء وعنده هديٌّ إلى الكعبة فليُعدّه.

وفي مطلع ذي القعدة سنة ست من الهجرة ساقَ النبي ﷺ والمسلمون هديهم، وساروا نحو مكة، وهم قرييون من ألف وأربع مئة مسلم، ليس معهم سلاحُ المحارب، بل سلاحُ المسافر فحسب، فقد خرجوا يقصدون البيت الحرام ؛ لأداء النسك، وقلدوا هديهم وأشعروه، قلدوا الإبلَ والبقرَ والغنمَ بحبل مفتول من صوف مصبوغ، وعلموا صفحة عنق الإبل والبقر بكية نار، علامة على أنه هديٌّ، موهوب لأهل الحرم، له حرمة لا يُعتدى عليه، ولا يُستغل في منافع الحرث والسقي، وبعضهم كساه بالحِبرَة^(١) أو الحرير أو القباطي أو اللُحف.

ساروا متجهين إلى مكة، بعد أن أحرموا للعمرة من ذي الحليفة، يهللون

(١) الحِبرَة: وشي معلومٌ أُضيف الثوبُ إليه. « المصباح المنير » (حبر).

ويكبرون ويلبثون، وقد أرسل رسول الله ﷺ عينا يسبق المسلمين، يستطلع لهم سلامة الطريق.

١ - الرسول ﷺ يغير الطريق وينزل بالحدبية :

وجاء النذير يخبر أن قريشاً أرسلت كتيبة قوامها مئتا فارس بقيادة « خالد بن الوليد » ليضدوا المسلمين قبل وصولهم، وقد جمعوا له الجموع من القبائل المحيطة بمكة، ليمنعوه من دخولها، فغير طريقه عن طريق « خالد بن الوليد »، ووصل إلى الحدبية عند ما يُعرف بالتنعيم. ونزل المسلمون عند مائها.

٢ - الرسول ﷺ أرسل « عثمان » إلى قريش للتفاهم :

وأرسل الرسول ﷺ « عثمان بن عفان » يُخبر قريشاً أنهم ما جاؤوا محاربين، وإنما جاؤوا معتمرين. فهمَّ سفهاؤهم أن يقتلوا عثمان فأجاره ابن عمه « أبان بن سعيد بن العاص بن أمية »^(١)، وأصرَّت قريش على منعهم من الوصول إلى المسجد الحرام، واحتجزوا عثمان ﷺ وتراسلوا مع رسول الله ﷺ يفاوضونه، وفي هذه الأثناء أُشيع أن قريشاً قتلت عثمان، فقال النبي ﷺ: « لا خيرَ في الحياة بعدَ عثمانَ، أما والله لئن قتلوه لأنا جزئهم ».

٣ - بيعة الرضوان :

فكانت « بيعة الرضوان » تحت الشجرة، بايع المسلمون رسول الله ﷺ على القتال وعدم الفرار، حتى النصر أو الاستشهاد، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح : ١٨) ثم تحقَّق كذب قلوبهم.

(١) أسلم أيام خيبر، وشهدها مع النبي ﷺ. توفي النبي ﷺ وه « أبان » على البحرين، ثم قدم على أبي بكر، وسار إلى الشام فقتل يوم أجتادين سنة (١٣ هـ). « الإصابة » (١ : ١٧).

الخبر، فضربَ ﷺ بإحدى يديه على الأخرى، وقال: « هذه لعثمان »^(١).
وبعد تعدد الوساطات انتهت المفاوضات إلى صلح الحديبية^(٢).

ثم صالحهم عشرَ سنينَ على ألا يدخلَ (مكة) إلا من العام القابل، وأن من أتاه مسلماً ردهُ إليهم، ثم نحرَ وحلَقَ، ورجعَ إلى (المدينة)، وأنزلَ الله في مُنصرَفه سورةَ الفتح.

وفي « صحيح البخاري »^(٣) عن المسورِ بن مخرمةَ ومروانِ بنِ الحكمِ - يُصدِّقُ كلُّ واحدٍ منهما حديثَ الآخرِ - قالَا : خرج رسولُ اللهِ ﷺ زمنَ (الحُدَيْبِيَّةِ)، حتى إذا كان بالثَنِيَّةِ التي يُهْبِطُ عليهم منها، بركتُ به راحِلَتُهُ، فزجروها، فألحَّتْ، فقالوا: خَلَّاتِ القُضْوَاءُ - أي : حَرَنْتْ - فقال : « ما خَلَّاتِ القُضْوَاءُ، وما ذاك لها بِخُلُقِي، ولكنَّ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ »، ثم قال : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطَّةً - أي : طريقاً - يُعْظُمُونَ فيها حُرْمَاتِ اللهِ إلا أعطيتُهُم إياها »، ثم زجرها فوثبت، فعدلَ عنهم حتى نزل بأقصى (الحُدَيْبِيَّةِ)، على ماءٍ قليلٍ يَبْرِضُهُ^(٤) الناسُ، فَشكوا إليه العطشَ، فَأَنْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، وأمرهم أن يجعلوه فيه، فجاشَ لهم بالماءِ الغزير حتى صَدَرُوا عنه^(٥).

٤ - سفارة « بُدَيْلِ بنِ ورقاء » بين الرسول ﷺ وقريش :

فبينما هم كذلك، إذ جاء « بُدَيْلُ بنُ وَرَقَاءِ الخُزَاعِي »، فقال : إني تركتُ

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٠٦٦).

(٢) انظر « فتح المنعم » (٧: ٢٦٧).

(٣) في (كتاب الشروط) (٢٧٣١) (٢٧٣٢).

(٤) يَبْرِضُهُ: يأخذونه قليلاً قليلاً.

(٥) صَدَرُوا عنه: رجعوا عنه.

قُرَيْشًا وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ أَصْرَتْ بِهِمُ الْحَرْبُ، فَإِنْ شَاؤُوا مَا دَذَنْتُهُمْ - أَي: صَالِحْتُهُمْ مُدَّةً - عَلَى أَنْ يُخْلُوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرُوا، فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا - أَي: اسْتَرَاخُوا - مِنَ الْحَرْبِ مُدَّةً، وَإِنْ أَبَوْا، فَوَاللَّهِ لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى تَنْفِرَ سَالِفَتِي - أَي: صَفْحَةُ عُنُقِي - وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ». قَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ.

٥- سفارة «عروة بن مسعود»:

فَقَامَ «عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ» وَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، إِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا، وَدَعُونِي آتِيهَ، قَالُوا: آتِيهِ، فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَرْمُقُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ نَحْوًا مِمَّا قَالَه لِبُدَيْلٍ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ: أَيُّ قَوْمٍ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمَلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكَسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، فَمَا رَأَيْتُ مَلِكًا يُعْظِمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعْظِمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ مَا تَنْخَمُ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَذَلِكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدُهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ أَمْرًا ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأُوا كَادُوا يَقْتِيلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمُوا خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحَدِّثُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ ^(١) تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا.

٦- مفاوضة «سهيل بن عمرو» لرسول الله ﷺ:

فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ «سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو»، فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ سَهَّلَ الْأَمْرَ»، فَجَاءَ سُهَيْلٌ فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا.

(١) الإحداذ: شدة النظر. أي: لا يتأملونه ولا يديمون النظر إليه.

فدعا النبي ﷺ الكاتب، وهو علي بن أبي طالب، (رضي الله عنه) (١).

□ كيفية الصلح :

أرسل المشركون في « صلح الحديبية » « سهيل بن عمرو » إلى النبي ﷺ ليكتب بينهم وبين المسلمين كتاباً بالصلح. فجاء سهيل بن عمرو وقال : هَاتِ اكتبْ بيننا وبينكم كتاباً .

٧- شروط المعاهدة :

فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم . قال سهيلٌ : أمّا الرحمنُ فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كُنْتَ تَكْتُبُ .

فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ : « اكتبْ باسمك اللهم » . ثم قال : « هذا ما قضى عليه محمدٌ رسولُ الله » . فقال سهيلٌ : والله لو كُنَّا نعلمُ أنّك رسولُ الله ما صددناك عن البيتِ ولا قَاتَلْنَاكَ ولكن اكتبْ : محمدٌ بن عبد الله .

فقال النبي ﷺ : « والله إنني لرسولُ الله وإن كَذَّبْتُمُونِي . اكتبْ : محمدٌ بن عبد الله » .

قال الزُّهْرِيُّ : وذلك لقوله : « لا يسألوني حُطَّةً يُعْظَمُونَ فيها حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا » . فقال له النبي ﷺ : « على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البيتِ فنطوفَ به » .

(١) انظر « حدائق الأنوار ومطالع الأسرار » (٣٢٤).

فقال سهيلٌ : والله لا تتحدّثُ العربُ أنّا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المُقبل . فكتب . فقال سهيلٌ : وعلى أنه لا يأتيك منا رجلٌ، وإن كان على دينك، إلّا رددته إلينا . قال المسلمون : سبحانَ الله كيف يُردُّ إلى المشركينَ وقد جاء مسلماً !

٨- موقف أبي جندل، الوفاء بالعهد :

فبينما هم كذلك إذ دخل « أبو جندل بن سهيل بن عمرو » يرُسُفُ في قيوده، وقد خرجَ من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهرِ المسلمين . فقال سهيلٌ : هذا يا محمدُ أوّلُ مَنْ أفاضيك عليه أن تُردّه إليّ . فقال النبي ﷺ : « إنّنا لم نقض الكتاب بعدُ » .

قال : فو الله إذن لم أصالحك على شيء أبداً .

قال النبي ﷺ : « فأجزه لي » . قال : ما أنا بمُجيزٍ ذلك . قال : « بلى ، فافعل » . قال : ما أنا بفاعل .

قال مكرزٌ : بل قد أجزناهُ لك . قال أبو جندل : أي معشرَ المسلمين، أُرِدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيتُ؟ . وكان قد عُذّبَ عذاباً شديداً في الله .

٩- احترام المعارضة النزيهة :

فقال عمر بن الخطّابِ فاتيتُ نبيَّ الله ﷺ قلت : أَلَسْتَ نبيَّ الله حقاً؟ قال : بلى . قلت : أَلَسْنَا على الحقِّ وعدُّونا على الباطل؟ قال : بلى . قلت : فَلِمَ نُعْطِي الدنيَّةَ في ديننا إذن؟

قال : « إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه وهو ناصرِي » .

[ورواية مسلم: فقال: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يُضَيِّعني الله

أبداً»]

[ورواية أحمد: فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن

يُضَيِّعني]

قلت: أو ليس كنتَ تحدِّثنا أننا سنأتي البيتَ فنطوفُ به؟ قال: «بلى،

فأخبرتكُ أنا نأتيه العام؟» قال: قلت: لا. قال: «فإنك آتية ومُطَوِّفٌ به.»

قال: فأتيتُ أبا بكرٍ فقلت: يا أبا بكرٍ، أليس هذا نبيُّ الله حقاً؟ قال:

بلى. قلت: ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلمَ

نُعطي الدنيَّةَ في ديننا إذن؟

قال: أيها الرَّجُلُ، إنه لرسولُ اللهِ ﷺ وليس يعصي ربه وهو ناصرُهُ،

فاستمسكْ بعِزِّهِ^(١)، فوالله إنه على الحقِّ.

قلتُ: أليس كان يُحدِّثنا أننا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: بلى،

فأخبركُ أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتية ومُطَوِّفٌ به.

قال الزُّهريُّ: قال عمرُ: فعمِلْتُ لذلك أعمالاً^(٢).

١٠- التحلل من العمرة. ومشورة أم سلمة، رضي الله عنها:

فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: «قوموا

(١) أي: بركابه، والغرزُ بمنزلة الركاب للفرس.

(٢) أي: من البرِّ يُكفِّرُ عن جزأني بالكلام على رسول الله ﷺ. وفي «مسند الإمام أحمد» (٤):

(٣٢٥) «قال عمر: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي

تكلمت به يومئذٍ حتى رجوت أن يكون خيراً.»

فانحروا، ثم احلقوا».

قال : فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مراتٍ .

فَلَمَّا لم يَقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمةَ ، فذكر لها ما لَقِيَ من الناسِ .
فَقالت أمُّ سلمةَ : يا نبيَّ اللهِ ، أَتُحِبُّ ذلك ؟ اِخْرُجْ ثم لا تُكَلِّمُ أحدًا منهم
كَلِمَةً ، حتى تَنْحَرَ بُدْنَكَ ، وتَدعو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ .

فَخَرَجَ فلم يُكَلِّمُ أحدًا منهم ، حتى فعل ذلك ، نَحَرَ بُدْنَهُ ، ودعا حَالِقَهُ
فحلقه . فَلَمَّا رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلقُ بعضًا حتى كاد
بعضهم يقتلُ بعضًا غَمًّا^(١) .

قال « محمد عبد الله دراز » : فلا تسل عما كان لهذا الصلح من الواقع
السيئ في نفوس المسلمين ، حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد
يقتل بعضهم بعضاً ذهولاً وغماً . . .

أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وَضَعَ هذه الخطة
بنفسه ، أو اشترك في وضعها ، أو وقف على أسرارها أن يبين لكبار الصحابة
حكمة هذه التصرفات التي فوق العقول ؟ . . . ولكن انظر كيف كان جوابه
حين راجعه عمر : « إني رسولُ الله . ولست أعصيه ، وهو ناصري » .

يقول : إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الشروط - باب الشروط والمصالحة مع أهل
الحرب، وكتابة الشروط) (٢٧٣١، ٢٧٣٢) و(كتاب المغازي - باب غزوة الحديبية)
(٤١٨٠ - ٤١٨١) و « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد والسير - باب صلح
الحديبية) (١٧٨٣) و(١٧٨٤) و(١٧٨٥).

واثقا بنصره قريبا أو بعيدا .

وهكذا ساروا راجعين وهم لا يدرون تأويل هذا الإشكال حتى نزلت سورة الفتح فبينت لهم الحِكم الباهرة، والبشارات الصادقة، فإذا الذي ظنوه ضيماً وإجحافاً في بادئ الرأي كان هو النصر المبين، والفتح الأكبر، وأين تدبير البشر من تدبير القدير؟! :

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُ. وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمَ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ. وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٧﴾﴾ (الفتح: ٢٤-٢٧) (١).

□ ما جرى عليه أمر قوم من المستضعفين بعد الصلح :

قال ابن هشام : قال ابن إسحاق : لما قدم رسول ﷺ المدينة أتاه « أبو بصير عتبة بن أسيد » وكان ممن حُبس بمكة، فلما قَدِمَ على رسول الله ﷺ كتب فيه « أُرْزِهَ بن عوف » (٢) و « الأخنس بن شريق » إلى رسول الله ﷺ، وبعثا رجلاً من بني عامر بن لؤي، ومعه مولى لهم، فقلدما على رسول الله ﷺ بكتاب

(١) « النبا العظيم » (٣٢-٣٣) بتصرف.

(٢) هو القرشي الزهري، عم عبد الرحمن بن عوف. « الإصابة » (١: ٤٦).

الأزهر والأخنس. فقال رسول الله ﷺ: « يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك ».

قال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: « يا أبا بصير، انطلق، فإن الله - تعالى - سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا ».

فانطلق معهما، حتى إذا كان بذي الحليفة^(١)، جلس إلى جدار، وجلس معه صاحبه، فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، قال: أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت.

فاستلّه أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله وخرج المولى سريعًا حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله ﷺ طالعًا، قال: إن هذا الرجل قد رأى فرجًا، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ، قال: « ويحك! مالك؟ » قال: قتل صاحبكم صاحبي. فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحًا بالسيف، حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، وفّت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعتُ بديني أن أفتن فيه، أو يُعبث بي. فقال رسول الله ﷺ: « ويلُ أمّه محشّ حرب^(٢) لو كان معه رجال ». ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص، من ناحية ذي

(١) ذوالحليفة: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، منها ميقات أهل المدينة «المغانم المطابة» (٢: ٧٦٣).

(٢) ويلُ أمّه: أصلها دعاءٌ عليه، واستعملها هنا للتعجب من إقدامه في الحرب، والإيقاد لنارها، وسرعة النهوض لها. محش حرب: موقد حرب ومهيجها، يقال: حششت النار، وأرنتها، وأذكبتها وأثقتها، وسعرتها، بمعنى واحد. وفي الصحيح: « ويلُ أمّه يشعز حرب » مسعر: بالنصب على التمييز، وفي رواية ابن إسحاق محش حرب، وهي بمعنى مشعر، وهو العود الذي يحرك به النار.

المَرْوَةَ، على ساحل البحر، بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قولَ رسول الله ﷺ لأبي بصير: « ويلُ أمهٍ مِحْشٌ حَرَبٌ لو كان معه رجالٌ » فخرجوا إلى أبي بصير بالعيص، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً، وكانوا قد ضَيَّقُوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تَمَرُّ بهم عيرٌ إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها إلا آواهم، فلا حاجة لهم بهم. فأواهم رسول الله ﷺ، فقدموا عليه المدينة «^(١)».

* * *

كان هذا الصلح ناجحاً، ونجاحه مرتبط بمكنون الغيب المطوي في علم الله وحده. ولذلك انتزع دهشة المسلمين واستغرابهم.

قال « ابن القيم » - وهو يتحدث عن حكم هذه الهدنة - : هي أكبر وأجلّ من أن يُحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها، فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده^(٢).

روى ابن هشام عن الزهري : « فما فُتِحَ في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمنَ الناسُ بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكَلِّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنين مثلُ مَنْ كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى

(١) انظر « السيرة النبوية » (٣: ٣٣٧ - ٣٣٨) و « حقائق الأنوار ومطالع الأسرار » (٣٢٧).

(٢) « زاد المعاد » (٣: ٣٠٩).

الحُدَيْبِيَّةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ، فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتِّينَ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ»^(١).

□ شروط المعاهدة وبنودها:

- ١- وَضِعُ الْحَرْبِ عَنِ النَّاسِ عَشْرَ سَنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ وَيَكْفُ بِعَضْمِهِمْ عَنْ بَعْضٍ.
- ٢- مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيَّهِ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ.
- ٣- مَنْ أَتَى قُرَيْشًا مَقَمًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرُدُّهُ عَلَيْهِ.
- ٤- أَنْ بَيْنَنَا - أَيِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَشْرِكِينَ - عِيَّةٌ مَكْفُوفَةٌ - أَيِ: صَدْرًا نَقِيًّا مِنْ الْغُلِّ وَالْخُدَاعِ وَالْغِشِّ مَطْوِيًّا عَلَى الْوَفَاءِ وَالْأَمَانَةِ.
- ٥- أَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ - أَيِ: لَا سَلَّ لِلسُّيُوفِ لِلْقِتَالِ، وَلَا خِيَانَةَ وَسُوءَ تَدْبِيرٍ بِالْمَكْرِ وَالْكِيدِ.
- ٦- مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ.
- وَدَخَلَتْ خُزَاعَةٌ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَنُو بَكْرِ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ^(٢).
- ٧- أَنْ يَرْجِعَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ قُرَيْشٍ عَامَهُ هَذَا فَلَا يَدْخُلُ مَكَّةَ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَإِذَا كَانَ عَامٌ قَابِلٌ خَرَجَتْ قُرَيْشٌ عَنْ مَكَّةَ وَأَخْلَتْهَا فَدَخَلَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا سِلَاحُ الرَّكَّابِ، وَالسُّيُوفِ فِي قِرَابِهَا^(٣).

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣: ٣٣٦ - ٣٣٧).

(٢) انظر حديث «المسور بن مخزومة، ومروان بن الحكم» في «مسند الإمام أحمد» (٤: ٣٢٤، ٣٢٥) ففيه هذه الشروط.

(٣) انظر «زاد المعاد» (٣: ٣٩٩) و«محمد رسول الله ﷺ» (٤: ٢٧٣).

٨- لا تردُّ النساء إلى المشركين في عهد الحديبية :

هاجرت إلى المدينة بعد الحديبية « أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط » فتبعها أخواها، وسألا رسولَ الله ﷺ أن يردها إليهما فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة ومنعهنَّ أن يُرَدَّنَّ إلى المشركين، وأنزل الله آية الامتحان: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا ءَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَالَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ وَسَأَلُوا مَا ءَنفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مَا ءَنفَقُوا ۗ ﴾ (الممتحنة : ١٠).

قال « ابن جرير »: سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهنَّ : بالله ما خرجت من بُغض زوج؟ وبالله ما خرجت رغبةً عن أرضٍ إلى أرض؟ وبالله ما خرجت التماس دنيا؟ وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله؟^(١).

□ لقد كانت شروط صلح الحديبية درساً قاسياً على الصحابة :

لكن من أجلّ وأنبل جوانب منهج الرسالة الخالدة « معاهدة الحديبية » التي عقدها رسول الله ﷺ بينه وبين أعدائه المشركين، مع ما كان في ظاهر هذه المعاهدة من شروط تُعطي عدوَّ المسلمين كلَّ شيء يتصور في مصلحتهم، وتحمل ثقل هذه المعاهدة على كاهل المسلمين وحدهم، حتى مرج أمرهم، وزُلزلت أقدام أكابرهم. ولم يثبت لشدة هذه الشروط ويتقبلها كما رضيها نبي الله ﷺ إلا أرسخُ المؤمنين قَدَمًا في ساحة الإيمان، أبو بكر

(١) « جامع البيان » (٢٢ : ٥٧٥) و« تفسير القرآن العظيم » (٨ : ٩٢) و« زاد المعاد » (٣ : ٣٠٠).

الصديق، رضي الله عنه وأرضاه^(١).

قال « القرافي » : قال بعض العلماء : إنما التزم رسول الله ﷺ في صلح الحُدَيْبِيَّةِ إدخالَ الضيم على المسلمين دفعاً لمفاسد عظيمة، وهي قتلُ المؤمنين والمؤمناتِ الحائِلين بمكة، فاقترضت المصلحةُ أن ينعقد الصلح على أن يُردَّ إلى الكفار مَنْ جاء منهم إليه ؛ لأنه أهونُ من قتل المؤمنين، مع أن الله - تعالى - عَلِمَ أن في تأخير القتال مصلحةً عظيمة، وهي إسلام جماعةٍ منهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ وكذلك قال: ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٥) أي لو تميَّز الكافرون من المؤمنين^(٢).

قال « ابن القيم » : ولهذا قال الله - تعالى - في هذه القصة بعينها بعد أن قال: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ - أي: بصدِّهم عن البيتِ وإنكارِهِم لاسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - إلى قوله تعالى: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ - أي: من عاقبة الأمر - ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح: ٢٧) - أي: صَلْحُ الحُدَيْبِيَّةِ - .

فسمَّاهُ فَتْحًا كما في « الصَّحِيحِينَ »، عن البراء بن عازب: تعدَّون أنتمُ الفتحَ فتحَ (مكة)، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ (الحُدَيْبِيَّةِ).

قال العلماء: فهي المراد بالفتح في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ (الفتح: ١)، لأنها نزلت عند انصرافهم منها، ثم قال فيها: ﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح: ٢٧).

(١) انظر « محمد رسول الله ﷺ » (٤: ٢٥٣).

(٢) « الذخيرة » (١٣: ٣٥٥).

والمراد به فتح (خَيْبَرَ)؛ لأنَّهُم افتتحوها بعدَ انصرافِهِم مِن (الحُدَيْبِيَّةِ)، ثمَّ وعدهم فتح (مكة) بقوله: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (النصر: ١).

قال العلماء: ولم يكن فتح قبل الفتحِ أعظمَ من صلح (الحُدَيْبِيَّةِ)، وذلك أنَّ المشركين اختلطوا بالمسلمين في تلك الهدنة، وسَمِعُوا منهم أخلاقَ النبي ﷺ، ومحاسنَ شريعته، فأسلمَ منهم في تلك المدة جماعةٌ من رؤسائِهِم، كعمرو بن العاصِ، وخالد بن الوليد، في خلقٍ كثيرٍ، فظهرَ حُسْنُ اختيارِ الله لهم في ذلك الصلحِ الذي كرهوه، مع ما سبقَ في علمه بأنَّ (مكة) إنما يحلُّ القتالُ بها لنيبه محمدٍ ﷺ ساعةً من نهارٍ، وهي يوم فتحها: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١) (البقرة: ٢١٦).

* * *

السلم

الرغبة في السلم والمهادنة لا تعني أبدًا المساومة على المبادئ: إنها مهادنة القوي للقوي، لإتاحة فرصة التروّي، والتفكير والتدبير.

إنها مهادنة إنسانية، تبغي الإصلاح، وترجو الخير، وتري - حتى للعدو - الحياة والسعادة، ولا تحيك له خيوط التآمر، والأخذ العنيف على حين غرة.

إنها هدنة، وليست استسلامًا. وحسبك أن في طياتها الكثير من معاني الصبر والثبات: « لأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفِرَ سَالِقَتِي »^(٢).

(١) « زاد المعاد » (٣: ٣٩٩).

(٢) طرف من حديث أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الشروط) (٢٧٣١).

الحكم والأسرار في صلح الحديبية

١- الهدنة كانت مُقدِّمةً بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به رسوله وجنَّده، ودخل الناسُ به في دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهدنة بابًا له، ومفتاحًا، ومؤذنًا بين يديه.

٢- كانت الهدنة من أعظم الفُتوح، فإنَّ المصلحة المترتبة على إتمام هذا الصلح ما ظَهَرَ من ثمراته الباهرة، وفوائده المتظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة، وإسلام أهلها كلَّهم، ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي، ولا يَخْلُونَ بمنَّ يُعلمهم بها مفصلةً.

فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين، وجاؤوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة، وخالوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وعانوا بأنفسهم كثيرًا من ذلك، فمالت نفوسهم إلى الإيمان، حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام، قبل فتح مكة، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلًا إلى الإسلام. فلما كان يومُ الفتح أسلموا كلُّهم، لما كان قد تمهد لهم من الميل.

وكانت العربُ من غير قريش في البوادي ينتظرون إسلام قريش ليسلموا،

فلما أسلمت قريشُ أسلمت العرب في البوادي.

قال الله تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۗ ﴾ (١) (النصر: ١-٢).

٣- أن للإمام أن يعقد الصلح على ما رآه مصلحة للمسلمين، وإن كان لا يظهر ذلك لبعض الناس في بادئ الرأي.

٤- جواز صلح الكفار على ردِّ مَنْ جاء منهم إلى المسلمين، وألا يُردَّ مَنْ ذهب من المسلمين إليهم، هذا في غير النساء.

٥- أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيمٌ على المسلمين جائز للمصلحة الراجحة؛ لأنه يُقدَّم احتمالُ المفسدة اليسيرة لدفعِ أعظم منها، أو لتحصيلِ مصلحةٍ أعظم منها، إذا لم يمكن ذلك إلا بذلك.

٦- التزم الصحابةُ بالصلح، وعدم ردِّه، ومدى ما كانوا عليه من تنفيذ أوامره ﷺ وإن خفيت عليهم حكمة القرار.

٧- من الشروط: ردُّ مَنْ جاء من قريشٍ إلى الإمام، وهذا الشرط لا يتناول من خرج منهم مسلماً إلى غير بلد الإمام، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام، لا يجبُ عليه ردُّه بدون الطلب، فإن النبي ﷺ لم يرُدَّ أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه على الرجوع، ولكن لما جاؤوا في طلبه مكَّتهم من أخذه ولم يكرهه على الرجوع.

٨- أن المعاهدين إذا تسلَّموه وتمكَّنوا منه فقتلَ أحداً منهم لم يضمنه

(١) « المواهب اللدنية » (١: ٥٠٣).

الإمام بديّة ولا قوَد، بل يكون حكمه في ذلك حُكْمَ قتله لهم في ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم، فإن أبا بصير قتلَ أحدَ الرجلين المعاهدَينِ بذي الحُلَيْفَةِ، وهي من حُكْمِ المدينة، ولكن كان قد تسلّموه، وفُصِّلَ عن يد الإمام وحكمه.

٩- إبرامُ الصلح مع المشركين اعترافٌ بقوة المسلمين، وأنهم لا يقدرّون على مقاومتهم^(١).

١٠- أن المعاهدَينِ إذا عاهدوا الإمام، فخرجت منهم طائفة فحاربتهم، وغنمَت أموالهم، ولم يتَحَيَّزوا إلى الإمام، لم يجب على الإمام دفعهم عنهم، وإن كانوا على دين الإمام. والعهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين لم يكن عهدًا بين أبي بصير وأصحابه وبينهم.

الوفاء بالعهد

الوفاء بالعهد يورث القوة، ويمنح البرّ، ويوافي أفضلَ النتائج، وأعظم البركات :

ضاق المسلمون ذرعًا بالشروط التي أملاها كفار قريش في صلح الحديبية، ولم يكن لهم شيء من الأمر حيالَ تصرف النبوة، وكان من أهمّ ما أغاظهم اشتراطُ قريش أن يرُدَّ المسلمون من خرجَ من مكة إلى المدينة مسلمًا، وألا يرُدَّ المشركون من خرجَ من المدينة عائداً إلى مكة.

ولقد أمرَ النبي ﷺ صحابته بالوفاء بهذا الشرط لأهل الشرك، وقال :

(١) انظر « زاد المعاد » (٣: ٣٠٨ - ٣٠٩) و « فتح المنعم » ٧: ٢٧٩ - ٢٨١).

« وَقُوا لَهُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ - تَعَالَى - عَلَيْهِمْ » .

إن هذا هو موضع الابتلاء، وسرُّ التسليم للقيادة المؤمنة المتصلة بالغيب، المعتمدة على الوحي . إن هذا هو المحكُّ لِمَبْلَغِ صدق المسلمين في وفائهم بالعهد، ولو كان مُرَّ المذاق، ثقيل الوطأة، عسير التقبُّل .

الوفاء بالعهد أمر الله به في غير موضع من كتابه، ونهى عن نقضه :
 ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ (النحل : ٩١)
 وأمر رسوله - عليه الصلاة والسلام - به في أحاديث كثيرة، منها : « حسن العهد من الإيمان »^(١) .

لقد وَفَى المسلمون بعهدهم، وطَبَّقُوهُ في الأيام التي تلت عقد الصلح، تطبيقاً عجيباً، يلفت النظر، ويستثير السمع، ويستوقف تاريخ العهود والمواثيق^(٢) .

تحريم الغدر

من الخلق العظيم في حروب الرسول ﷺ الجِرْصُ على الوفاء بالعهود، وعدم نقض الهدنة، وتحريم الغدر، وذمُّ هذا الفعل السيئ الذي يتنافى مع مبادئ الإسلام وأخلاقه العظيمة .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ (المائدة : ١) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء : ٣٤) .

(١) أخرجه « الحاكم » في « المستدرک » (١ : ١٥) من حديث « عائشة » رضي الله عنها .

(٢) انظر « صور وعبر » (٢٩٣) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامةِ، يقال: هذه غدرُهُ فلان»^(١).

وروي عن رسول الله ﷺ قال: «ألا مَنْ ظلمَ معاهدًا أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ فأنا حجيجه يومَ القيامةِ»^(٢).

ويشهد التاريخُ للمسلمين مبلغَ احترامهم للمعاهدات والمهادنات التي عقدوها وأبرموها مع غيرهم، فقد كانوا يحرصون حرصاً شديداً على نصّها وروحها، ولم يحاولوا البتة أن ينقضوا أيّاً منها إلا إذا رأى أيُّ الطرفين تغييرها أو تعديلها.

ونجد في التاريخ العسكري الإسلامي احترامَ المسلمين لما أعطاه السابقون منهم لغيرهم من عهود، وهذا سيدنا محمد ﷺ قد كتب لنصارى نجران عهداً يُطمئنُهُم فيه على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وحاشيتهم^(٣).

نقض قريش عهد الحديبية

ولما غدرت قريشٌ بعهد الحديبية ونقضته بالغدر والخيانة، وقاتلت خزاعة وقتلت منهم لثعينة تحت جنح الظلام حلفاءها البكرين على حلفاء رسول الله ﷺ الخزاعيين، فزعت خزاعة إلى رسول ﷺ تطلب منه نصرته لها ووفاءه بعهده^(٤).

(١) أخرجه «مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد) (١٧٣٥).

(٢) أخرجه «أبو داود» في «سننه» في (كتاب الخراج) (٣٠٥٢).

(٣) انظر «البداية والنهاية» (٧: ٢٦٢ - ٢٧٢) في الكلام على (وفد أهل نجران).

(٤) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٤: ٣٢) و«محمد رسول الله ﷺ» (٤: ٢٩١).

وانتهت المعركة بين خزاعة وبنو بكر ومن ساندتهم وأمدّهم بالسلاح وشاركهم من قريش في قتال خزاعة، فخرج « عمرو بن سالم الخزاعي » في أربعين رجلاً من خزاعة فقدموا على رسول الله ﷺ في المدينة يطلبون منه الوفاء بعهدة معهم الذي دخلت فيه خزاعة معه في شروط الهدنة وعقدتها ليستنصروه على قريش وحلفائها بني بكر، فوجدوه ﷺ في مسجده الشريف، فأخبروه بقصة غدر قريش وبنو بكر، وتتبعهم لهم في الحرم حتى أدخلوهم دار « بُدَيْل بن ورقاء » بعد مقتلة منهم، فقام ﷺ يجرد رداءه وهو يقول : « لا نُصْرْتُ إن لم أنصركم مما أنصرتُ منه نفسي »^(١).

صبر الرسول ﷺ على غدر قريش

□ غدرت قريش برسول رسول الله ﷺ فنجاه الله منهم :

فقد رُوي أن رسول الله ﷺ دعا « خِراش بن أمية الخزاعي » فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فسفّهت قريش على رسول رسول الله ﷺ، وعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمَنَعَه قومه وحلفاؤهم الأحابيش، وخلّوا سبيله، وعدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما صنعت قريش معه.

لم يعجل رسول الله ﷺ على قريش فيجازيها بما فعلت من الغدر برسوله إليها، ولكنه طاولها وصابرها رجاء أن تثوب إلى مرادها^(٢).

(١) انظر « السنن الكبرى » للبيهقي (٩: ٢٣٣) و« حقائق الأنوار ومطالع الأسرار » (٣٤٦).

(٢) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٣٢٨) و« محمد رسول الله ﷺ » (٤: ٢٧٠).

□ لا غدر عند صحابة رسول الله ﷺ :

ثبت في الصحيح (في قصة مقتل « خبيب بن عدي ») أنه : « ابتاع بنو الحارث بن عامر خبيبا - وكان خبيب هو الذي قتل « الحارث بن عامر » يوم بدر - فلبث خبيب عندهم أسيرا حتى أجمعوا قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحذُ بها ، فأعارته ، فدرج بُني لها وهي غافلة حتى أتاه ، فوجدته مُجلِسَه على فخذه والموسى بيده .

قالت : ففرغتُ فزعةً عرفها خبيبٌ . فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنتُ لأفعلَ ذلك «^(١) .

موقف رائع مثالي حقًا . الأسير ينتظر الموت الذي حُدِّثَ له ساعته ، فلم يبال كثيرا بفراق الدنيا ، وأقبل في نفس تفيض بالإيمان والبشر على مصيره المحتوم ، أخذ موسى ليصلح بها بعض شأنه ، وليقبل على ربّه في سمت جميل ، ومظهر حسن ، فلما دلف إليه الصغير ، ابنُ عدوّه الذي سيقتله عمّا قليل ، أخذ يداعبه ، ويُربِّتُ عليه ، ويتلطف به ، وكان في الإمكان أن يغدر به ، ويده موسى ، أو أن يساوم في قتله^(٢) ، ويتزع العفو من أهله انتزاعًا ، إنقاذًا لنفسه ، ولهذا فزعت أم الوليد من غدر الأسير .

فانظر إلى ثمار التربية الإسلامية للإنسان ! خبيب هذا ، وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون له الموت ظلماً وعدواناً ، عربُّ أنبتهم أرض

(١) طرف من حديث طويل جميل يحسن الرجوع إليه . أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٣٩٨٩) و« أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجنائز) (٣١١٢) مختصراً ، وكلاهما عن أبي هريرة ، رضي الله عنه . وانظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ١٨١) و« فتح الباري » (٧ : ٣٨٠) و« سير أعلام النبلاء » (٢٦ : ٤٤٥) .

(٢) كما يفعل المجرمون في خطف الطائرات وغيرها .

واحدة، وأظلتهم طبائع وتقاليد واحدة، ولكنّ خبيثاً اعتنق الإسلام فأخرجه الإسلام إنساناً آخر، وأولئك عكفوا على ضلالاتهم فحبستهم ضلالاتهم في طبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة الإنسانية من تغيير وتحويل !

إن الإسلام علّم أتباعه الوفاء والكف عن الأبرياء^(١).

اليهود نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ

صالح النبي ﷺ بني قَيْنُقَاع وبني النضير وبني قريظة، وكتبَ بينهم كتابَ أمنٍ، وأقرهم على دينهم وأموالهم، على ألا يحاربوه ولا يُظاهروا عليه عدوّاً، ولكنّ معدن اللؤم لا يستقر حتى ينقض. فأخذوا ينقضون العهد تَباعاً، فلم يكن بُدّ من غزوهم، ثم إجلائهم تَباعاً كذلك.

وكانت غزوةُ كلِّ طائفةٍ منهم وجلاؤه عَقِبَ غزوةٍ من الغزوات الكبار : بدر، وأُحُدٍ، والخندق.

كان له ﷺ مع اليهود أربعُ غزوات :

- ١ - غزوة بني قَيْنُقَاع بعد بدر
- ٢ - غزوة بني النضير بعد أُحُد.
- ٣ - غزوة بني قريظة بعد الخندق.
- ٤ - غزوة خيبر بعد غزوة الحديبية^(٢).

(١) انظر « فقه السيرة » للبوطي (١٨٨) و« صور وعبر » (١٥٢).

(٢) انظر « فتح الباري » (٧: ٣٣٢).

١- بنو قَيْنُقَاع

غَضَّ بنو قَيْنُقَاع، بانتصار النبي ﷺ في بدر، وأظهروا ما كانوا يَكُونون من الغيظ والحَسَد له، وهَدَّدوه وأصحابه بأنهم هم الناس في الحرب، وكانوا أشجعَ يهودَ.

كان من حديث بني قَيْنُقَاع أَنَّ رسولَ الله ﷺ جمعهم بسوق بني قَيْنُقَاع، ثم قال: « يا معشر يهودَ، احذروا من الله مثلَ ما نزل بقريش من النُقمة، وأسلموا، فإنكم قد عَرَفْتُم أَنِي نبيُّ مُرْسَل، تَجِدُون ذلك في كِتَابِكُم، وَعَهْدِ الله إِلَيْكُم ».

قالوا: « يا محمد، إنك تُرَى أَنَا كَقَوْمِك ! لا يَغُرُّكَ أَنكَ لَقِيتَ قَوْمًا لا عِلْمَ لَهُم بالحرب، فأصَبْتَ منهم فُرْصَةً، إِنَّا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أَنَا نحن الناس^(١) ».

وكانوا أول يهودَ نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وصاروا يتجسسون على المسلمين لصالح المشركين، وينقلون إليهم تحركات المسلمين.

كان من أمر بني قَيْنُقَاع أن امرأة من العرب قَدِمَتْ بِجَلْب لها، فباعته بسوق بني قَيْنُقَاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يُريدونها على كَشْف وجهها، فأبَتْ، فَعَمَدَ الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٥١) و « سير أعلام النبلاء » (٢٦: ٣٧٦).

سَوَأَتْهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ.

فوثبَ رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه.

فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قَيْنُقَاع^(١).

□ اليهودُ دعاةٌ إلى نزع الحجاب :

إن الكفرة مهما اختلفت جهات كفرهم فهم دعاة إلى نزع حجاب المرأة المسلمة، فما بال أهل الإيمان يمشون في مساكنهم، وعلى دروبهم؟

إن غزوة بني قَيْنُقَاع عرَّفتنا أن أولَ يدِ آئمة في تاريخ الإسلام حاولت نزع حجاب المرأة المسلمة، كانت يدأ يهودية قدرةً، ماكرة مدبرة^(٢).

وهو يدلُّ على أن الحجاب الذي شرعه الإسلام للمرأة سابقٌ للوجه أيضاً، وإلا لم يكن هنالك أي حاجة إلى أن تسير هذه المرأة في الطريق ساترةً وجهها ولو لم يكن سترها لوجهها تحقيقاً لحكم ديني يأمرها بذلك لما وجد اليهود ما يدفعهم إلى ما صنعوا، لأنهم إنما أرادوا من ذلك مغايظة شعورها الديني الذي كان يبدو جلياً في مظهرها^(٣).

□ حصار المسلمين لبني قَيْنُقَاع :

فتوجهت إليهم جنودُ الله يقودهم رسولُ الله ﷺ على رأس عشرين شهراً

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٥١) و« المواهب اللدنية » (١: ٣٨٠).

(٢) انظر « صور وعبر » (٩٧).

(٣) « فقه السيرة » للبطوي (١٩٨).

من مهاجره، وحاصروهم في حصونهم أشدَّ الحصار وأعظمه، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب حتى ذلُّوا.

فقام إليه « عبد الله بن أبيي »، فقال : يا محمدُ أحسنُ في مَوالِيّ - وكانوا حلفاء الخَزْرَج - تحصدهم في عِدَاة واحدة، إنِّي والله امرؤٌ أخشى الدوائر. فقال رسول الله ﷺ : هم لك ^(١). وسألوا رسولَ الله ﷺ أن يجلِّوا من المدينة، ولهم النساء والذرية، وللمسلمين أموالهم.

فجَلَّوْا إلى أذْرِعَات من بلاد الشام، ولم يحُلْ عليهم الحَوْلُ حتى هلكوا ^(٢).

٢- بنو النضير

وبعد « غزوة أُحُد » ظن اليهود أن المسلمين أصبحوا ضعفاء، وأخذوا يحيكون المؤامرات، ويفتعلون المشكلات للمسلمين. وكانوا قد ائتمروا بالنبِيِّ ﷺ ليقْتلوه، ولم يمكِّنْهُمُ اللهُ بذلك، فأنذرهم ليخرجوا من المدينة ولا يُساكنوه بها. فتحصنوا وحاصرهم الرسول ﷺ عشرين ليلة ^(٣) ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ (الحشر: ٢) وامتَنَّ اللهُ على المؤمنين بأنه ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ (الحشر: ٢).

وقد سألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفَّ عن دمائهم، فأجلاهم

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٥٠ - ٥٢) و« المواهب اللدنية » (١: ٣٨١).

(٢) انظر « الرسول القائد » (١٥٥).

(٣) انظر « الرسول القائد » (٢٠٨).

بنفوسهم وذرائعهم، على أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح، وقد جلا معظمهم إلى خيبر، وجلا بعضهم إلى الشام.

جزاء « كعب بن الأشرف » القتل لنقضه العهد

إنَّ « كعب بن الأشرف »^(١)، كان موادعًا للنبي ﷺ في جملة من وادعه من يهود المدينة. فلما قُتل أهل بدر، شق ذلك عليه، وذهب إلى مكة وراثهم، وفضل دين الجاهلية على دين الإسلام.

ثم لما رجع إلى المدينة أخذ يُنشد الأشعار ويُشَبِّبُ بنساء رسول الله ﷺ ونساء المسلمين حتى آذاهم^(٢).

ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ لكعب بن الأشرف ؟ فإنه قد آذى الله ورسوله » فقام محمد بن مسلمة فقال : يا رسول الله، أتحبُّ أن أقتله ؟ قال : « نعم ». قال : فأذن لي أن أقول شيئًا. هكذا في البخاري.

قال ابن حجر : وفي رواية : فقال : أنت له . وفي رواية ابن إسحاق قال : فافعل إن قدرت على ذلك . وفي مرسل عكرمة : واذن لنا أن نُصيبَ منك فيطمئنَّ إلينا . قال : قولوا ما شئتم . ١ . هـ .

وفي البخاري « فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة^(٣) . . . ويُدخلُ محمد بن مسلمة

(١) كان من بني نهبان وهم بطن من طيئ، أتى أبوه المدينة فحالف بني النضير، فشرفَ فيهم، وتزوج « عقيلة بنت أبي الحقيق » فولدت له كعبًا. « فتح الباري » (٧: ٣٣٧).

(٢) انظر « طبقات فحول الشعراء » (١: ٢٨٢).

(٣) « أبو نائلة » هو أخو كعب من الرضاة. وكان نديمه في الجاهلية، فكان يركنُ إليه. و« محمد ابن مسلمة » ابنُ أخت كعب.

معه رجلين . . . فقال : إذا ما جاءَ فإني قائلٌ بِشَعْرِهِ فَأُشْمُهُ ^(١) . فإذا رأيتُموني استمكنتُ من رأسيه فدونكم فاضربوه . . . فلما استمكنَ منه ، قال : دونكم . فقتلوه . ثمَّ أتوا النبيَّ ﷺ فأخبروه ^(٢) .

قال ابنُ حجر : « في رواية عروة : فأخبروا النبيَّ ﷺ فحمد الله تعالى . وفي رواية ابن سعد : فلما بلغوا بقیع العَرَفِدِ كَبَرُوا ، وقد قام رسولُ الله ﷺ تلك الليلة يُصَلِّي ، فلما سَمِعَ تكبيرهم كَبَّرَ ، وعَرَفَ أن قد قتلوه ، ثم انتهوا إليه فقال : أفلحتِ الوجوهُ ، فقالوا : ووجهُك يا رسولَ الله . »

من هذا الحَدَثِ ندركُ أن الرسولَ ﷺ كان حازماً حاسماً مع كعبِ الذي تصدَّى للدعوة للأتية :

١ - كان كعبٌ موادعاً للنبي ﷺ مع يهودِ المدينة ، فنقضَ العهدَ . علماً أنه يعترفُ بصدق الرسول ﷺ ووفائه ، ولا عجب من ذلك فنقضَ العهد من أخلاق اليهود .

٢ - كان كعبٌ محاربياً ، ومن ثمَّ أدركت امرأته هلاكه حينما جاءه « محمدُ بنُ مسلمة » ليلاً وناداهُ ومعه « أبو نائلة » ، فقالت له امرأته : أين تخرجُ هذه الساعة؟ ثمَّ قالت : أسمعُ صوتاً كأنه يقطُرُ من الدم . كما في البخاري . وعند ابنِ إسحاق : قالت له : أنتَ امرؤٌ محاربٌ لا تنزلُ في هذه الساعة .

٣ - قَدِمَ مَكَّةَ وجعلَ يحرضُ على رسولِ الله ﷺ ، ويُنبِئُ الأشعارَ ، ويبيكي أصحابَ القليبِ من قريش الذين أصيبوا ببدر .

(١) قوله: (فإني قائلٌ بشعره فأشمته) هو من إطلاق القول على الفعل.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب المغازي - باب قتل كعب بن الأشرف) (٤٠٣٧) من حديث جابر بن عبد الله، وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٥٨: ٣ - ٦٠).

٤ - رَجَعَ إلى المدينة فثَبَّبت بنساء المسلمين حتى آذاهم بسلاطة لسانه أشدَّ الإيذاء .

٥- الرسول ﷺ ينادي أصحابه لقتل « كعب » بقوله : « مَنْ لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله ». فانبرى « محمد بن مسلمة » للقيام بالمهمة، وصار يتثبَّت من الرسول ﷺ فيما يجوز فعله في الحرب خاصة من الكذب والخداع ؛ لأنه لا بد منهما لأداء المهمة التي وُكِّلَتْ إليه، فأذِنَ له النبيُّ ﷺ بذلك بقوله : « قولوا ما شئتم ». فإن الحربَ خَدَعَةٌ^(١) . ويؤخذ من هذا أن العلم قبل القول والعمل .

٦ - أصبحت يهودُ مذعورين فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا : قُتِلَ سيدنا غيلة! فذكَّروهم النبيُّ ﷺ صنيعه، وما كان يُحرَضُ عليه، ويؤذي المسلمين .
زاد ابنُ سعد : فخافوا فلم ينطقوا .

وتأكدوا أن الرسول ﷺ لن يتوانى عن استخدام القوة، والبطش بالخائنين حين يرى أن النصيح لا يُجدي نفعاً لمن يريدُ العبتَ بالأمن، وإثارة الاضطرابات، وعدم احترام المواثيق، وبقتل هذا الشريرِ أسرعِ الأفاعي إلى جُحورها تختبئُ فيها .

وبذلك ندرك أن قتلَ « كعبِ بنِ الأشرفِ » لم يكن غدرًا ولا غيلةً، فالأفعال التي قام بها تجعله ناقضًا للعهد الذي دخلَ فيه، ومن ثمَّ يستوجبُ عقوبةَ القتل . أمَّا أسلوبُ تنفيذِ الحُكْمِ فقد اقتضت المصلحةُ العامةُ هذه الطريقةَ التي أذنَ الرسولُ ﷺ بها .

أما مفهومُ الغدر فهو الاعتداء على حياة معاهدٍ مسالمٍ لم يُحرَضِ عدوًّا،

(١) « صحيح البخاري » في (كتاب الجهاد) (٣٠٣٠) من حديث جابر، و« صحيح مسلم » في (كتاب الجهاد) (١٧٤٠) من حديث أبي هريرة. و(خُدعة) بضم الخاء والفتح أفصح.

ولم يُؤذِ أحدًا، ولم ينقض عهدًا^(١).

من خلق الرسول ﷺ التثبت في الأخبار

□ نقض عهد بني قريظة في غزوة الخندق :

خرج « حُيَيِّ بن أخطب » صاحبُ عقد بني قُريظة وعَهدهم، وكان قد وادَعَ رسولَ الله ﷺ على قومه، وعاقده على ذلك وعاهده.

فلما سمع « كعبُ بن أسد » بحُيَيِّ بن أخطب أغلق دونه بابَ حِصنه، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه حُيَيِّ : ويحك يا كعبُ افتح لي.

قال : ويحك يا حُيَيِّ إنك امرؤُ مشؤوم، وإني قد عاهدتُ محمدًا، فلستُ بناقضُ ما بيني وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقًا. قال : ويحك افتح لي أكلمك، قال : ما أنا بفاعل. ثم فتح له، فقال : ويحك يا كعبُ! جئتُك بعزِّ الدهرِ وببِخْرِ طام^(٢)، جئتُك بِقُريشٍ على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمُجتمعِ الأسيال من رومة^(٣)، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنَبِ نَقْمى إلى جانبِ أُحد، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يَبْرَحوا حتى نَسْتَأصل محمدًا ومن معه.

قال له كعب : جئتني والله بذلُّ الدهر، وبجَهِام^(٤) قد هَرَأقَ ماءه، فهو

(١) انظر « فتح الباري » (٧: ٣٣٦ - ٣٤٠) و« المدرسة النبوية العسكرية » (١٦٨).

(٢) طام: مرتفع، ويريد كثرة الرجال.

(٣) بين الجُرفِ ورَغابة « المغانم المطابة » (٢: ٨٣٠).

(٤) الجهام: السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

يَزْعُد وَيَبْرُقَ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَيَحْكُ بِأُحْيَى! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَمَنْ مُحَمَّدًا إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً.

فلم يزل حُيَيٌّ بكعب يَفْتِلُهُ فِي الذَّرْوَةِ وَالْغَارِبِ^(١)، حَتَّى سَمِعَ لَهُ، عَلَى أَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا مِنَ اللَّهِ مِيثَاقًا: لَنْ رَجَعْتُ قَرِيشَ وَعَطْفَانَ وَلَمْ يَصِيْبُوا مُحَمَّدًا أَنْ أَدْخَلَ مَعَكَ فِي حِصْنِكَ حَتَّى يُصَيِّبَنِي مَا أَصَابَكَ. فَتَقَضَّ «كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ» عَهْدَهُ، وَبَرِيءٌ مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبيرُ وإلى المسلمين، بعث رسولُ الله ﷺ «سعد بن معاذ»، وهو يومئذ سيد الأوس، و«سعد بن عباد» وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما «عبد الله بن رواحة»، و«خوات بن جبير» فقال: «انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًا فالحنوا لي لحنًا^(٢) أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس».

قال: فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، فيما نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: مَنْ رَسُولُ اللَّهِ؟ لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ.

ثم أقبل السعدان ومن معهما، إلى رسولِ الله ﷺ فسَلَّمُوا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا: عَضَلٌ وَالْقَارَةُ، أَي: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، حُيَيْبٍ

(١) الغارب: مقدمُ الشنم، والذروة: أعلاه. أراد ما زال يخادعه ويتلفه حتى أجابه. والأصل فيه: أن الرجل إذا أراد أن يراوض البعير الصعب ليُرْمَهُ وَيَنْقِذَ لَهُ، وَجَعَلَ يُبْرِئُ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَيَمْسَحُ غَارِبَهُ، وَيَفْتِلُ وَيَزَهُ حَتَّى يَسْتَأْنَسَ، وَيَضَعُ فِيهِ الزَّمَامَ. «لسان العرب» (غرب ١: ٦٤٤).

(٢) اللحن: اللغز، وهو أنه يخالف ظاهر الكلام معناه.

وأصحابه. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»^(١).

□ نستخلص من ذلك ما يأتي:

- ١- اعتراف «كعب بن أسد» بوفاء الرسول ﷺ لوعده، وصدقه لعهدده.
 - ٢- نقضت يهود بني قريظة العهد مع رسول الله ﷺ - وهذا من طباعهم - وتهيأت للنزول إلى المدينة للفتك بالمسلمين، ومساندة قريش من الداخل بهدف القضاء على الرسول ﷺ وأصحابه.
- والرسول ﷺ دعا يوم الأحزاب على المشركين بقوله: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اللهم اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم»^(٢) فوقع في صفوفهم الشقاق والانقسام، وهبت الرياح الشديدة، مع الأمطار الغزيرة والبرد القارس مشمولة برعود وبرق لم يكن قد تعودوها.
- حتى قال «أبو سفيان بن حرب»: «يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع»^(٣)، وأخلفتنا بنو قريظة، بلغنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الرياح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قَدْرًا، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل»^(٤).

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣: ٢٣١ - ٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري «في صحيحه» في (كتاب الجهاد - باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة) (٢٩٣٣) و«مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد - باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو) (١٧٤٢) من حديث «عبد الله بن أبي أوفى»، رضي الله عنهما.

(٣) الكراع: اسم لجمع الخيل.

(٤) أخرجه «أحمد» في «المسند» (٥: ٣٩٣).

- وقد قال النبي ﷺ: « نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكَتْ عَادُ بِالذَّبُورِ »^(١).
- ٣ - لقد كان من خُلِقَ رسول الله ﷺ التحقق في الأخبار، والثبت من كل ما ينقل إليه، وعلى الخصوص في الحرب كما قال الله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَ كُذِّبُوا فَاسْتَبِينَ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (الحجرات: ٦). وقد قرئ: فتثبتوا.
- ٤ - لقد كان الرسول ﷺ يدرّب أصحابه على المحافظة على السريّة، والتورية في القول.
- ٥ - لم يعلن الرسول ﷺ ابتئاسه من نقض بني قريظة عهدهم، بل يعلم أنّ سنّة الله في عاقبة أهل الغدر سيئة، فتفاءل. فرفع صوته قائلاً: « أبشروا يا معشر المسلمين ».

٣- بنو قريظة

انضم بنو قريظة في « غزوة الخندق » للأحزاب، وكان نقضهم للعهد شديداً على نفوس المسلمين.

أرسل اليهود رجلاً منهم إلى داخل المدينة فاستطاع التسلل إلى الدور التي تجتمع فيها نساء المسلمين وأطفالهم، ولكنّ هذا اليهودي لم يعد إلى قومه ليخبرهم عن مواضع النساء والأطفال، لأن امرأة مسلمة رآته يستطلع المواضع فاستطاعت قتله بعمود خشبي.

إنّ قتل هذا اليهودي خلّص المسلمين من خطر دائم فقبح اليهود في حصونهم.

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الاستسقاء - باب قول النبي ﷺ: نُصِرْتُ بِالصَّبَا) (١٠٣٥) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب صلاة الاستسقاء - باب في ربح الصبا والدبور) (٩٠٠) من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

وكان بنو قريظة أشدَّ اليهود عداوةً لرسول الله ﷺ وأغلظهم كفراً، وأقذعهم سباً وفحشاً. فما أن رجع ﷺ من غزوة الخندق في أواخر سنة خمس، وهمَّ أن يخلع لباسَ الحرب حتى جاءه جبريل فقال: وضعت السلاح؟ فإنَّ الملائكة لم تضع أسلحتها بعدُ، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإنني سائرُ أمامك أنزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعبَ^(١).

ولم يكن من بني قريظة إلا أن تحصنوا بحصونهم التي لم تُغن عنهم من الله شيئاً. فهزمهم الله شرَّ هزيمة بعد أن نازل حصونهم جندُ الله خمساً وعشرين ليلةً، حاصروهم فيها حصاراً لم يعرفه تاريخهم من قبل. حتى إذا رأوا أنه لا مناصَ من هلاكهم جوعاً، طلبوا إلى رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال والذراريِّ، فأبى. ولمَّا شفع فيهم رجالٌ من الأوس، قال لهم ﷺ: «ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟».

فقالوا: نعم. ثم حكم سعدٌ رضي الله عنه وكان جريحاً بسهم أصابه في غزوة الخندق - بأن تُقتلَ المُقاتِلَةُ، وتُسبَى النساءُ والذريةُ وتُقسَمَ أموالُهُم.

فقال ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد»^(٢). وهكذا ظهر الله أرض نبيه من قومٍ لن يفيد فيهم ميثاقٌ ولا عهد.

□ نستخلص مما تقدّم ما يأتي:

١ - أن الرسول ﷺ أعلن قبوله بحكم «سعد بن معاذ» رضي الله عنه لأنه ﷺ يعلم أيَّ

(١) أخرجه «البخاري» في «صحيحه» في (كتاب المغازي) (٤١١٧) و«مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد) (١٧٦٩) من حديث عائشة، رضي الله عنها.

(٢) أخرجه «البخاري» في «صحيحه» في (كتاب المغازي) (٤١٢١) و«مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد) (١٧٦٨) و(١٧٦٩) و«أحمد» في «مسنده» (٤٢: ٢٥٠٩٧).

طرازٍ من الرجال هو، وأصدرَ « سعدٌ » حكمه لقطع الفتنة من دابرها، ولم يدارٍ ولم يحابٍ.

وتكفيه شهادة الرسول ﷺ فيه : « لقد حكمت فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات »

٢- أن القرارَ الحاسم الذي يعالج الغدرَ والخيانةَ هو ما اتخذهُ « سعد » ﷺ زعيمُ الأوس في قتل المقاتلين الذين حملوا السلاح، وسبوا النساء والذرية، وغنموا الأموال.

٣- لقد قُتِلَ مقاتلو بني قريظة جميعًا ومعهم « حُبَيِّ بن أخطب » الذي تزعم حركة تحشيد الأحزاب ضد المسلمين، عدا ثلاثة رجال منهم أسلموا. ولم يُقتل من النساء والأطفال أحدٌ إلا امرأةً قتلت أحدَ المسلمين برحائها، فقتلت بجرمها هذا^(١).

٤- لقد تخلى « سعد » ﷺ عن كلِّ عاطفة تستجيب لرواسب الجاهلية، ولم يعبا بشفاعة أقربائه من الأوس الذين لم يقدروا الموقفَ حقَّ التقدير، وكان حُكم سعد هو الموافق لحكم الله فيهم. وهكذا اتضح لنا سياسة الرسول ﷺ بأن من الحكمة الحزم مع العدو الغادر، وعدم إفلاته من العقاب الذي يستحقه.

الصلح مع يهود خيبر

الإسلام يستجيب للصلح وهو في مركز القوة، ولا يقر الغدر، كيفما كان

الأمر :

لما استيقن يهود خيبر بالهلاك، بعد أن دُكَّتْ حصونهم تباعًا، عَرَضُوا

(١) انظر « الرسول القائد » (٢٤٦).

الصلح على النبي ﷺ فصالحهم على حقن دمايهم، وعلى أن يتركوا الأرض والمال والسلاح، ولا يخرجوا منها إلا بما يحمل المرء على ظهره، وعلى ألا يكتموا شيئاً عنه، فإن كتموا نقضوا ذمتهم ونكثوا عهدهم. غير أن اليهود لا يعرفون العهود، فكتموا أمر الجلد^(١) الذي كان يحتوي مالا كثيرا لحبي بن أخطب. وزعموا أن الحروب أكلته، فلما اكتشف الجلد، تحلل النبي ﷺ من عهدهم، وسبى الذراري والنساء، وقسم الأموال.

إن مبادرة النبي ﷺ إلى قبول الصلح، وكانت الحصون تتهافت أمامه، لشاهد قوي على أن الحرب ليست من مقاصد الإسلام الذاتية، وأن التسلط والتعادي ليست من الإسلام بسبيل، وأن الصلح أحب في الإسلام ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٨). والإسلام يصالح وهو في مركز القوة، ليعلن أنه داعية السلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦١).

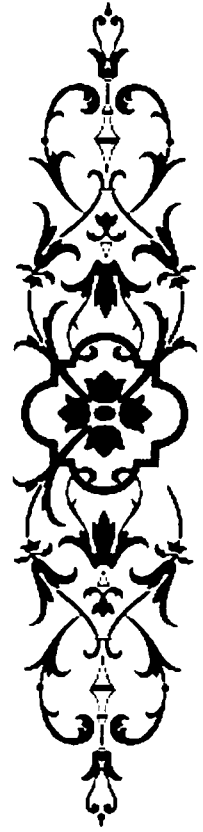
والمسلمون عند شروطهم في الصلح، وقد كان صلح خيبر مشروطا بالآلا يكتم اليهود شيئاً من المال. فلما كتموا أمر الجلد، أخلوا بالشرط، فنقض لهم عهدهم. فقسم المال، وسبى الذراري. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨)، وقد خانوا فعلا، وكتموا، وغدروا^(٢).

* * *

(١) الجلد: وعاء.

(٢) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٣: ٣٥٢) و«صور وعبر» (٣١٠ - ٣١١).

المبحث الثامن
الكلمات



□ تعريف الكتمان :

الكتمان في اللغة : نقيض الإعلان، كَتَمَ الشيءَ يَكْتُمُهُ كِتْمًا وَكِتْمَانًا : سَتَرَهُ وَأَخْفَاهُ .

وَكَتَمَ الشيءَ وَكَتَمَهُ : بَالَعٌ فِي كِتْمَانِهِ . يُقَالُ : رَجُلٌ كَتَمَهُ - كَهْمَزَةً - إِذَا كَانَ يَكْتُمُ سِرَّهُ . وَاسْتَكْتَمَهُ الْخَبِيرَ وَالسَّرَّ : سَأَلَهُ كَتْمَهُ^(١) .

وفي العرف العسكريّ : إخفاء المعلومات العسكرية الخاصة بقوتها وأسلحتها، وتنظيمها وتجهيزها وقيادتها، والتحركات الآلية، وعدم إفشاء الأسرار العسكرية صغيرها وكبيرها عند الصديق والعدوّ .

فالجندِيُّ الشريف لا يفشي سرًّا لأحدٍ حتّى لوالديه وأقربائه، فالأسرار العسكرية يجب أن تبقى في طيِّ الكِتْمَانِ الشديد .

ويجب أن يحذَرَ العسكريُّ الثرثرة التي لا فائدة من ورائها^(٢) .

حكم الكتمان : التحلي بالكتمان واجبٌ في الحربِ والسُّلْمِ . وقد حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية، وجعل إذاعتها من صفات المنافقين، قال الله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْفِقُوا لَأَنْفِقْنَا فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

(١) « لسان العرب » (كتم ١٢ : ٥٠٦ - ٥٠٧) و« المعجم الوسيط » (٢ : ٧٧٦) .

(٢) « دروس في الكتمان » (٦) بتصرف .

لِنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ (الأحزاب : ٦٠).

لقد كانت تدابير النبي ﷺ في الكتمان بالغة حدًا رفيعًا، ومثالا يُحتذى به .

وكان « حذيفة بن اليمان العَبَسِيُّ » ﷺ صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين، لا يعلمه أحدٌ غيره، أعلمه بهم رسولُ الله ﷺ^(١).

ولقد اختاره ﷺ لتمتعه بمزايا الكتمان الشديد، فلا يفشي سره لأحد، وكان حاضر البديهة لا يرتبك في المواقف الحرجة .

□ من صفات الرسول ﷺ الكتمان:

إن الأسرار العسكرية يجب أن تبقى في طي الكتمان الشديد، والدروس العملية التي يستطيع المسلمون أن يتعلموها من الرسول ﷺ في الكتمان أكثر من أن تعدّ وتُحصى^(٢). نذكر طرفًا منها :

١- لما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال في رومة بين الجُرف وزغابة عَلِمَ النبي ﷺ أن بني قريظة من يهود قد نكثوا عهدهم الذي كان بينهم وبين المسلمين، وذلك بعد تطويق المدينة المنورة من عشرة آلاف مقاتل^(٣) من قريشٍ وعُظفانٍ وأشجعٍ وسُلَيمٍ وبني أسد .

وتحرّج موقف المسلمين كثيرًا وكان عدد مقاتليهم ثلاثة آلاف مقاتل بعد أن نكثت بنو قريظة، فبعث النبي ﷺ رجالاً من المسلمين إلى بني قريظة

(١) « أسد الغابة » (١ : ٤٦٨) و« الإصابة » (٢ : ٤٥).

(٢) انظر « دروس في الكتمان » (١٥).

(٣) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ٢٣٠) و« المغانم المطابة » (٢ : ٨٣٠).

ليتأكدوا من انضمام بني قريظة إلى الأحزاب، وأمرهم أن يلحنوا بالقول حين يعودون إليه ولا يفصحوا في حالة نكث بني قريظة، خوفاً على معنويات المسلمين من الانهيار، وحتى يستكمل المسلمون إعداد الخندق، وإكمال استعداداتهم العسكرية قبل أن ينتشر خبر بني قريظة بينهم.

وحين أكمل المسلمون ما أرادوه إعداداً وعُدداً أخبرهم النبي ﷺ بما كان من أمر قريظة، ليضعهم عند مسؤولياتهم الكاملة دفاعاً عن الإسلام.

ولو أن النبي ﷺ سمح بإذاعة نبأ نكث بني قريظة عهداً قبل أن يُعدَّ المسلمون كلَّ متطلبات القتال لانهارت معنويات المسلمين؛ لأنَّ الخطر أصبح يهددهم من داخل المدينة المنورة وخارجها.

٢- وفي هذه الغزوة أيضاً جاء « نعيم بن مسعود الغطفاني »^(١) إلى النبي ﷺ معلناً إسلامه وأخبره أنه أسلم، ولا يعلم قومه بإسلامه فقال له النبي ﷺ: « إنما أنت رجل واحد فخذلنا عتاً ما استطعت، فإن الحرب خدعة ».

وكتّم النبي ﷺ إسلام « نعيم » فلم يعرف قومه ولا بنو قريظة عن إسلامه شيئاً.

وخرج « نعيم » حتى أتى بني قريظة، وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال لهم: عرفتم ودي إياكم، وقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد، وليسوا كأنتم، البلدُ بلدُكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن

(١) يُكنى أبا سلمة الأشجعي، أسلم ليالي الخندق، وهو الذي أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان في وقعة الخندق، ورحلوا عن المدينة. « الإصابة » (٦: ٤٦١).

تحوّلوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان إن رأوا نُهْزَةً^(١) وغنيمةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمدٍ، ولا طاقةً لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقةً لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تنجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج «نعيم» إلى قريشٍ فقال لهم: بلغني أن قريظة ندموا، وقد أرسلوا إلى محمدٍ: هل يرضيك عتًا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأجابهم: أن نعم، فإن طلبت قريظة منكم رُهنًا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجالاً واحداً..

وجاء «نعيم» غطفانَ فقال لهم: أنتم أهلي وعشيرتي.. وقال لهم مثل ما قال لقريشٍ وحذرهم.

وأرسل أبو سفيان بنُ حَرْبٍ وسادةُ غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهلٍ في نفرٍ من قريش وغطفان في ليلة سبتٍ، وطلبوا منهم الاستعداد للهجوم على المسلمين نهار السبت، ولكن قريظة اعتذروا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت.. ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأيّ هجوم. قالت قريشٌ وغطفان: لقد صدق نعيم.

ولما رُفِضَ طلبُ قريظة بإعطائها رهائن من قريش وغطفان قالوا: لقد صدق نعيم.. وتفرقت قلوب الأحزاب، وزالت الثقة بينهم. وخذّل الله

(١) النهزة: الفرصة.

بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليلٍ شاتية باردة، فجعلت تكفأُ قدورهم، وتطرح آنتهم^(١). وعاد الأحزاب إلى مواطنهم من دون أن يحققوا أهدافهم في القضاء على المسلمين.

لقد كانت للإشاعات التي بثها نعيم لغرض تفريق كلمة الأحزاب أثرٌ حاسم في معنويات قريش وحلفائها من القبائل العربية وبني قريظة.

والحرب الحديثة، تعتمد على بثّ الإشاعات المثيرة لتصديع الصفوف، وبليلة الأفكار. فلو لم يطبق نعيم هذا الأسلوب مع كتمان إسلامه فهل كان بإمكانه أن يقوم بهذا الدور الحاسم في تفرقة صفوف الأحزاب، ونزع الثقة من نفوسهم^(٢)؟

يقظة الرسول ﷺ ورحمته بالضعفاء

بلغ رسول الله ﷺ في تطبيق عامل (الكتمان) حدَّ الروعة في فتح مكة المكرمة، ولما اقترب موعد المسير إلى مكة المكرمة أعلم رسول الله ﷺ الناس أنه سائرٌ إلى مكة، فأمرهم بالجدِّ والتهيؤ. وقال:

« اللهم خذِ العيونَ والأخبارَ عن قريشٍ حتى نُبغَّتْها في بلادها »^(٣) فتجهز الناس.

فكتب « حاطبُ بن أبي بلتعة » كتابًا إلى قريش يُخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة.

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٢٤٠ - ٢٤٢).

(٢) انظر « الإصابة » (٦: ٤٦١) و« دروس في الكتمان » (٢٠ - ٢٤).

(٣) « السيرة النبوية » لابن هشام (٤: ٣٩) و« زاد المعاد » (٣: ٣٩٨).

وثبت في الصحيحين^(١) عن «علي» قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ^(٢)، فإن بها طعينة^(٣) معها كتاب فخذوه منها». فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالطعينة.

قلنا لها: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب.

فقلنا: لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها. فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟».

قال: يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأاً ملصقاً في قريش - يقول: كنت حليفاً -، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في (كتاب الجهاد - باب الجاسوس) (٣٠٠٧) و(كتاب المغازي - باب غزوة الفتح) (٤٢٧٤) و(كتاب تفسير القرآن - باب لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) (٤٨٩٠) و(كتاب استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب ما جاء في الثنأولين) (٦٩٣٩) وفيه: «فإن امرأة معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين.. وكان كتب إلى أهل مكة بمسير رسول الله ﷺ إليهم.. إلى آخر الحديث. وأخرجه مسلم في «صحيحه» في (كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل حاطب بن أبي بلتعة، وأهل بدر، رضي الله عنهم) (٢٤٩٤) وابن هشام في «السيرة النبوية» (٤: ٣٩ - ٤٠) وانظر «زاد المعاد» (٣: ٣٩٨) و«المواهب اللدنية» (١: ٥٦٢) و«فتح الباري» (٧: ٥٢١) و(٨: ٤٢٠).

(٢) موضع بين المدينة ومكة بقرب حمراء الأسد. «المغانم المطابة» (٢: ٧٧١).

(٣) الطعينة: اليهودج، والمراد المرأة ما دامت في اليهودج. «الصحاح» (ظعن). واسمها: «سارة» أمتها النبي ﷺ يوم الفتح. «الإصابة» (٧: ٦٩٠).

أَتَّخِذْ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم».

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق.

فقال: «إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم، فقد عفرت لكم».

فأنزل الله السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ (المتحنة: ١).

لا شك أن كتمان أخبار الجيش والتزام السرية في الأمور العسكرية يحقق مبدأ الأمن والمباغثة، ويُعدُّ الكتمان من أسمى أخلاق الحرب.

وقد كان لاتخاذ السرية الكاملة في أمر هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة أعظم الأثر في نجاح تلك المهمة الصعبة. إن حاطبًا خرج عن جادة الصواب بهذا العمل. وما كان له أن يوادَّ المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على العدوان، وصنعوا بالمسلمين ما «حاطب» أعلم به من غيره.

لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها، والله أبرُّ عباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التي تعرو نورهم فيخبو، وسعيهم فيكبو.

على أن حاطبًا شفع له ماضيه الكريم، فْجُبِرَتْ عَثْرَتُهُ، وأمر النبي ﷺ المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه وبهذا التقدير السامح علمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حينًا بعد أن أصابوا طويلاً^(١).

لكن ما فعله « حاطب » ظهر لنا منه أمران :

(١) إظهار دليل من دلائل نبوته ﷺ، وما أكثرها !

(٢) بيان خُلُقٍ من أخلاق رسول الله ﷺ، وعدم خروجه عن إنسانيته.

فلقد تجلّت رحمته الرسول ﷺ في هذا الموقف الممتّزن.

وكم للرسول ﷺ من مواقف عظيمة يعجز عظماء البشر عن مجاراتها ! فهو أرجحهم عقلاً وجِلْمًا، وأوفرهم علمًا وفهْمًا، وأشدّهم رأفة ورحمة، وأبعدهم نظرًا. وهو رحمة مهداة، قال تعالى عنه: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

ما كان « حاطب » منافقًا، ولا ضعيف الإيمان، بتزكية الرسول ﷺ له.

ولكن في النفس البشرية جوانب ضعف تغلب في بعض الأحيان جانب الحكمة والعقل، فتتصرف تصرفًا غير لائق، وحينما ترجع إلى صوابها يلازمها الندم و التوبة.

وما كان هذا الضعف ليخفي على صاحب القلب الكبير، صاحب الخلق العظيم بنور ربه الوضاء، فَرَجَمَهُ وناجح عنه.

(١) انظر « دروس في الكتمان » (٢٨) و« فقه السيرة » للغزالي (٢٨٨).

والقويّ حقًا هو الذي يرحم الضعفاء، والعظيم حقًا هو الذي يلتمس المعاذير لمن يستزلهم الشيطان في غفوة من صدق الإيمان، ووازع الضمير^(١).

• وهنا دقيقة مهمة وهي:

لا يجوز تعذيب المتهم الذي لم تثبت عليه الجريمة بيّنة شرعية كافية، حملًا له على الإقرار، فالمتهم بريء ما لم تثبت جريمته. وهذا عند الأئمة الأربعة.

وخبرُ الطَّعِينَةِ التي أرسلها « حاطبٌ » إلى مكة، وتهديد عليّ عليه السلام لها ليس من هذا في شيء، لأنها ليست تلك المرأة مجردة متهمة، بل هي حقيقة ثابتة دلّ عليها خبرُ أصدق الناس صلى الله عليه وآله فلا يقاس عليها مَنْ حامتْ حوله التهم؛ لمجرد ظنونٍ وشكوكٍ من أناس غير معصومين^(٢).

□ التزام « حذيفة بن اليمان » بتنفيذ خطة الرسول صلى الله عليه وآله

دعا رسول الله صلى الله عليه وآله « حذيفة بن اليمان » عليه السلام ليتحسس أخبار المشركين في « غزوة الخندق » فقال: « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تُحدِثنَّ شيئاً حتى تأتينا ». قال: فذهبتُ فدخلتُ في القوم، والريحُ وجنودُ الله تفعل ما تفعل، لا تُقرُّ لهم قَدْرًا، ولا نارًا، ولا بناءً.

قال أبو سفيان: ارتحلوا فإني مرتحل. قال حذيفة: ثم رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو قائم يصلي في مرط^(٣) لبعض نساته مرَّحل، فلما رأني أدخلني إلى

(١) انظر « زاد المعاد » (٣: ٤٢٢ - ٤٢٣).

(٢) انظر « فقه السيرة » للبوطي (٢٧١).

(٣) مرط: كساء من صوف أو خزّ فضفاض.

رحله، وطرح عليّ طرف المرط ثم ركع وسجد وإنه لفيه، فلما سلّم أخبرته^(١).

وروي: قال: أتيتهم، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهره بالنار^(٢)، فوضعت سهمًا في كبد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: « لا تذرهم عليّ » ولو رميته لأصبته.

فرجعت وأنا أمشي في مثل الحَمَام، فأتيت رسول الله ﷺ ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت^(٣) فأخبرت رسول الله ﷺ فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى الصباح، فلما أن أصبحت، قال رسول الله ﷺ: « قم يا نومان »^(٤).

ونقطف من هذا الخبر الانضباط الدقيق الذي يتمتع به « حذيفة بن اليمان » رضي الله عنه والالتزام بتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد كان باستطاعته أن يقتل أبا سفيان قائد الأحزاب، ولكن منعه من ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: « لا تذرهم عليّ » فأمسك.

لقد نبه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خطورة إحداث أيّ قتل في هذه المهمة الاستطلاعية بقوله صلى الله عليه وسلم: « ولا تُحدِثُن شيئاً حتى تأتينا ».

فلو لم يلتزم « حذيفة بن اليمان » رضي الله عنه بالتعاليم النبوية ورمى أبا سفيان

(١) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (٥: ٣٩٢).

(٢) أي: يدفن ظهره بتعريضه لحرارة النار. وهو كاضطلّي: اشتدفاً « القاموس » (صلى).

(٣) قررت: بردت.

(٤) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٧٨٨) و« صحيح السيرة النبوية »

(٣٦٧ - ٣٦٨).

بقوسه فقتله لأَجَبَتْ قريشُ نار الحرب من جديد، وثارَت نائِرُتُهُم للانتقام لقتل قائدهم، وأحكمتِ الحصار على المسلمين، وقد بلغ منهم الجهدُ مبلغه، وضاقَت عليهم الأرض بما رحبتُ، لقد زاعَتِ الأبصارُ، وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ، كما وصفهم القرآن الكريم في سورة الأحزاب.

رفقُ الرسول ﷺ بأصحابه

□ الصحابة يكتنفهم حنان النبوة بحظٍّ وافر لا يقاس بحنان الآباء :

رجع « حذيفة بن اليمان » من مهمته التي كلفه بها رسول الله ﷺ في تلك الليلة الشديدة البرد، العاصفة الريح، الحالكة الظلمة فوجدَ النبي ﷺ قائماً يصلي في مِرْطٍ لبعض نسائه، وكان « حذيفة » يرتعش ويرتجف وفي حاجةٍ إلى غطاء، ورآه رسول الله ﷺ كعصفور ينتفض من البرد، فأشار إليه بالاقتراب، وضمَّه ﷺ وطرح عليه طرف المِرْط، الذي كان يصلي فيه فغطَّى به « حذيفة »، لِيَقِيَهُ عادية البرد، ثم أتَمَّ صلاته وهو فيه، حتى إذا تحلَّل من صلاته أخبره بالذي كان.

نام مستغرقاً حتى أيقظه الرسول ﷺ مداعباً قائلاً : قم يا نومان !

أرأيت لطف النبي الرحيم ﷺ وترفقَه بأصحابه ؟

إن صلاة الليل وحلاوة المناجاة لم تمنعه من التلطف بهذا الشاب الكشاف، الذي جاء بأحسن الأنباء، وأصدق الأخبار وأهمها، فشملة بكسائه

الذي يصلّي فيه، ليدفنه، وتركه ملفوفاً به حتى أتمّ صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، وأشرق الصبح الجميل، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطفٍ وخفةٍ ودعابة، قائلاً: « قم يا نوماً ». دعابة تقطر حلاوة، وتفيض بالحنان، وتسيل رقة^(١).

له ﷺ خُلُقٌ لا يُرامُ مُسامته، وفضلٌ لا يُدرَكُ نواله.

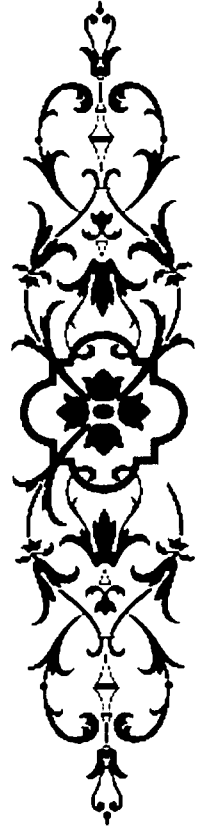
قال الحافظ « ابن حجر »:

وأرسله الله المهيمنُ رحمةً فليس له في المرسلين مُمائِلُ

* * *

(١) انظر « صور وغيره » (٢٤٦).

المبحث التاسع
سماحة الإسلام



لا إكراه في الدين

قال « ابن قدامة » : أجمع أهل العلم على أن الذمي إذا أقام على ما عُوهدَ عليه والمستأمن، لا يجوز نقض عهده، ولا إكراهه على ما لم يلتزمه^(١).

الإيمان لا بد أن يكون بمحض الاختيار، ولا سبيل للإكراه فيه . وباستقراء أحداث السيرة في العهد النبوي لا نجد حادثة تدل على أن الرسول ﷺ أكره أحدًا على الدين، وكانت مهمة الرسول الإنذار والتبليغ فقط .

وقد رفع الله عنه الأسى والحزن إذا عرض الناس عن دعوته . قال الله تعالى: ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ (الغاشية : ٢٢)، ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَعُ ﴾ (الشورى : ٤٨)، ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر : ٢٣)، ﴿ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف : ٦).

وأما حروب الرسول ﷺ ضد قريش وغيرهم فإنها لم تكن لنشر العقيدة بالسيف، وإنما هي تأديب لمن يكفرون بحرية العقيدة الإسلامية، ويفتنون الناس عما تؤمن به قلوبهم ، وتطمئن له عقولهم . قال الله ﷻ: ﴿ وَقَنَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٩٣).

ولو كان الإسلام يقرُّ نشر الدعوة بالسيف والإكراه لما قبلَ رسول الله ﷺ الجزية من صاحب أيلة، ومن أهل الجرباء وأذرح^(٢)، بعد أن انسحبت أمامه

(١) « المغني » (١٢ : ٢٩٢).

(٢) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ١٦٩) و« السيرة النبوية » للندوي (٣٧٢).

جحافل الروم يوم خرج لقتالهم في تبوك .

فإن طبيعة النصر تدفع المرء إلى الظفر بأكبر قسط منه ، ولكن رسول الله ﷺ أبى أن يحارب أهل الجرباء وأذرح وأئلة لما وجد من جنوحهم للسلم . قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَحَرُوا لِسْلِمٍ فَأَجْحَحْ مَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الأنفال : ٦١) .

والجزية التي دفعوها ليست ثمنا لقاء إصرارهم على دينهم ، وإنما هي عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة في سبيل حمايتهم^(١) ، فالتخيير بين قبول الإسلام أو الجزية دليل واضح على منع الإكراه في الدين .

وقد احتمل النبي ﷺ وأصحابه صابرين مصابرين أذى لا يُحتمل ، وإعنات لا يطاق ، إثارة للسلم على الحرب ، والعفو على العقوبة ، واللين على البطش والقوة . وفي معاهدة اليهود ، وشروط صلح الحديبية ، والعفو عن قريش في فتح مكة وغيرها شواهد صدق على ذلك .

والدعوة بالحسنى إلى الدين كانت في مكة و في المدينة أيضًا ، وكل ما استجد في التشريع المدني هو الإذن بالقتال لردّ العدوان وحماية الدعوة ، بعد أن قوي المسلمون ، وبعد أن تكوّنت لهم دولة وأصبح لهم وطن . أما في مكة فكانوا يتحملون صنوف الأذى ويصبرون عليه .

ولو كان القتال للإكراه على الإسلام لما نهى الرسول ﷺ عن قتال غير المقاتلة كالشيوخ والنساء والرهبان والفلاحين ماداموا مسالمين ، فطريق الدعوة هو البيان والدليل العقلي ، ورفع اللثام عن أسس الدعوة الجديدة في صبر وأناة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(١) انظر « أحكام القرآن » للجصاص (١ : ٤٥٢) و« آثار الحرب » (٧٣) .

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ (يوسف : ١٠٨) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة : ١٠٥) أي : بعد دعوتهم إلى الخير .

قال الرازي : « إنه - تعالى - لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للمعذرة قال بعد ذلك : إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر في الإقامة على كفره إلا أن يُفسرَ على الإيمان ويُجبرَ عليه ، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء ، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩) وقوله : ﴿ وَوَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٩٩) وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بِنِعْمِ فَسَّكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء : ٤) .

ومما يؤكد هذا القول أنه - تعالى - قال : ﴿ قَدْ بَيَّنَّ الرَّشْدَ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) يعني ظهرت الدلائل ، ووضحت البيئات ، ولم يبق بعدها إلا طريق القسر والإلجاء والإكراه وذلك غير جائز «^(١) .

وبمثل هذا قال ابن كثير والطبري والجصاص وأبو حيان ، ويؤكد أنهم ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار ولكن حكمها عام .

عن ابن عباس قال : نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له : حصين ، وكان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلاً مسلماً ، فقال للنبي ﷺ : ألا أستكرههما فإنهما قد أيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فيه

(١) « التفسير الكبير » (٢ : ٣١٩) بتصرف .

ذلك . ثم إن جملة ﴿ قَدْ بَيَّنَّ الرُّسْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ كأنها كالعلة لانتفاء الإكراه في الدين^(١) .

وجمهور السلف على أن آية « لا إكراه » ليست منسوخة ولا مخصصة ، وإنما النص عام فلا نُكِرَهُ أَحَدًا على الدين ، والقتال لمن حاربنا ، فإن أسلم عصم ماله ودينه ودمه ، وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله ، ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحدًا على الإسلام ، لا ممتنعًا ولا مقدورًا عليه .

ولا فائدة في إسلام مثل هذا ، لكن من أسلم قَبِلَ منه ظاهر الإسلام^(٢) .

البرُّ في معاملة أهل الذمَّة

قال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨) .

قال « القرافي » : في معنى البرِّ : « الرفقُ بضعيفهم ، وسدُّ خَلَّةِ فقيرهم ، وإطعامُ جائعهم ، وإكساءُ عاريهم ، ولينُ القولِ لهم على سبيل اللطفِ لهم والرحمةُ ، لا على سبيل الخوفِ والذَّلَّةِ ، واحتمالُ أذيتهم في الجوارِ مع القدرة على إزالته ، لُطفًا منا بهم لا خوفًا وتعظيمًا ، والدعاءُ لهم بالهداية ، وأن يُجعلوا من أهل السعادة ، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم ، وحفظُ

(١) انظر « جامع البيان » (٤ : ٥٤٨) و« أحكام القرآن » للجصاص (١ : ٤٥٢) و« تفسير القرآن

العظيم » (١ : ٦٨٢) و« الإصابة » (٢ : ٩٤) و(٧ : ٩١) .

(٢) انظر « آثار الحرب » (٧٦ - ٨٢) .

غيبتهم إذا تعرض أحدٌ لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يُعانُوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم». ثم قال: «وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جُبلوا عليه من بغضنا، وتكذيب نبينا ﷺ». ثم قال: «ثم نعاملهم بما تقدّم ذكره امتثالاً لأمر ربنا ﷻ وأمر نبينا ﷺ، لا محبةً فيهم ولا تعظيماً لهم» اهـ^(١).

هدف الرسول ﷺ إقامة العدل

هدف المجتمع المسلم الذي رباه النبي ﷺ على منهجه إنما هو هداية الخلق إلى توحيد الله، وإلى إقامة العدل، وإشاعة الرحمة والمودة بين الناس.

كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثاً قال لهم: «تألفوا الناس، ولا تُغيروا عليهم حتى تدعوهم - أي: إلى الإسلام - فما على الأرض من أهل بيت مدبرٍ ولا وبرٍ إلا تأتوني بهم مسلمين أحب إليّ من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم، وتقتلوا رجالهم»^(٢).

قال «المسور بن مخزّمة»: «خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «إن الله بعثني رحمةً للناس كافة، فأدوا عنيّ رحمكم الله، ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى، عليه السلام»^(٣).

(١) «الفروق» (٢: ٧٠٢).

(٢) رواه ابن منده عن «عبد الرحمن بن عائد». انظر «المطالب العالية» (١٩٦٢، ١٩٧٣).

(٣) رواه الطبراني، كما في «مجمع الزوائد» في (كتاب الجهاد) (٥: ٣٠٥).

كان المنهج النبويّ في الدعوة إلى الله المؤاخاة التكافلية بين أفراد وجماعات المجتمع المسلم، والدعوة إلى دينه الحق، ولا يمسّ فيها شيء من مال وغيره.

فإن لم يستجب المدعوون لهذه الدعوة الكريمة، ولم تهدّ فرصة النظر المتأمل قلوبهم إلى قبول الحق والهدى، وخلع ربة الوثنية من أعناقهم، فدعوة إلى الجزية والموادعة التي لا تُقيدُ بزمنٍ ما دام الوفاء بالعهد قائماً.

وهذه الجزية مشروطة بتعهد من قبّل قادة الجهاد أن يلتزموا بحماية أهل عهدهم الذين يؤدون الجزية ما دام أولئك القادة قادرين على هذه الحماية، فإن عجزوا عنها وجبّ عليهم أن يعلنوا ذلك لأهل عهدهم، وأن يردّوا ما أخذوه منهم من الجزية.

ولم يأت الإسلام بالإكراه، ولا بالسيف ولا بالقهر، إنما هو دعوة إلى الحق، وصفاء التوحيد، وإخلاص العبودية لله رب العالمين، في ظلّ الحرية الطليقة من كل قيد، والعدل والرحمة وتحمل أعباء الحماية والدفاع عن المعاهدين^(١).

* * *

(١) انظر « محمد رسول الله ﷺ » (٣: ٢٣٧ - ٢٤٠).

الرسول القائد العام ﷺ يمكن من نفسه لأخذ القود

لما عدّل الرسول ﷺ الصفوف في « غزوة بدر » تقدّم « سواد بن غزيرة » أمام الصف فدفع النبي ﷺ في بطنه فقال : استويا سوادُ . فقال : أوجعتني والذي بعثك بالحق ، أقدني^(١) ، فكشف ﷺ عن بطنه وقال : استقدّ ، فاعتنقه وقبله ، فقال : « ما حمّلك على ما صنعت ؟ » فقال : حضر من أمر الله ما قد ترى ، وخشيتُ القتْلَ ، فأردتُ أن أكونَ آخرَ عهدي بك أن يمَسَّ جلدي جلدك ، وأن أعتنقك . فدعا له بخير وقال له خيرًا .

وكان ﷺ يُسوِّي الصفوف وكأنما يقوم بها القِداح^(٢) .

وروى « عبد الرزاق » أن النبي ﷺ كان يتخطى بعُرْجونٍ فأصاب به سوادُ ابن غزيرةَ الأنصاري . فذكر القصة^(٣) .

هذه عدالته ﷺ ، وهذه أخلاقه في الحروب ، لا يستكبر ، ولا يستنكف ، ولا يتجبر ، إنه ﷺ كشف عن بطنه من دون حوار ولا جدال وهو القائد العظيم ليقصّ منه الجنديُّ الصغير ؛ لأنه أصابه بعُرْجون على بطنه فألمه ، وهو بكل ارتياح يقول ﷺ : هاك بطني فاقصّ منها . فما كان من « سواد » إلا أن اعتنق

(١) أقدني: من أفاده، أعطاه القود، وهو القصاص، واستقاد: أخذ قصاصه.

(٢) « إمتاع الأسماع » (٧٩). القداح: خشب السهام حين تُبرى وتُنحت وتُهَيَأ للرمي، وهي مما يطلب فيه أن تكون في الدقة العالية. فضرب بذلك المثل لتحرير الصفوف، وتسويتها على التمام. انظر « اللسان » (قدح).

(٣) « الإصابة » (٣: ٢١٨).

بطن النبي ﷺ وصار يقبلها . فتعانقت الأشباح ، واشرقت شمس الأفراح ،
وطربت الأرواح ، فتبارك الله الملهم الفتاح .

إنها لَحيلةٌ من ذكِيّ فطن ، يدرك كيف يستفيد من فرص الحياة ، ويتربح
أوقات قطوف الثمار .

مَنْ هذا القائدُ ؟ !

وأحسنُ منك لم ترَ قَطُ عيني وأجملُ منك لم تلِدِ النساءِ
خُلِقْتَ مُبرَأً من كلِّ عيبٍ كأنك قد خُلِقْتَ كما نشأ

ومَنْ هؤلاءِ الجُنْدُ ؟ ! وما هذه الرابطة بين القائد والجندي ؟ ! وما هذه
الحرب ؟ ! خُلِقَ من القائد تقاصر عن إدراكِ لطفهِ النسيمُ العليل ، ورقّة من
الجندي شَفَى بِنَاهته قلبه العليل .

روي عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال : بينا رسولُ الله ﷺ يقسمُ شيئاً ، إذ
أكبَّ عليه رجلٌ فطَعَنَهُ رسولُ الله ﷺ بعُرْجُونٍ كان معه ، فصاحَ الرَّجُلُ ، فقال
له رسولُ الله ﷺ : « تعالَ فاستَقِدْ » قال : بل عفوتُ يا رسولَ الله !^(١)

وروي أنه رضي الله عنه قَبْلَ وفاته عرض نفسه للقصاص قائلاً : « مَنْ كنتُ جلدتُ له
ظهرًا فهذا ظهري فليستَقِدْ منه ، وَمَنْ كنتُ شتمتُ له عرضًا فهذا عرضي فليستَقِدْ
منه ، وَمَنْ كنتُ أخذتُ له مالًا فهذا مالي فليستَقِدْ منه »^(٢) .

(١) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الديّات) (٤٥٣٦) و« النسائي » في « سننه » في
(كتاب القسامة) (٤٧٧٨) .

(٢) طرف من خطبة له رضي الله عنه رواها « الطبراني » في الكبير والأوسط ، وأبو يعلى بنحوه . ذكرها
« الهيثمي » في « مجمع الزوائد » (٩ : ٢٦) .

هذه هي شخصية الرسول القائد ﷺ يطبق العدالة والمساواة وحقوق الإنسان على نفسه أولاً، ثم على أصحابه.

وهكذا تتجلى الأخلاق العالية الرفيعة في شخص رسول الله ﷺ في أتم مظاهرها، وأكمل صورها، وأبهى حللها. وهو صاحب الكلمة المشهورة التي ذهبت كالمثل: « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعن يدها ».

وقد ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامة جِب رسول الله ﷺ.

فكلم رسول الله ﷺ فقال: « أتشفع في حد من حدود الله؟ » ثم قام فخطب فقال:

« يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »^(١).

وكان « الليث » يقول عقب هذا الحديث: « قد أعادها الله من أن تسرق » وكل مسلم ينبغي له أن يقول هذا.

أما موقفه ﷺ بعد ذلك من المخزومية فكان يرحمها ويصلها. وكانت تقول له: هل لي من توبة يا رسول الله ﷺ؟ فقال: « أنت اليوم من خطيبتك كيوم »

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الحدود) (٦٧٨٨) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الحدود) (١٦٨٨).

ولدتك أمك»^(١).

أقام النبي ﷺ الحدّ تنفيذًا لحكم الله - تعالى - ولم يحتقرها، ولم ينقص من قدرها، بل كان ﷺ يعطف عليها ويصلها.

عزّض الرسول ﷺ الإسلام على الغلام اليهودي

قال « أنس بن مالك » ﷺ: « كان غلامٌ يهوديٌّ يخدمُ النبيَّ ﷺ فَمَرِضَ فَأتاه النبيُّ ﷺ يعوّدهُ، فَفَعَدَ عندَ رأسه فقال له : « أسلمِ » فنظَرَ إلى أبيه وهو عنده فقال له : « أطعَ أبا القاسمِ ﷺ، فأسلمَ فَخَرَجَ النبيُّ ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذي أنقذه من النار »^(٢).

وفي رواية « أحمد » و« أبي داود » : « الحمد لله الذي أنقذه بي من النار ».

وفي رواية « أحمد » : « فأتاه النبيُّ ﷺ يعوّده وهو بالموت فدعاه إلى الإسلام ».

قال ابن حجر: في الحديث جواز استخدام المشرك، وعبادته إذا مرض، وفيه حسن العهد، وعرض الإسلام على الصبي، ولولا صحته منه ما عرضه عليه.

(١) « فتح الباري » (١٢: ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » في « كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يُصلّى عليه، وهل يُفرض على الصبي الإسلام؟ » و« أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجنائز - باب في عيادة الذمّي) (٣٠٩٥) و« أحمد » في « مسنده » (٣: ٢٨٠).

وزعم بعضهم أن اسم هذا الغلام « عبد القدوس » .

قال « ابن بطلال » : إنما تشرع عيادةُ المشرك إذا رُجِيَ أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا^(١).

□ أضواء على الخبر :

إنّ هذا الخبر لو تأمله نافذُ البصيرة لوقف على شعبة من حقيقة الرسول ﷺ بأنه فجرٌ أطلّ على العالم ينشر عبّقه في كلِّ رُبِّي، فإذا أقبل أدبرت الظلمة، وأضاء الزمان، وعمّ البشرُ والأمان، وتضوّع المسك في كلِّ مكان، فاستنشق نسيمَ عرّفه كلُّ إنسان سبقت له السعادة، واستعدّبت الأذان نغمة لَحْنِه، وحكمة بيانه، فمورده عذبٌ نмир، ونشره ونداه حديقة وغدير.

قال ﷺ للغلام اليهودي وهو يفارق الحياة : « أسلم » يريد الرسول ﷺ أن يقوده إلى روضة الإيمان، ونفحة الجنان . وما أَلْظَفَ قولَ القائل !

كالسَّهْمِ مُقْلَتُهُ وَالْقَوْسِ حَاجِبُهُ وَمُهْجَتِي لهما قد أَضْبَحَتْ هَدَفَا
لقد أصابت كلمة « أسلم » سويداء قلب الغلام، وتهياً لقبولها فحين أنبهرَ النور في حلكِ الظلام ولاح الخيط الأبيض وطلع الفجر قال له أبوه : « أطلع أبا القاسم » فانسابت كلمة « لا إله إلا الله وأنك رسول الله » على لسانه طواعية من غير إكراه، وتوفي من ساعته تلك، وإذا بالرسول ﷺ يستنير وجهه كأنه فَلَقَهُ قَمَرٍ وهو يقول : « الحمد لله الذي أنقذه بي من النار » .

(١) « فتح الباري » (٣ : ٢٢١) و(١٠ : ١١٩).

أجل! إنه لموقف دال على كمال الشفقة، وتمام الرحمة من رسول الهدى ﷺ.

ثم عقد أصرة الأخوة بينه وبين الصحب الكرام - رضوان الله عليهم - وحمّلهم مسؤولية العناية بجنازته، وأشار إليهم بالصلاة عليه.

وهنا نتساءل: ما الذي أفاد الرسول ﷺ من إسلام غلام خادم مريض دَيف ينتظره الموت، وهو ليس بسيد ولا برئيس ولا زعيم؟! وعلى أي شيء يكون فرحُه ﷺ؟!؟

أجل! إن هداية الناس، واستنقاذهم من دركات جهنم هي قضية الرسول ﷺ التي عاش لها، وارتبطت مشاعره بها، لذا يفرح ويحمد ربه أن بَسْرًا قد اهتدى بعد الضلال، وانزاحت عن قلبه ظلمة الغي والوبال.

إن هذه الحادثة لمشهد رائع من مشاهد العظمة الإنسانية. لقد كانت رسالة النبي ﷺ مبنية على الحكمة التي بمقدورها أن تجعل الإنسان محبًا للإنسان، وعلى الكلمة التي تنتزع من الإنسان مشاعر العداوة والبغضاء تُجاه ربه ونفسه والآخرين.

فرسولُ الله أنشودةُ التائمين، وأمنيةُ الحيارى، والمنقذُ من الضلال، وبهجة النفوس، وقوتُ القلوب، ومفتاح خزائن كنوز المعرفة. صلى الله عليه وسلم ما هبَّت النسائم، وما غرّدت على الأيك الحمام.

موقف الشريعة من قَتْلَى الكفار

إبقاء الميت في العراء مما ينفر الناس، ويوقع الضرر بالمارّة، والتأذي يحصل بمجرد بقائهم، فضلاً عما فيه من تعرض جثثهم للتفسخ، وانتشار الروائح العفنة منهم، لهذا فإن مواراتهم، وستر جثثهم واجب، لما في ذلك من المصلحة العامة، أما كون الدفن على الوجه الشرعي فليس من الضروري اتباعه بالنسبة لقتلى العدو، وإنما تُسْتَرُّ جثثهم بالتراب^(١). فهذا هو الذي يتفق مع سماحة الإسلام وتعاليمه.

ويشهد لذلك ما يأتي :

١ - قصة قَتْلَى بدر وطرحهم في القليب.

ثبت في « الصحيحين » عن ابن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ ساجدٌ وحوله ناسٌ من قريش إذ جاء عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَا جَزُورٍ فَقَذَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ، فَقَالَ: « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأُ مِنْ قَرِيشٍ: أبا جهل بن هشام، وعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ، وَأُوَيْبُ بْنُ خَلْفٍ ». قال: فلقد رأيتهم قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ فَأَلْقَوْا فِي بَيْتِرٍ، غَيْرَ أَنْ أُمِيَّةً أَوْ أُبَيًّا تَقَطَّعَتْ أَوْصَالَهُ فَلَمْ يُلْقَ فِي الْبَيْتِرِ^(٢).

٢ - ما رُوِيَ عن عكرمة أن النبي ﷺ رأى امرأةً مقتولةً بالطائف فقال :

(١) « الأحكام السلطانية » للماوردي (٥٧).

(٢) أخرجه البخاري، في صحيحه، في (كتاب الجهاد) (٢٩٣٤) و« مسلم » في صحيحه،

في (كتاب الجهاد) (١٧٩٤).

« ألم أنه عن قتل النساء؟ مَنْ صاحبُ هذه المرأة المقتولة؟ ».

قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله أردفتُها فأرادتُ أن تصرعني فتقتلني، فأمر بها رسول الله ﷺ أن توارى^(١).

وإذا طلب الأعداء استلام قتلاهم، أو عَيَّنوا شخصًا وطلبوا من المسلمين إعطاءهم جثته، فلا مانع شرعًا من تسليمه لهم.

لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلًا من المشركين قُتل يوم الأحزاب فبعث المشركون إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا بجسده، ونعطيك اثني عشر ألفًا، فقال رسول الله ﷺ: « لا خيرَ في جسده ولا في ثمنه ».

وروى « ابن عباس » أيضًا أن المسلمين أصابوا رجلًا من عظماء المشركين، فقتلوه، فسألوهم أن يشتروه فنهاهم النبي ﷺ أن يبيعوا جيفة مشرك^(٢). فأمر - عليه الصلاة والسلام - أصحابه بأن يعطوه جثته.

* * *

(١) أخرجه « البيهقي » في « السنن الكبرى » في (كتاب السير) (٩: ٨٢).

(٢) الحديثان أخرجهما « البيهقي » في « السنن الكبرى » في (كتاب السير) (٩: ١٣٣).

منهج الرسول ﷺ في سياسة الأمة وحرصه على وحدتها

روي أن بني المُضطلق اجتمعوا للحرب النَّبِيِّ ﷺ فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء من أمواهم، يقال له: المُرَيْسيع، فهزم الله - تعالى - بني المُضطلق وأمكن منهم.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أمرهم وَرَدَتْ واردةٌ من الناس تستقي الماء، وتذود الخيل والإبل، فاشتدَّ الزحام، ومع «عمر بن الخطاب» أُجِيرُ يقال له: «جَهْجَاه بن مسعود الغفاري» يقود فرسه، فازدحم جَهْجَاه و «سنان بن وَبَر الجهني»، حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتلا، فصرخ الجُهنيُّ: يا معشر الأنصار، وصرخ جَهْجَاه: يا معشر المهاجرين، فغضب «عبد الله بن أبي ابن سلول» - وعنده رَهْط من قومه فيهم: «زيد بن أرقم» غلام حدث.

فقال: «أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب^(١) قريش إلا كما قال الأول: سَمَّنْ كَلْبُكَ يَا كَلْبُكَ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لِيُخْرِجَنَّ الأعرزُ منها الأذلَّ».

ثم أقبل على مَنْ حضره من قومه، فقال لهم: «هذا ما فعلتم بأنفسكم، أخللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم».

فسمع ذلك «زيد بن أرقم»، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ

(١) جلايب قريش: لقب من كان أسلم من المهاجرين، لقبهم بذلك المشركون. وأصل الجلايب: الأزر الغلاظ، وكانوا يلتحفون بها.

رسول الله ﷺ من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمرُ بن الخطاب، فقال: مُر به «عَبَاد بن بشر» فليقتله. فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمرُ إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل» وذلك في ساعة لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى «عبدُ الله بنُ أبي سلول» إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه أن «زيد بن أرقم» قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلتُ ما قال، ولا تكلمتُ به - وكان في قومه شريفاً عظيماً - فقال مَنْ حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدّبنا على ابن أبي سلول، ودفعاً عنه.

فلما استقلّ رسولُ الله ﷺ وسار، لقيه «أسيد بن حُضير»، فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رُحّت في ساعة مُنكرة، ما كنتُ تروح في مثلها. فقال له رسولُ الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبُكم؟».

قال: أيُّ صاحبٍ يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبيّ» قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرِجَنَّ الأعرضَ منها الأذلَّ».

قال: فأنت يا رسولَ الله والله تُخرِجهُ منها إن شئتَ، هو والله الذليلُ وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظّمون له الحَرزَ ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكاً.

ثم مشى رسولُ الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى

أصبح، وَصَدَرَ يَوْمَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى آذَتْهُمُ الشَّمْسُ، ثُمَّ نَزَلَ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يَلْبِثُوا أَنْ وَجَدُوا مَسَّ الْأَرْضِ فَوْقَهُمْ نِيَامًا، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِيَشْغَلَ النَّاسَ عَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي.

ونزلت السورة كلها التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ أَمْرِهِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأُذُنِ « زَيْدِ ابْنِ أَرْقَمٍ »، ثُمَّ قَالَ: « وَفَتَّ أُذُنَكَ يَا غَلَامُ، وَصَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ »^(١).

وبلغ « عبد الله بن عبد الله بن أبي » الذي كان من أمر أبيه، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل « عبد الله بن أبي » فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه^(٢)، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل « عبد الله بن أبي » يمشي في الناس، فأقتله فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: « بل نترقق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا ». وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحديث كان قومه هم الذين يُعاتبونه ويأخذونه ويُعنفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: « كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتله يوم قلت لي: اقتله، لأرعدت له أنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ».

قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري^(٣).

(١) أخرج موجز هذه القصة « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب التفسير) (٤٩٠٠) وانظر

« السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٣٠٣) و« إمتاع الأسماع » (٢٠٠).

(٢) أورده « الهيثمي » في « مجمع الزوائد » في (كتاب المناقب) (٩: ٣١٧ - ٣١٨).

(٣) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٣٠٥).

□ تحليل الحادثة :

هذه قصة تبين منهج الرسول ﷺ في سياسة أمته، وحرصه البالغ على اتحادها وائتلافها، والحيلولة بينها وبين نزغات الشيطان، ونزوات الشهوة، ومُضلات الهوى .

تنبّهت الفتنة، وهاج هائج الشرّ، وبلّغ النبي ﷺ الخبر، وكانت له معذرة في قتل رأس النفاق والشقاق وسوء الأخلاق، ولا سيما بعد أن استأذنه الفاروق في قتله، ثم ابنته عبد الله ﷺ لما قيل له خطأ : إن النبي ﷺ يريد قتل أبيك .

لكنه ﷺ وقد آتاه الله الحكمة، وبعثه ليتّم مكارم الأخلاق سلّم ما هو حقيق به وبخير أمة أخرجت للناس . فنهى عن العصبية، وأخبر أنها خبيثة مُتنتة لا تجلب إلاّ الوبال والنكال، وخُبثُ الفِعال، وأخبر « عمر » أن قتل هذا الخبيث ليس من الخير للمسلمين، ولا للدعوة الإسلامية، فإنّ دعاة السوء سيشيعون أنّ محمداً ﷺ يقتل أصحابه، لأن « عبد الله بن أبي » كان يُظهر الإسلام والصُّحبة، ويبطن النفاق والكفر .

ثم ما أجمل أن يأمر ﷺ ابنه عبد الله - وهو من خيرة صحابته - أن يرفق بأبيه، ويحسن إليه - وقد همّ بأن يحمل رأسه إلى النبي ﷺ - حسماً للفتنة، وسبقاً إلى الطاعة، وإيثاراً لمرضاة الله ورسوله على أقرب الناس إليه وأمسهم به!

ثمّ أمر ﷺ بالرحيل في وقت لم يكن يرْتَجِلُ فيه، ليشغل كلّ بنفسه، ويلهوَ عمّا يضرُّ نار الحقد والخصام^(١) . هكذا عالج الرسول ﷺ هذه الفتنة التي

(١) انظر « من ذخائر السنة النبوية » (٢ : ٧٠٢).

أطلت برأسها .

وبهذا التصرف الحكيم دُفنت الفتنة في مهدها، وقُضِيَ عليها .

قال « محمد فوزي فيض الله » : لكنَّ ذلك كله لم يحل دون كشف هذا الموقف بعد ذلك، لينخذل النفاق، وتُخْضَد^(١) شوكة المنافقين، ويفتضح أمرهم على الملأ، فيخجل منهم أتباعهم أنفسهم، ويقعدوا عن نصرتهم، وفي ذلك هزيمتهم واندحارهم .

لقد نزلت في هذه المواقف المخزية سورة كاملة سُمِّيت بسورة المنافقين، تكذبهم في إسلامهم، وفي إيمانهم، وتقلل من أهميتهم، ولا تكثرث بأموالهم ولا بأولادهم، وتشير إلى إرجاف كبيرهم، وتعلّق على كلمته الكبيرة المهددة، وتقول : ﴿ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون: ٨) .

سورة تتلى من كتاب الله، وتحفظها الصدور، وتقرأ في الصلوات، يتوارثها المسلمون عبر الأجيال من كلام الله، خير بكثير من حرب مبيدة، على أنها حرب معنوية، وهي أشدُّ على أهل النفاق من الحرب الفتاكة ؛ لأنها فضاحة الأسرار، كشافة النوايا، وصافة الوقائع عن مشاهدة، وكفى بالله شهيداً^(٢) .

* * *

(١) تنقطع .

(٢) « صور وعبر » (٢٠٢) بتصرف .

معاملة الرسول ﷺ على ظاهر الإسلام

(١) معاملة المنافقين :

عامل رسول الله ﷺ « عبد الله بن أبي ابن سلول » ومن معه من المنافقين على الظاهر من حالهم، مع أن الله أطلعه على مكر المنافقين السيئ، وكفرهم المُبْطَن، ولكنه كان يُرسي قواعد الحكم والقضاء، لكيلا يُؤخذَ الناس بالظنَّة، فتراقَ دماؤهم، وتُبْتَرَّ أموالهم بالشكوك والأوهام.

إن القاعدة التي أرساها الرسول ﷺ هي : أن يُعاملَ الناسَ بما يبدو من حالهم مع المسلمين، فلا يزالون مسلمين، ما صَلَّوْا إلى قلوبهم، ونطقوا بشهادتهم، ولا يخرجون من الإسلام إلا أن يعلنوا كُفْراً بواحد^(١). وشؤونُ التعامل على أساس العقيدة، لا تقوم على الاستنتاج، واستبطان الضمائر، لأنه ظنون وأوهام، إنما يُترك أمر القلوب إلى علام الغيوب، إنما يقوم التعامل على ما يقدمه المرء من أدلة مادية بلسانه وأفعاله.

هذه هي القاعدة الشرعية الحكيمة التي قررها رسول الله ﷺ^(٢).

كان الرسول ﷺ يُعاملُ المنافقين معاملة حسنة ماداموا مع المسلمين في مجالسهم وصلاتهم، وقيامهم بالعبادات، مع الحيطة والحذر منهم. قال النبي ﷺ : « نحسنُ صحبته ما بقي معنا ».

(١) ظاهراً مكشوفاً.

(٢) انظر « صور وعبر » (٨٤) بتصرف.

(٢) معاملة غلاظ الطبع من المصلين :

ثبت في الصحيح عن « أبي سعيد الخدري » أنه قال : بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبية في أديم مقروط لم تحصل من ترابها : فقسّمها بين أربعة نفر : بين عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل.

فقال رجل من أصحابه : كئنا نحن أحقّ بهذا من هؤلاء . فبلغ ذلك النبي ﷺ . فقال : « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً ؟ » .

فقام رجل غائر العينين ، مشرف الوجنتين ، ناشز الجبهة ، كئ اللحية ، مخلوق الرأس ، مُشمر الإزار فقال : يا رسول الله ، اتق الله .

قال : « ويلك ! أولستُ أحقّ أهل الأرض أن يتقي الله ؟ » .

ثم ولّى الرجل . قال خالد بن الوليد : يا رسول الله ، ألا أضرب عنقه ؟ قال : « لا ، لعله أن يكون يُصلي » . فقال خالد : وكم من مُصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه ! قال رسول الله ﷺ : « إني لم أؤمر أن أنقب قلوب الناس ، ولا أشق بطونهم » .

ثم نظر إليه وهو مُقفّ فقال : « إنه يخرج من ضئضي هذا قوم يتلون كتاب الله رطبًا ، لا يُجاوز حناجرهم يَمْرُقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، وأظنه قال : لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود »^(١) .

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٣٥١).

قال ابن حجر^(١) : قوله « لعلّه » بمعنى « عسى ». قوله : « أن أنقَبَ » أي :
 إنما أمرت أن آخذ بظواهر أمورهم . و « ضِيضِي » المراد به العقب والنسل .
 وهذا الرجل هو « ذو الخُوَيْصِرَة التميمي » ، وعند أبي داود اسمه « نافع » .
 وقيل : اسمه « حرقوص بن زهير السعدي » .

واستدل بهذا الحديث على تكفير الخوارج .

وهذه القصة غير القصة الواردة في غزوة حنين . وَهَمَّ مَنْ خَلَطَهَا بِهَا^(٢) .

□ طبيعة الرسول ﷺ الرحمة بالعالمين :

« عبدُ الله بنُ أبي ابنِ سلولٍ »^(٣) رأسُ المنافقين والشقاق وسوء الأخلاق ،
 فهو يُظهر الإسلام والصُّحبة ، وَيُطنُ النفاق والكفر . والرسول ﷺ يَعْلَمُ ذلك
 علماً يقينياً ، ومع ذلك صَلَّى عليه بعد موته باعتبار الظاهر ؛ لِحَكْمِ بالغَةِ .

قال « محمد بن عبد الله دراز » : توفي عبدُ الله بنُ أبي كبيرُ المنافقين .
 فكفنه النبي ﷺ في ثوبه ، وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه ، فقال عمر رضي الله عنه :
 أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ : « إنما خَيْرَني ربي فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ
 لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ (التوبة : ٨٠) وسأزيده على
 السبعين » ، وصَلَّى عليه ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا
 وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ (التوبة : ٨٤) فترك الصلاة عليهم .

(١) في « فتح الباري » (٨ : ٦٨ - ٦٩) .

(٢) مراده : أن هذه القصة غير التي رواها « عبد الله بن مسعود » في « صحيح البخاري » (٤٣٣٦) .

انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ١٣٩) .

(٣) سلول : أم عبد الله بن أبي .

اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين^(١)، وانظر ماذا ترى؟ إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع، وقد اتخذ من القرآن دستوراً يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتُمثّل لك قلبَ هذا البشر الرحيم، وقد آنس من ظاهر^(٢) النصّ الأول تخيراً له بين طريقين فسرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة! ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النصّ بالمنع. وهكذا كلما درستَ مواقفَ الرسول ﷺ من القرآن في هذه المواطن أو غيرها تجلّى لك فيه معنى العبودية الخاضعة، ومعنى البشرية الرحيمة الرقيقة، وتجلّى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن معنى القوة التي لا تتحكم فيها البواعث والأغراض، بل تصدع بالبيان فرقاناً بين الحقّ والباطل، وميزاناً للخبيث والطيب، أحبّ الناسُ أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا، إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين. فترى بين المقامين ما بينهما. وشَتَانُ ما بين سيد ومسود، وعابد ومعبود^(٣).

* * *

(١) أخرجه البخاري «في صحيحه» في (كتاب التفسير) (٤٦٧٠) و«مسلم» في «صحيحه» في (كتاب فضائل الصحابة) (٢٥).

(٢) نقول: ظاهر النص، لأن العطف بـ (أو) يحتمل أن يكون للتسوية لا للتخيير، كما أن صيغة العدد تحتمل أن تكون للمبالغة لا للتحديد وكلاهما احتمال قوي. إلا أن معنى التخيير والتحديد آت على أصل الوضع، وعلى مقتضى كرم الطبع. فلم يعدل عنه الرسول الكريم ﷺ إلا بنص آخر.

(٣) «النبأ العظيم» (٢٩).

تحريم الرسول ﷺ قتل الكافر
بعد قوله : لا إله إلا الله

قال « أسامة بن زيد » : بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ . فَصَبَحْنَا الْحُرُقَاتِ^(١) مِنْ جُهَيْنَةَ . فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا . فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ . فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ ؟ » . قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ . قَالَ : « أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا ؟ » . فَمَا زَالَ يَكْررها عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ^(٢) .

فِي سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً بِإِمَارَةِ « غَالِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ اللَّيْثِيِّ » بَعْدَ غَزْوَةِ خَيْبَرَ ؛ لِتَأْدِيبِ بَطْنٍ مِنْ بَطُونِ جُهَيْنَةَ وَلِتَأْمِينِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَرْضِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَكَانَ فِي هَذِهِ السَّرِيَّةِ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، فَاجَأَتِ السَّرِيَّةُ الْقَوْمَ صَبَاحًا فَقَاتَلْتَهُمْ ، وَرَاعَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَوْجَعَ فِي الضَّرْبِ ، وَأَكْثَرَ مِنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَكِنْ الدَّائِرَةُ سُرْعَانَ مَا دَارَتْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَانْهَزَمُوا وَفَرُّوا !

تَعَقَّبَ « أُسَامَةُ » وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ هَذَا الْمُشْرِكَ الَّذِي قَتَلَ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَدْرَكَاهُ وَأَحَاطَا بِهِ ، فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، لِيَنْجُو مِنَ الْقَتْلِ ،

(١) الْحُرُقَاتُ: بَطُونٌ مِنْ جُهَيْنَةَ ، وَهَمْ بَنُو حُتَيْسِ بْنِ عَمْرِو بْنِ ثَعْلَبَةَ . « جَمَهْرَةُ أَنْسَابِ الْعَرَبِ » (٤٤٦) .

(٢) أَخْرَجَهُ « الْبُخَارِيُّ » فِي « صَحِيحِهِ » فِي (كِتَابِ الْمَغَازِيِّ) (٤٢٦٩) وَ « مُسْلِمٌ » فِي « صَحِيحِهِ » فِي (كِتَابِ الْإِيمَانِ) (٩٦) وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ . وَانظُرْ « جَامِعَ الْبَيَانِ » (٧ : ٣٥٨) .

وكان معلوماً مشهوراً أنَّ مَنْ قالها عصم دمه وماله، فكفَّ الأنصاريُّ عن الرجل، لكن أسامة اعتقد أنه يخادع بها لينجو من السيف، فقاتله بالسيف فاحتُمى منه، فطعنه «أسامة» برمحه حتى قضى عليه، وذهب البشير بخبر السَّرِيَّةِ إلى رسول الله ﷺ وحدثه حديث «أسامة» وقتيله.

يؤخذ من الحديث أن الأحكام يعمل فيها بالظاهر، والله يتولى السرائر^(١). وحلف «أسامة» ألا يقاتل مسلماً بعد اليوم، وجاء يومُ الفتنة، وقامت الحربُ بين عليّ وبعض المسلمين في الجمل وصفين، واستنفر «عليّ» أصحابه، ومنهم «أسامة»، لكنَّ «أسامة» أحجم عن مناصرة عليّ، لا ضناً بنفسه عن «عليّ»، ولا كراهة له، ولكنه يكره قتال المسلمين^(٢).

واقترى بأسامة في ذلك «سعد بن أبي وقاص» فكفَّ عن الدخول في الفتنة قائلاً: لا أقاتل مسلماً حتى يقاتله «أسامة». قال له أحدُ دعاة الحرب في الفتنة: أليس الله قال: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩) قال سعد: كان الدين لله، والمقاتلون اليوم يريدون بقتالهم الفتنة، وقانا الله شرّها، وَجَمَعَ الْأُمَّةَ عَلَى حَبْلِهِ الْمَتِينِ.

ما أروع سماحة الإسلام! وما أسمى قيمه وتشريعَه! كلمةٌ واحدة تعصم وتحمي الأموال، وتمحو ما تقدّم من سيئات، كلمةٌ واحدة تُجِبُّ ما قبلها، وهي كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

(١) انظر «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢: ١٠٧).

(٢) «فتح المنعم» (١: ٣٢٠).

غَضِبَ الرَّسُولُ ﷺ لِقَتْلِ مَنْ سَلَّمَ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ

لما همَّ النبي ﷺ أن يغزو أهل مكة، بعث أبا قتادة في ثمانية نفر، سرية إلى بطن إضم^(١)، ليظن ظاناً أنه ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار.

فلقوا « عامر بن الأضبط » فسلم عليهم بتحية الإسلام فقتله « مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ » فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَدَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ (النساء: ٩٤).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لقي ناساً من المسلمين رجلاً في غنيمته له فقال: السلام عليكم، فأخذه وقتلوه، وأخذوا تلك الغنيمته فنزلت: ﴿ وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ (٣).

* * *

(١) المكان الذي تجتمع فيه أودية المدينة. ويسمى عند المدينة: القنأة، ومن أعلى منها عند الشد: الشظاة. ثم ما كان أسفل ذلك يُسمى: إضمًا « القاموس » (أضم).

(٢) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (٦: ١١) عن « عبد الله بن أبي خذرد » وانظر « المواهب اللدنية » (١: ٥٥٨).

(٣) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في « كتاب التفسير » (٤٥٩١) و« مسلم » في « صحيحه » في « كتاب التفسير » (٣٠٢٠).

إنكار الرسول ﷺ على عجلة خالد في قتل بني جذيمة

سريّة « خالد بن الوليد » إلى بني جذيمة، قبيلة من عبد القيس، أسفل مكة على ليلة بناحية يلملم، في شوال سنة ثمان. وهو يوم الغميصاء.

لما رجع « خالد » من هدم العُزرى بعثه ﷺ إلى بني جذيمة، وهو ﷺ مقيم بمكة، وبعث معه ثلاث مئة وخمسين رجلاً، داعياً إلى الإسلام لا مقاتلاً، فلما انتهى إليهم قال: ما أنتم؟ قالوا: نحن مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد، وبنينا المساجد في ساحتنا. وأدنا فيها. قال: فما بال السلاح عليكم؟ فقالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة، فخفنا أن نكونوا هم، فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح. فوضعوه، فقال لهم: استأسروا... (١)

وفي البخاري: لم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا. فقال لهم: استأسروا فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكثف بعضاً، وفرقهم في أصحابه، فلما كان السحر، نادى منادي خالد: من كان معه أسير فليقتله، فقتلت بنو سليم من كان بأيديهم وكانوا قريباً من ثلاثين رجلاً، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسأراهم، وقالوا: اذهبوا حيث شئتم..

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد (٢) » وبعث

(١) « الطبقات الكبرى » (٢: ١٠٦).

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٣٣٩) وانظر « سير أعلام النبلاء »

(٢٧: ١٩٠).

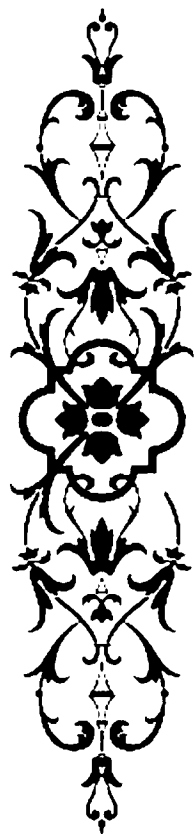
عليًا فَوَدَى قَتْلَاهُمْ.

قال الخطابي : يحتمل أن يكون نقم عليهم العدو عن لفظ الإسلام ، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ، ولم ينقادوا إلى الدين ، فقتلهم متأولاً قولهم ، وأنكر ﷺ عليه العجلة وترك الثبوت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم : صباناً^(١).

* * *

(١) انظر « فتح الباري » (٨ : ٥٧) و« إمتاع الأسماع » (٣٩٩) و« المواهب اللدنية » (١ : ٥٩٤).

المبحث العاشر
التكافل الاجتماعي



الأتقى هو الأفضل

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ (الحجرات : ١٣).

إن هذه الآية الكريمة ترسم ملامح التكافل الاجتماعي. وأن ميزان المفاضلة بين الناس يكون بالتقوى، وقد حَكَمَ - سبحانه وتعالى - بأنَّ الأكرم هو الأتقى، ولو أنه ابنُ زنجيةٍ لِعِيَّة^(١)، وأنَّ العاصي والكافر محطوطُ الدرجة، ولو أنه ابنُ نبين. وهذا هو العدلُ الإلهي^(٢).

ويشمل التكافل بين المرء ونفسه، فلا يعتدي عليها، ويدفعها إلى الخير، ويحجزها عن الشرّ، ويشمل التكافل داخلَ الأسرة وخارجها ماليًا وخلقياً في السلم والحرب بحيث يشعر كلُّ فردٍ أنه إلى جانب الحقوق التي له أنَّ عليه واجباتٍ للآخرين. وسأذكر تطبيقاً عملياً من العهد النبوي على ذلك.

الرسول ﷺ حضَّ على البذل والخير

ربِّي النبي ﷺ مجتمعه المسلم على أواصر المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي قامت على قواعد المؤاخاة الإيمانية. ففي « غزوة تبوك » حضَّ النبي ﷺ

(١) يقال: هو لِعِيَّة - بفتح الغين وكسرها - أي: ليزنية لا لنكاح صحيح، ويقال: كلمة لاغية، أي: فاحشة.

(٢) مقتبس من مقدمة « جمهرة أنساب العرب ».

على الجهادِ ورَغِبَ فيه ، وأمر بالصدقة فحُمِلَتْ صدقاتٌ كثيرةٌ .

وأوَّلُ مَنْ حَمَلَ صدقته أبو بكر الصديق ﷺ جاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل أبقيت شيئاً ؟ » قال : الله ورسوله .

وجاء عمر ﷺ بنصف ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل أبقيت شيئاً ؟ » قال : نعم ! نصف ما جئتُ به . وبلغَ عمرَ ما جاء به أبو بكر ﷺ فقال : ما استَبَقْنَا إلى خير إلا سبقني إليه .

وحمل « العباس بن عبد المطلب » ﷺ مالا يُقال : إنه تسعون ألفاً .

وحمل « طلحة بن عبيد الله » مالا . وحمل « عبد الرحمن بن عوف » مثني أوقية . وحمل « سعد بن عبادة » ، و« محمد بن مسلمة » مالا .

وتصدَّق « عاصم بن عدي » بتسعين وسقاً تمرًا .

وجَهَّز « عثمان بن عفان » ﷺ ثلثَ ذلك الجيش ، فكان من أكثرهم نفقةً ، حتى كفى ثلثَ ذلك الجيش مؤوتنهم ، حتى إن كان يُقال : ما بقيتُ له حاجة . فجاءَ بألف دينار ففرَّغها في حجرِ النبي ﷺ . فجعل يُقلِّبها ويقول ﷺ : « ما ضرَّ عثمانَ ما عملَ بعدَ اليوم » مرتين^(١) ، وقال النبي ﷺ : « اللهم ارضَ عن عثمانَ فإنني عنه راضٍ »^(٢) .

وعن « عبد الرحمن بن خباب » قال : شهدتُ النبي ﷺ وهو يُحُثُّ على جيش العسرة . فقام « عثمان بن عفان » فقال : يا رسول الله عليَّ مئةٌ بعير

(١) « إمتاع الأسماع » (٤٤٦) والحديث أخرجه « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب المناقب) (٣٧٠١) .

(٢) « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ١٦١) .

بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حضَّ على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال : يا رسول الله ، عليّ مئة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

ثم حضَّ على الجيش فقام « عثمان بن عفان » فقال : يا رسول الله عليّ ثلاث مئة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيتُ رسول الله ﷺ ينزلُ عن المنبرِ وهو يقول : « ما على عثمانَ ما عمِلَ بعدَ هذه ، ما على عثمانَ ما عملَ بعد هذه » (١) .

ورغَّب ﷺ أهلَ الغنى في الخير والمعروف ، فتبادرَ المسلمون في ذلك ، حتى إن الرجلَ ليأتي بالبعيرِ إلى الرَّجل والرَّجلين فيقول : هذا البعيرُ بينكما تعتقبانه ، ويأتي الرَّجل بالنفقة فيعطيها بعضٌ من يخرُج .

وأنت النساءُ بكل ما قدرنَ عليه ، فكنَّ يلقيَن في ثوبٍ مبسوطٍ بين يدي النبي ﷺ المسك ، والمعاضد ، والخلاجل ، والأقِرطة ، والخواتيم ، والخدمات (٢) .

هذا الموقف الكريم النبيل الذي وقفه أصحابُ رسول الله ﷺ في سرعة استجابتهم لتحقيق رغائبه الإيمانية ، وحضه على الإنفاق السخي ، والبذل الرضي في تجهيز جيش العُسرة ، والذي سبق إليه ذو النورين « عثمان بن عفان » يُعدُّ موقفًا عظيمًا في التسابق إلى الخيرات في ميدان الكرم والبذل ، والمسارة إلى مرضات إمام المسلمين رسول الله ﷺ في تأمين حاجة المقاتلين في سبيل نصره الحق والدين .

(١) أخرجه « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب المناقب) (٣٧٠٠) .

(٢) « إمتاع الأسماع » (٤٤٧) .

الرسول ﷺ يعلم أصحابه العفة

شهد « حكيم بن حزام » ﷺ غزوة حُنين، وقد أبلى فيها بلاء حسنًا، وكانت العاقبة لهم بعد أن كادت تدور الدائرة عليهم، لَمَّا أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا، وغنموا مغانم ما كانت تخطر على قلب أحد. كانت الإبل فيها أربعة وعشرين ألف رأس، وكانت الغنم أربعين ألفًا أو تزيد، وكانت الفضة أربعة آلاف أوقية، هذا عدا السَّبِي الذي مَنَّ النبي ﷺ به على هوازن لما جاؤوا تائبين، وكان ستة آلاف نفس بين امرأة وطفل.

فلما قسم النبي ﷺ الغنائم بدأ بالمؤلفة قلوبهم، ومنهم « حكيم بن حزام » أعطاه مئة من الإبل فاستزاده، فأعطاه مئة ثانية، فاستزاده فأعطاه ثالثة، لكنَّ النبي ﷺ لم يتركه على حاله تلك من الضراوة والشراهرة، بل ألقى عليه عظةً بليغة في العفة والقناعة، وضرب له مثلًا عاليًا في العزة والكرامة، وأبان له أنَّ طالب الدنيا إذا تكالب عليها كان منهومًا لا يشبع، ومغلولًا لا يُروى، وأنه « ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس »^(١).

أثر هذا الدرس في نفس « حكيم » تأثيرًا بليغًا، وآتى أوَّل ثماره، ولم يبرح « حكيم » مجلسه، فما أن كاد النبي ﷺ يفرغ من عظته البالغة حتى اكتفى « حكيم » بالمئة الأولى^(٢).

* * *

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الرقاق) (٦٤٤٦) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الزكاة) (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر « الإصابة » (٢: ١١٣).

من أخلاقه ﷺ قبول الهدية

روي أن « المُقَوِّس » أهدى إلى النبي ﷺ هديةً فقبلها .

وعن عليّ رضي الله عنه : أن « أُكَيْدِرَ دُومَةً » أهدى إلى النبي ﷺ ثوبَ حريرٍ ، فأعطاه النبي ﷺ عليًّا فقال : « شَقَّقَهُ خُمْرًا بَيْنَ النِّسْوَةِ » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أهدى الأُكَيْدِرُ إلى رسول الله ﷺ جرةً مِنْ مَنْ فَجَعَلَ يَقْسِمُهَا بَيْنَنَا^(١) .

لما أرسل « المُقَوِّس » هداياه إلى النبي ﷺ : الجاريتين ، والبغلة ، والحمار ، قبلها النبي ﷺ ولم يُسلم « المُقَوِّس » فعرفنا بذلك أن من أدب الإسلام قبول الهدايا ولو كانت من غير أهل الملة .

وفي الروايات : أن إحدى الجاريتين « سيرين » أهداها إلى « حسان بن ثابت » إذ كان شاعر الدعوة ، المشيد بها ، والذائد عنها ، والمدوي بقصائده في تمجيدها .

أما الأخرى وهي « مارية القبطية » فأصح الروايات ، أن النبي ﷺ اصطفاه لنفسه فأعتقها لما أسلمت ، وتزوجها ، وولدت له إبراهيم .

وأما البغلة فكانت نفيسة فريدة في بياضها ، بين البغال في بلاد العرب ،

(١) الأحاديث الثلاثة أخرجها « ابن أبي شيبة » في « المصنف » (١٨ : ١٢٧ ، ١٣٠) وانظر « فتح الباري » (٣ : ٣٤٥) .

وقد سمّاها باسم خاص هو : دُلْدُل . أما الحمار فسماه : يعفورًا .

ولا شك أن التسمية والإهداء والتزوّج منها ، كل ذلك يعتبر من الحفاوة بالهدية ، وإحسان التصرف فيها ، هو تكريم للمهدي .

ولعل النبي ﷺ بهذا السلوك الأدبي كان يطمع في إسلام « المُقَوِّس » وإسلام قومه فإنه قَبِلَ كتاب رسول الله ﷺ كما قَبِلَ قَيْصَرُ - هرقل - الكتاب واعترف بالنبوة ، ثم خاف من قومه فأمسك^(١) .

الحكمة في قسمة الرسول ﷺ الغنائم

قَسَمَ النبي ﷺ هذه الغنائم حيث أراه الله ﷻ فأعطى قوماً ، وَمَنَعَ آخرين ، وماز أشراف العرب ورؤساءهم في العطيّة ، فأعطاهم مئة مئة من الإبل ؛ تاليفاً لقلوبهم ، وتثبيتاً لإيمانهم ، ورغبةً في إسلام أشياعهم . ولله درُّ القائل !

إذا عُدَّ جُودُ الأَكْرَمِينَ ففَطْرَةٌ وَجُودُ أَيْدِيهِ مِنَ الغَيْثِ أَسْجَمُ
ولو أنْ مِلءَ الأَرْضِ تَبَرًا ومِثْلَهُ لأَفْنَاهُ حَقًّا جُودُهُ وَالتَّكْرُمُ

وكان من حكمته ﷺ - وقد عصمه الله من الميل والهوى - أن يُبَيِّن وَجْهَ العدل في هذه القسمة ؛ خشية أن تزلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها ، أو تزيغ قلوبٌ بعد اطمئنانها ، فيقول : « إني لأُعطي الرجلَ وأدُع الرجلَ ، والذي أدُعُ أحبُّ إليَّ من الذي أعطي ، ولكنِّي إنما أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجَزَعِ والهَلَعِ ، وأكِلُ أقوامًا إلى ما جَعَلَ اللهُ في قلوبهم من الغِنَى والخير ،

(١) انظر « إمتاع الأسماع » (٣٠٨) و « صور وعبر » (٣٤٧ - ٣٤٨) .

فيهم عمرو بن تغلب .

قال عمرو : فوالله ما أحبُّ أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ (١) !

ظهر الرسول ﷺ مجتمعه من الخيانة المالية

لما استسلمت هوازنُ يوم حنين بجموعها المهزومة، وفرَّ من رجالها من فرَّ إلى الطائف، ودخلوا مع ثقيف في حصنهم أمر رسول الله ﷺ بجمع السبي والغنائم وجعلهما في الجِعْرَانَةِ، وأقام على حراستهما، والقيام بشؤونهما « مسعود بن عمرو الغفاري ». وقيل : « بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي ».

رُوِيَ أن النبي ﷺ أخذ يوم حنين وَبْرَةً من سنام بعير من الغنائم، فجعلهما بين أَضْبَعِيْهِ ثم قال : « أيها الناس إنه لا يحلُّ لي مما أفاء الله عليكم قدرُ هذه، إلا الخُمْسُ، والخمُسُ مردودٌ عليكم، فأدوا الخِيَاطَ والمِخِيْطَ، وإِيَّاكُمْ والغُلُولَ، فَإِنَّ الغُلُولَ عَارٌ، ونَارٌ، وسَنَارٌ (٢) على أهله في الدنيا والآخرة (٣) ».

ولما سمعَ الناسُ هذا الزجرَ بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشفقوا على أنفسهم وخافوا خوفًا شديدًا.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب الجمعة) (٩٢٣).

« حُمْرُ النَّعَمِ » ساكن الميم: كرائمها، وهو مثل في كل نفيس. أما « حُمْر » بضمين فهو جمع حمار. « المصباح المنير » (حمر).

(٢) السنار: أبقح العار.

(٣) أخرجه أحمد في « مسنده » (٤: ١٢٨) و(٥: ٣١٨، ٣٣٠) و« الهيثمي » في « مجمع

الزوائد » (٥: ٣٣٨، ٣٣٩) بألفاظ متقاربة.

فجاء أنصاريٌّ بِكُبَّةٍ خيَط من خيوط شعر، فقال : يا رسول الله أخذتُ هذه الوَبْرَةَ لأخيَط بها بَرْدَعَةَ بعير لي دَبْر، فقال له ﷺ : « أَمَا حَقِّيَ مِنْهَا ، وَمَا كَانَ لِبْنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ فَهُوَ لَكَ » .

فقال الأنصاريُّ : أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها فرمى بها من يده .

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه أن « عقيل بن أبي طالب » دخل على امرأته « فاطمة بنت شيبه » يوم حنين ، وسيفه مُتَلَطِّخ دَمًا ، فقال لها : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع المنادي يقول : مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَلْيُرُدَّهُ ، حَتَّى الْخِيَاطِ وَالْمِخِيْطِ ، فَرَجَعَ عَقِيْلٌ فَأَخَذَ الْإِبْرَةَ مِنْ امْرَأَتِهِ ، فَأَلْقَاهَا فِي الْغَنَائِمِ ^(١) .

هذا التشديد في النهي عن الغُلُول ، ولو كان في شيء تافه لا يُلتفت إليه يمثل مَعْلَمًا من أهم معالم منهج رسالة الإسلام في التربية السلوكية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم في حياته العملية إيمانًا وأمانة ؛ لأن هذا النهي المتعمق في تقبيح الغُلُول إنما يقصدُ به النبيُّ ﷺ تطهير المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة ^(٢) .

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ١٣٥) و« البداية والنهاية » (٤ : ٣٥٣).

(٢) انظر « محمد رسول الله ﷺ » (٤ : ٣٨٧).

كراهية الرسول ﷺ الدعوة إلى العصبية

١- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : غَرَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ (١) مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ (٢)، فَكَسَعَ (٣) أَنْصَارِيًّا، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا. وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ. وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ.

فخرج النبي ﷺ فقال : « ما بالُ دعوى أهلِ الجاهلية ؟ » ، ثم قال : « ما شأنهم ؟ » .

فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري. فقال النبي ﷺ : « دَعُوها فَإِنَّهَا خبيثة » .

وقال عبد الله بن أبي ابن سلول : أقد تَدَاعَوْا عَلَيْنَا ؟ لئن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ . فقال عمر : أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْخَبِيثَ ؟ . فقال النبي ﷺ : « لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنْ مُحَمَّدًا كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ » (٤) .

وشدّد رسول الله ﷺ النكير على الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ونفّر من مقاتلة المسلم للمسلم حتى لقد بلغ من نكيره على من أيقظ فتنة أو دعا إليها أن

(١) ثاب : رجع، وقيل: اجتمع.

(٢) لعاب : مزاح، بصيغة المبالغة، من اللعب، وقيل: كان يلعب بالحرايب كما تصنع الحبيش.

(٣) كسعه : كمنعه، ضرب قفاه بيده أو بصدر قدمه.

(٤) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المناقب) (٣٥١٨) و« مسلم » في

« صحيحه » في (كتاب البر والصلة) (٢٥٨٤) .

تبراً منه حياً وميتاً، فقال: « ليس منا مَنْ دعا إلى عصبية، وليس منا مَنْ قاتَلَ على عصبية، وليس منا مَنْ مات على عصبية^(١) ».

وقال: « من حَمَلَ علينا السلاحَ فليس منا »^(٢).

٢- مرَّ « شَأْسُ بْنُ قَيْسٍ » اليهوديُّ بنفر من الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من إفتهم، وصلاح ذات البين بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، وكان شيخاً قد عَسَا في الجاهلية عظيمَ الكُفر، شديدَ الضُّغن على المسلمين شديدَ الحسدِ لهم، فقال: قد اجتمع مَلَأُ بنِي قَيْلَةَ^(٣) بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَأُهم بها من قرار.

وأمر شاباً يهودياً كان معه أن يذكّرهم يوم بُعث^(٤)، وينشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار - وكان يوماً اقتتلت فيه الأوسُ والخزرجُ، وكان الظَّفَرُ فيه للأوس على بني عمّهم - ففعل عدوُّ الله فعلته، فتكلّم القوم عند ذلك وتنازعوا، حتى توثبوا، وقالوا: السلاحُ السلاحُ!

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، وقال: « يا معشرَ المسلمين اللّهُ اللّهُ، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد إذ

(١) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الأدب) (٥١٢١) عن « جبير بن مطعم ».

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الديات) (٦٨٧٤) وفي (كتاب الفتن)

(٧٠٧١) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الإيمان) (٩٨) و(١٠٠) عن « ابن عمر »

و« أبي موسى » .

(٣) هي أم الأوس والخزرج، وهما في الأصل أبناء عم.

(٤) بالعين وبالغين كغراب، ويثالث، موضع بقرب المدينة « القاموس ».

هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف به بينكم تَرْجِعُونَ إلى ما كنتم عليه كفّاراً؟» .

فألقوا السلاح، وبكّوا، وعانق بعضهم بعضاً، وانصرفوا مع النبي ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله - عزّ وجلّ - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ (آل عمران: ١٠٠ - ١٠١) .

قال جابر : ما رأيت يوماً أقبحَ أولاً، وأحسنَ آخراً من ذلك اليوم^(١) .

* * *

□ تحليل الحادثة :

لقد أطلّت الفتنة برأسها، وتغيرت النفوسُ إلى أن استحلّ بعضهم دماء بعض، وتواعدوا على القتال، وكادت الفتنة تعصفُ بوحدة الصفّ المسلم في المدينة. فبادر الرسول ﷺ عند سماع هذا الخبر إلى حلّ المشكلة على النحو الآتي :

- ١ - أسرع ﷺ في العلاج قبل أن يستفحل خطرُ المشكلة، لأن التباطؤ في مواجهة المشكلة يؤدي إلى تفاقم شرّها، وصعوبة علاجها.
- ٢ - اصطحب ﷺ معه المهاجرين للإصلاح ؛ لأنّ الأوسَ والخزرجَ ينظرون إلى المهاجرين نظرةً إجلال واحترام وحبّ وتقدير ؛ لسبقهم إلى الإسلام، وإيثارهم ترك الأهل والأوطان، لصحبة الرسول ﷺ .
- ٣ - قام الرسول ﷺ بتذكيرهم بالله في تصرفاتهم القولية والفعلية .

(١) أخرجه « ابن جرير » في « جامع البيان » (٥ : ٦٢٧) .

٤ - إنَّ ما حَدَّثَ من تواعدٍ للقتال، وجنوحٍ كلِّ فريقٍ إلى قبيلته هو من دعوى الجاهلية. وجاء الإسلام ببيان خطرهما ورفضها.

٥ - ذكَّروهم الرسول ﷺ أن الله أنقذهم من الكفر، وأنعمَ عليهم بالهداية إلى الإسلام، وأن الله أكرمهم به، وأنعمَ عليهم بالوحدَة والتآلف بعد أن كانوا متخاصمين متدابرين يسفكُ بعضهم دماءَ بعض.

• بهذا التذكير الصادق، وبهذا الوعظ عاجِ الرسول ﷺ هذه الفتنة فأثَّرت ما يأتي:

- ١ - ثابوا إلى رشدهم، وعادوا إلى إفتهم ومحبتهم.
- ٢ - أدرك الأنصار أن ما حَدَّثَ هو من كيد الأعداء لتمزيق وحدتهم وإفتهم.
- ٣ - كان الحلُّ الفعليُّ أن صفت نفوسهم، وطهرت قلوبهم، وثابوا إلى رشدهم، وعلامة ذلك بكائهم على ما حدث. وكان عناقهم بمثابة الاعتذار عما علق في النفوس من رواسب الجاهلية.
- ٤ - التفاف الأنصار حول نبيهم ﷺ صفًا واحداً سامعين ومطيعين له فيما أمرهم به منتهين عما نهاهم عنه^(١).

وهكذا تحرَّكت الأحقاد، وشبَّت النيران في القلوب، وظهرت الأحقاد في أول اليوم، وما أمسى المساء حتى أطفئت وأصبحت برداً وسلاماً.

لقد قضى الرسول القائد ﷺ على هذه المشكلة بنجاح، بسداد رأي، وصواب حكمةٍ بسرعةٍ فائقةٍ. حتى كان يوماً مشهوداً.

وما أَلطفَ قولَ القائل !

أنا وليلُ الشُّركِ أليلُ حالِكِ فَجَلَى بأنوارِ الرِّشادِ الدِّياجِرا

(١) انظر « المدرسة النبوية العسكرية » (٦٢ - ٦٤).

الرسول ﷺ قائداً عاماً يتفقد قتلى أحد

قال رسول الله ﷺ: « مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ (سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ) أَفِي الْأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟ ». فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رَمَقٌ. قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظرَ أفِي الْأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟

قال: أنا في الأموات، أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خيراً ما جرى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ خُلِصَ إِلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ وَمِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ. ثم لم أبرح حتى مات. فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره^(١). وخرج رسول الله ﷺ يَلْتَمِسُ « حَمْزَةَ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بَطْنُهُ عَنِ كَبِدِهِ، وَمِثْلُ بِهِ، فَجُدِعَ أَنْفَهُ وَأَذَنَاهُ.

قال ﷺ: « لَنْ أَصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَدًا، مَا وَقَفْتُ مَوْقِفًا قَطَّ أَغِيظُ إِلَيَّ مِنْ هَذَا! »^(٢). وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان يهتم بتفقد أخبار أصحابه في المعركة، ويتألم لألمهم.

* * *

(١) أخرجه « الحاكم » في « المستدرک » (٣: ٢٠٠) بنحوه، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ١٠٠ - ١٠١) و« البداية والنهاية » (٥: ٤٢٣).

تكريم الرسول ﷺ لأبناء الشهداء

روي عن « عبد الله بن جعفر »، قال : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا^(١)، استعمل عليه « زيد بن حارثة » « فإن قُتِلَ زَيْدٌ أَوْ اسْتُشْهِدَ، فَأَمِيرُكُمْ جَعْفَرٌ، فَإِنْ قُتِلَ أَوْ اسْتُشْهِدَ فَأَمِيرُكُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ » فَلَقُوا الْعَدُوَّ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرٌ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَتَى خَبِيرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ : « إِنْ إِخْوَانُكُمْ لَقُوا الْعَدُوَّ، وَإِنْ زَيْدًا أَخَذَ الرَّايَةَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ - أَوْ اسْتُشْهِدَ - ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ - أَوْ اسْتُشْهِدَ - ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ - أَوْ اسْتُشْهِدَ - ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ، خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ ».

فَأَمْهَلَ، ثُمَّ أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرَ ثَلَاثًا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، ثُمَّ أَتَاهُمْ، فَقَالَ : « لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ، ادْعُوا إِلَيَّ ابْنِي أَخِي » فَجِيءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ، فَقَالَ : « ادْعُوا إِلَيَّ الْحَلَّاقَ » فَجِيءَ بِالْحَلَّاقِ، فَحَلَّقَ رُؤُوسَنَا، ثُمَّ قَالَ : « أَمَا مُحَمَّدٌ، فَشَبِيهُ عَمَّنَا أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَا عَبْدُ اللَّهِ، فَشَبِيهُ خُلُقِي وَخُلُقِي » ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَأَشَالَهَا^(٢)، فَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَخْلُفْ جَعْفَرًا فِي أَهْلِهِ، وَبَارِكْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي صَفْقَةِ يَمِينِهِ » قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَارٍ.

(١) في « غزوة مؤتة ».

(٢) أي: رفعها.

فجاءت أمنا، فذكرت له يُتَمَنَّا، وجعلت تُفْرِحُ^(١) له فقال: «العَيْلَةُ تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»^(٢).

ولما دنا الجيش من المدينة تلقَّاهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان ينشدون ورسول الله ﷺ مقلِّبٌ مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فَأَتَيْ بَعْدَ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ فَأَخَذَهُ فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

وفي الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرْفُوعًا: «دَخَلْتُ الْبَارِحَةَ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ»^(٣).

الْبِرُّ بِالْيَتَامَى وَعَوْلُهُمْ وَكَفَالَتُهُمْ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ تَرْكَ مَالًا فَلِلْوَرَثَةِ، وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَلِإِنَّا». وفي حديث عُذْرٍ: «فَمَنْ تَرَكَ كَلًّا وَلَيْتُهُ»^(٤).

وقال النبي ﷺ: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا» وقال بإضبعيه السبابة والوسطى^(٥).

(١) إن كانت بالحاء فهو من أفرحه: إذا غَمَّه وأزال عنه الفَرْحَ، وإن كانت بالجيم فهو من المُفْرِجِ الذي لا عشيرة له «النهاية».

(٢) أخرجه «أحمد» في مسنده (٣: ١٧٥٠).

(٣) انظر «سير أعلام النبلاء» (٢٧: ١٢٧) و«إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» (٣: ١٠٠).

(٤) أخرجه «مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الفرائض) (١٦١٩).

(٥) أخرجه «البخاري» في «صحيحه» في (كتاب الآداب) (٦٠٠٥) من حديث «سهل بن سعد» و«مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الزهد) (٢٩٨٣) من حديث «أبي هريرة» واللفظ للبخاري.

مظاهر تواضع رسول الله ﷺ

١ - الرسول ﷺ يحمل الشهيد « جُلَيْبِ » على ساعديه إلى قبره :
 ثبت في الصحيح عن أبي برزة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في مغزى له ، فأفاء
 الله عليه . فقال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نعم ، فلاناً
 وفلاناً وفلاناً . ثم قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نعم ، فلاناً وفلاناً
 وفلاناً . ثم قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : لا . قال : « لكني أفقد
 جليبياً ، فاطلبوه » فطلب في القتلى . فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ، ثم
 قتلوه . فأتى النبي ﷺ فوقف عليه . فقال : « قتل سبعة ، ثم قتلوه ، هذا مني وأنا
 منه ، وهذا مني وأنا منه » . فوضعه على ساعديه ، ليس له إلا ساعدا النبي ﷺ .
 فحفر له ، ووضع في قبره ^(١) .



رجلٌ دميمٌ الخِلْقَةُ ، قصيرُ القامة ، لا يؤبه له حضر أو غاب لكنه عند
 الله عظيم وعند رسول الله ﷺ وعند الذين ينظرون بنور الله تعالى عزيز
 عظيم ، سأله رسول الله ﷺ يوماً : لم لم تتزوج يا جليبي ؟ فقال : إذن
 تجدني يا رسول الله كاسداً في سوق الرجال .

فقال : إنك عند الله لست بكاسد ، وذكر له ابنة أنصاري ، فلما علم
 الأنصاريُّ وزوجته كأنهما كرها ذلك ، فسمعتُ ابنتهما بما أراد رسولُ الله ﷺ

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب فضائل الصحابة) (٢٤٧٢) و« أحمد » في
 « مسنده » (٤ : ٤٢٢) .

فقرأت قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب: ٣٦) ثم قالت: رضيت وسلمت لما يَرْضَى لي به رسول الله ﷺ^(١).

فدعا لها رسول الله ﷺ، وقال: « اللهم اصبب عليها الخير صببًا، ولا تجعل عيشها كدًا ». وتزوجته، وجاهد في سبيل الله وغنم وغنم وغنم، ونقله رسول الله ﷺ لبطولته.

فلما افتقده رسول الله ﷺ في نهاية غزوة^(٢). وفي تصفية مكاسبها وخسائرها سأل أصحابه سؤال توجيه وتعليم: مَنْ فقدتم من الأبطال في هذه المعركة؟ قالوا: فقدنا فلانًا وفلانًا وفلانًا، يذكرون من يُؤبَهُ لهم إذا حضروا، ويُسأل عنهم إذا غابوا. وأعاد الرسول ﷺ السؤال فذكروا فلانًا وفلانًا وفلانًا، غير مَنْ ذكروا أولًا، فكرر الرسول ﷺ السؤال فلم يذكروا فيمن ذكروا جليبيًا. فقال: أما أنا فافتقد جليبيًا، ابحثوا عنه. وقام معهم يبحث عنه بين القتلى، فوجده بين سبعة من المشركين قتلهم قبل أن يُستشهد. هكذا تكون البطولة.

وهكذا يكون الجندي المجهول، وهكذا يكون الجهاد في سبيل الله. ثم حَمَلَهُ رسول الله ﷺ على ساعديه، لم يسمح للصحابة أن يحملوه إلى قبره، بل حَمَلَهُ هو بنفسه حتى وضعه في حفرته. أما زوجته فكانت بعده من أكثر النساء مالاً ونفقةً.

مثَلُ أعلى في تكريم الأعمال قبل تكريم الهيئات والأجسام، وطوبى لعبد

(١) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٦: ٤٣٥).

(٢) لم أرَ من حدّد هذه الغزوة.

يجاهد في سبيل الله، لا يهتم بتقدير الناس إن كان في المقدمة أو إن كان في الساقة، هو يتعامل لله، ومع الله ولدين الله، رضي الله عنه وأرضاه^(١).

٢- الرسول ﷺ يوسدُ بيديه الشريفتين أحدَ الشهداء في قبره :

صدق الله - عزَّ وجلَّ - إذ وصف نبيه الكريم ﷺ بقوله: ﴿وَأَنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم : ٤). وقد أدبه ربه سبحانه بقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر : ٨٨).

كان لطيفاً رفيقاً بأصحابه، لا يتعالى على أحد، ويردِّف بعضهم خلفه، ويشرب مما يشربون منه، ويقول: « اسقوني مما يشرب منه الناس »^(٢).

ويلتمس الدعاء من عمر رضي الله عنه ويقول له: « لا تَنسَنَا من دعائك ».

وفي رواية: « أَيُّ أَخِي ! أشركنا في دعائك ولا تَنسَنَا »^(٣).

واختار العبودية على المَلَكِيَّة وقال: « بل عبداً ورسولاً »^(٤).

وكان يقول: « أَكُلُّ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ »^(٥).

ومن خُلُقِه وتواضعه ورأفته بأصحابه ما يرويه ابن إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة

(١) فتح المنعم (٩: ٤٥٤).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١: ٢١٥).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه في (كتاب الوتر) (١٤٩٨) و الترمذي في جامعته في (كتاب الدعوات) (٣٥٦٢).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢: ٢٣١).

(٥) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » في (باب ذكر صفة أخلاق رسول الله ﷺ) (١):

(٩٥) قال « العجلوني » في « كشف الخفاء » (١٥): رواه ابن سعد بسند حسن.

تبوك، قال : فرأيت شُعْلَةً من نار في ناحية العسكر، قال : فاتَّبَعْتُهَا أَنْظُرَ إِلَيْهَا ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا « عبد الله ذو البجادين المزني » قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرة، وأبو بكر وعمر يُدَلِّيَانِهِ إِلَيْهِ، وهو يقول : « أَدْنِيَا إِلَيَّ أَحَاكَمَا » فَدَلِّيَاهُ إِلَيْهِ . فلما هَيَأَ لَشِقْهِ، قال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ رَاضِيًا عَنْهُ فَارْضَ عَنْهُ » .

قال « ابن مسعود » : يا ليتني كنت صاحب الحفرة^(١) .

هذا برُّ النبي ﷺ بصحابته وتكريمه لهم في حياتهم وبعد مماتهم .

وقال ابن هشام^(٢) : إنما سُمِّيَ ذا البجادين ، لأنه كان يَنَازِعُ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فيمنعه قومُه من ذلك ، وَيُضَيِّقُونَ عَلَيْهِ ، حتى تركوه في بَجَادٍ^(٣) ، ليس عليه غيره ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فلما كان قريبًا منه شَقَّ بِجَادَهُ بَاطْنَيْنِ ، فَاتَّزَرَ بِوَاحِدٍ وَاشْتَمَلَ بِالْآخَرِ ، ثم أتى رسولَ الله ﷺ فقيل له : ذُو الْبِجَادَيْنِ ، لذلك .

لقد عُجِنَتْ طِينَةُ النَّبِيِّ ﷺ بماء العبودية، وتآخَتْ طَبِيعَتُهُ بِالْخُضُوعِ لِرَبِّ الْبَرِيَةِ . والله - تعالى - أَعْلَمُنَا بِتَرْكِيَةِ جَمَلَتِهِ ﷺ ، وَعَصَمْتَهَا مِنَ الْآفَاتِ ، فَزَكَّى قَلْبَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (النجم : ١١) وَزَكَّى لِسَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ (النجم : ٣) وَزَكَّى بَصْرَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (النجم : ١٧)^(٤) .

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ١٧١) و« صور وعبر » (٤٧١) .

(٢) في « السيرة النبوية » (٤ : ١٧٢) .

(٣) البجاد : الكساء الغليظ الجافي .

(٤) انظر « الشفا » (١ : ٣٨) .

٣- الرسول ﷺ لا يحبُّ أن يتميَّز على أصحابه :

روي عن « عبد الله بن مسعود » قال : كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلِّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ ، وَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، زَمِيلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَكَانَتْ عُقْبَةُ^(١) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . فَقَالَا : نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ ، فَقَالَ : « مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي ، وَلَا أَنَا بِأَعْنَى عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا »^(٢) .

وهذا من تواضعه ﷺ . فهو على علوِّ منصبه ، ورفعة رتبته أشدُّ الناس تواضعًا . فقد كان ﷺ يجلس بين أصحابه حيث انتهى به المجلس^(٣) .

وروي أنه ﷺ حفر مع أصحابه في الخندق .

ومن شِدَّةِ اجتهاده ﷺ في العَمَلِ كان يضربُ مرةً بالمِعْوَلِ ومرةً بالمِسْحَاةِ يَغْرِفُ بِهَا التُّرَابَ ، ومرةً يَحْمِلُ التُّرَابَ فِي المِكْتَلِ . وَبَلَغَ يَوْمًا مِنْهُ التَّعَبُ مَبْلَغًا فَجَلَسَ ، ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَى حَجَرٍ بِشَقِّهِ الْأَيْسَرِ فَنَامَ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَأْسِهِ يَمْنَعَانِ النَّاسَ أَنْ يَمْرُؤَا بِهِ فَيُنْبَهُوهُ ، ثُمَّ فَزَعَ وَوَثَبَ فَقَالَ : أَلَا أَفْرَعْتُمُونِي ! وَأَخَذَ الْكَرْزِينَ^(٤) يَضْرِبُ بِهِ وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ^(٥) .

وهكذا تَظْهَرُ فِي أَخْلَاقِهِ ﷺ رُوحُ المِساوَاةِ بَيْنَ المِسلِمِينَ فَكَانَ يَطْبِقُ المِساوَاةَ عَلَى نَفْسِهِ فَعَلًّا قَبْلَ أَنْ يَصْدُرَهَا لِلنَّاسِ شَرْعًا وَحِكْمًا ، وَبِذَلِكَ تَرْتَفِعُ

(١) أي: نوبة نزوله ومشيه.

(٢) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (١ : ٤١١).

(٣) انظر « الشفا » (١ : ١٣١).

(٤) أي: فأس كبير.

(٥) « إمتاع الأسماع » (٢٢٥).

معنويات أصحابه، ويدخل السرور عليهم.

٤ - الرسول ﷺ يشارك أصحابه في إنشاد الشعر في الحرب :

إن للشعر تأثيراً في تحريك النفوس للحرب والسلام^(١). وقد كان أصحاب النبي ﷺ يرتجزون في حفر الخندق ويشاركهم النبي ﷺ وفي خيبر وغيرهما.

فمن الأحاديث في ذلك ما يأتي :

١ - حديث أنس رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم.

فلما رأى ما بهم من النَّصبِ والجوع قال : « اللهم إن العيشَ عيشُ الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وفي لفظ آخر قال : جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون الترابَ على متونهم وهم يقولون :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم : « اللهم إنه لا خيرَ إلا خيراً الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة »^(٢).

(١) انظر « مجموع الفتاوى » (٢٨: ٦٥٠، ٦٥١).

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٠٩٩) و(٤١٠٠) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٨٠٥).

قوله « فلما رأى ما بهم من النصب والجوع » بيان لسبب قوله ﷺ : « اللهم إن العيش عيشُ الآخرة » .

هكذا كانت حياة الرسول ﷺ وأصحابه، قسوة في العيش، وشظفًا في الحياة، وقلة في الطعام والشراب، يُطَبِّخُ لهم قليلٌ من الشعير مع دسم . . . لكن أرواحهم مشرقة في حبورٍ وسرور . وكان الرسول ﷺ يسليهم بصحبة شخصه الكريم، وأخلاقه العظيمة، ووَعظُه في نشيده، وكلماته الرقيقة، وكانوا يجيئون به بأصوات عذبة، ملؤها الحبُّ والنعيمُ، وهو ﷺ يقول : « إن العيشَ عيشُ الآخرة » ويستغفر الله لهم : « فاغفرْ للأنصار والمهاجرة » .

وما أَلْطَفَ قولَ القائل !

كأنكم في بقاع الأرض أمطارُ	تحيا بكم كلُّ أرضٍ تنزلون بها
كأنكم في عيون الناس أزهارُ	وتشتهي العينُ فيكم منظرًا حسنًا
كأنكم في ظلامِ الليلِ أقمارُ	ونورُكم يهتدي السَّاري برؤيته
يامنْ لكم في الحشا والقلب أنوارُ	لا أوحشُ اللهَ صخبًا من إقامتكم

٢ - حديث « البراء بن عازب » رضي الله عنه قال : « لما كان يومُ الأحزاب، وخذق رسولُ الله ﷺ، رأيتُه ينقلُ من تراب الخندق، حتى وارى عني الترابُ جلدةً بطنه - وكان كثيرَ الشَّعر - فسمعتُه يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب يقول :

ولا تصدقنا ولا صلينا	اللهم لولا أنت ما اهتدينا
وثبت الأقدام إن لا فينا	فأنزلن سكينه علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا	إن الألى قد بغوا علينا

قال : ثم يمد صوته بآخرها « وفي رواية : ويرفع صوته : « أَيْنَا أَيْنَا »^(١) .



□ تصوير هذا المشهد :

رجال الخندق فريقان :

الفريق الأول : يمثله الرسول الكريم ، صلوات ربي وسلامه عليه .

والفريق الثاني : يمثله صَحْبُه الكرام من مهاجرين وأنصار - رضوان الله عليهم - تجمعهم روح المحبة والأخوة الصادقة . وإن شئت فقل : يمثله جندُ الله كتائبُ الخندق .

- يرتجز الفريق الأول بكلمات ابن رواحة وَيَمْدُ صوته : (أَيْنَا أَيْنَا) وهو ينقل التراب، ويعلوه الجمال والجلال مكللاً بتاج الكمال، بصوتٍ مطربٍ مع بَحْحِ شجِي حَانٍ، ونغمةٍ حلوةٍ ساحرة - صلوات ربي وسلامه عليه - ويُجاوبه الفريق الثاني بأصواتهم العذبة التي هي كمزامير داود بقولهم :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

إنه لمشهدٌ عظيم، يزهو الكونُ بنشيدِ إيمانهم، وتصدحُ أصداءُ أنغامهم في

(١) أخرجه البخاري « في صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤١٠٤) و(٤١٠٦) وه مسلم « في صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٨٠٣) وه ابن أبي شيبة « في المصنف » في (كتاب المغازي) (٢٥٧ - ٢٥٨) وانظر « فتح الباري » (٦ : ١٦٠).

القلوب اليقظة الوالهة على مدى الأزمان، إنهم الصَّحْبُ حَوْلَ حَبِيبِ اللَّهِ ورسوله ﷺ.

وقد جمعهم الإيمان الكامل، والإخاء الصادق، وغمرتهم أريحية الصحبة، وامتألت قلوبهم بنشوة الحب لقائدهم الأعلى رسول الله ﷺ.

يتحركون بجسد واحد، يحفرون بقوة وصلابة، وينقلون التراب على ظهورهم من غير كلل ولا ملل. إنها صورة رائعة من صور التلاحم والحب بين الجند والقائد، إنها لوحة فنية سجلتها عدسة الوجود، ونقلتها إلينا بصدق وأمانة.

٣- روى ابن إسحاق عن « نصر بن ذهر الأسلمي » : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع : انزل يا ابن الأكوع، فخذ لنا من هَنَاتِكَ، قال : فنزلَ يرتجز برسول الله ﷺ فقال :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
إنا إذا قومٌ بغوا علينا وإن أرادوا فتنةً أبينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبَّت الأقدامَ إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ : « يرحمك الله » ، فقال عمر بن الخطاب : وَجِبَتْ والله يا رسول الله، لو أمتعتنا به^(١)! فقتل يوم خيبر شهيداً، وكان قتله، فيما بلغني، أن سيفه رجع عليه وهو يُقاتل، فكلمه كَلِّمًا شديدًا، فمات منه، فكان

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي - باب غزوة خيبر) (٤١٩٦) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٨٠٢) و« ابن هشام » في « السيرة النبوية » (٣: ٣٤٢).

المسلمون قد شكوا فيه، وقالوا: إنما قتله سلاحه، حتى سأل ابنُ أخيه سلمةُ ابنُ عمرو بن الأكواع رسولَ الله ﷺ عن ذلك، وأخبره بقول الناس، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنه لشهيدٌ» وصلَّى عليه، فصلَّى عليه المسلمون.

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «مات جاهداً مجاهداً».

٤ - لما دنا رسولُ الله ﷺ من المدينة خرج الناس كلهم لاستقباله، ولو استطاعت لفرشتُ له الطريق بقطع أكبادها، حتى يمشي على قلوبها، وخرج النساءُ والصبيان والولائد يُعبِرنَ عن فرحتهنَّ ويقلنَ:

طَلَعَ البدرُ علينا من ثنِيَّاتِ الوَدَاعِ
وَجَبَّ الشُّكْرُ علينا ما دعا لله داع^(١)
أَيْهَا المبعوثُ فينا جئتَ بالأمر المطاعِ

وقالت جوارٍ من بني النَّجَّارِ وهنَّ يضرِبْنَ بالدُفوفِ حينَ قدومه ﷺ المدينة:

نحنُ جوارٍ من بني النَّجَّازِ يا حَبْدًا محمَّدُ مِن جازِ
فوجهه ﷺ المشرقُ بالأنوارِ، والفياضُ بالمعاني والأسرارِ، دليلٌ ساطع
وبرهان قاطع، على أنه رسول الله حقًا وصدقًا.

وما أَلطفَ قولَ عبدِ الله بنِ رواحة!

(١) « زاد المعاد » (٣: ٥٥١). وفي « الرحيق المختوم » (٢٠٤): ذكر « ابن القيم » أن إنشاد هذه الأشعار كان عند مرجعه ﷺ من تبوك، وَوَهَّم من يقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة. « زاد المعاد » لكنَّ « ابن القيم » لم يأتِ على هذا التوهيم بدليل يشفي، وقد رجح العلامة المنصور الفوري أن ذلك كان عند مقدمه المدينة. ومعه دلائل لا يمكن رُدّها. انظر « رحمة للعالمين » (١: ١٠٦).

رُوحي الفداء لمن أخلاقه شَهِدَتْ بأنه خيرُ مولودٍ من البَشْرِ
 عمَّت فضائله كلَّ العبادِ كما عمَّ البريئةُ ضوءَ الشمسِ والقمرِ
 لو لم تكن فيه آياتٌ مُبَيَّنَةٌ كانت بديهته تُغني عن الخَبْرِ
 وأقبل الأنصارُ يدعونه لينزل فيهم، يتسابقون على هذا الشرف الخالد .
 فماذا فعل؟

انظر إلى لطفه وحكمته، إنه لا يريد أن يؤذي أحداً بالرفض، ولا يريد أن
 يميز أحداً على أحد فقال ﷺ: « اتركوا الناقةَ فإنها مأمورةٌ » وسارتِ الناقةُ
 حتى بركت عند دار أبي أيوب رضي الله عنه.

ثم عاش الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ بالشدة والرخاء على المرح
 متسرلين بجلباب الأدب، والفضل لا يلبس غيرَ جلبابه، والنبي ﷺ إذا نزل
 بناذ ارتحلت الهموم، وحلَّ السرورُ. ولله درُّ القائل!
 قد أسَرَ القلوبَ جيشُ حُسنِهِ وانتَهَبَ الألبابَ لما أن رَنا

لطف الرسول ﷺ مع الأنصار. وحكمته في معاملتهم

ثبت في الصحيح عن « أنس بن مالك » أن أناساً من الأنصار قالوا يوم حنين، حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء. فظفّق رسول الله ﷺ يُعطي رجالاً من قريش المئة من الإبل.

فقالوا : يغفرُ اللهُ لرسول الله، يُعطي قريشاً ويتركنا وسُيوفنا تقطُرُ من دمائهم !

قال أنس بن مالك فحدّث ذلك رسولُ الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى الأنصار، فجَمَعَهُم في قبة من آدم^(١)، فلما اجتمعوا جاءهم رسولُ الله ﷺ. فقال : « ما حدّيتُ بلغني عنكم ؟ ». فقال له فقهاءُ الأنصار : أما ذُوو رأينا، يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناسٌ منّا حدّيتُهُ أسنانهم، قالوا : يغفرُ اللهُ لرسوله، يُعطي قريشاً ويتركنا، وسُيوفنا تقطُرُ من دمائهم !

فقال رسولُ الله ﷺ : « فإني أُعطي رجالاً حدّيتي عهدٍ بكُفْرٍ، أتألّفُهُم، أفلا ترَضُون أن يذهبَ الناسُ بالأموال، وترجعون إلى رحالكم^(٢) برسولِ الله؟ فواللهِ لَمَّا تَنقَلِبُونَ به خيرٌ مما ينقلبون به » .

فقالوا : بلى، يا رسولَ الله، قد رَضينا.

(١) من آدم : من جلود ، وهو جمع أديم، بمعنى الجلد المدبوغ.

(٢) مازلکم.

قال : « فإنكم ستجدون أثره شديدة^(١) ، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ، فإنني على الحوض . قالوا : سنصبر .

وعن « أنس بن مالك » أيضًا قال : جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال : « أفیکم أحد من غيرکم ؟ » فقالوا : لا ، إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن ابن أخت القوم منهم » فقال : « إن قريشًا حديث عهد بجاهلية ومصيبة ، وإني أردت أن أجبرهم وأنالفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا ، وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو سلك الناس واديًا ، وسلك الأنصار شعبة^(٢) ، لسلكت شعب الأنصار^(٣) .

وعن « أبي سعيد الخدري » قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد^(٤) هذا الحي من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قاتل قائلهم : لقي^(٥) رسول الله ﷺ قومه ، فدخل عليه « سعد بن عبادة » فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار شيء .

قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ » قال : يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ

(١) أي: يفضل عليكم غيركم بغير حق.

(٢) ما انفرج بين جبلين، أو الطريق في الجبل.

(٣) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٣٣١) و(٤٣٣٧) و« مسلم » في

« صحيحه » في (كتاب الزكاة) (١٠٥٩) واللفظ لمسلم.

(٤) وجد، ووجد، يجد، ويجد، وجدًا، وجدةً، وموجدةً: غضب وحزن « القاموس » (وجد).

(٥) أي: فمال إليهم و أعرض عنا.

من قومي؟ قال: « فاجتمع لي قومك في هذه الحظيرة ».

فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم، فلما اجتمعوا أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار.

فأتاهم رسول الله ﷺ فَحَمِدَ الله، وأثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم قال: « يا معشر الأنصار، ما قاله بلغتنى عنكم، وَجِدَّةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلْفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ ».

قالوا: بلى الله ورسوله أمن وأفضل. قال: « ألا تُجيبونني^(١) يا معشر الأنصار؟ ».

قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولسوله المن والفضل. قال: « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فأويناك، وعائلاً فأسيناك، أو جدتكم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة^(٢) من الدنيا تألفتُ بها قومًا يُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم؟ فوالذي نفسي محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء

(١) يريد أن يوضح أنه ما نسي إحسانهم، وأن ما فعل من إثارة غيرهم بالأموال ليس مبيتًا على النسيان.

(٢) الجرعة من الشراب، والمراد الشيء اليسير، والقدر القليل.

الأنصار». فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسْمًا وَحَقًّا.

ثم انصرف رسولُ الله ﷺ، وتفرَّقوا^(١). ولله درُّ القائل!:

الشمسُ تشبهُهُ، والبدرُ يحكيهِ والدُّرُّ يضحكُ والمرجانُ من فيه
ومَنْ سَرَى وظلامُ الليلِ معتكِرٌ فوجهُهُ عن ضياءِ البدرِ يُغنيهِ

* * *

إنَّ ألفاظه ﷺ تسلب العقولَ والألبابَ؛ لأنها أرقُّ من دمع السحاب.

معنى (لم يعطِ الأنصارَ شيئاً) أنه لم يعطِ الأنصارَ شيئاً من أصل الغنيمة، لا من الخمس الذي أعطى منه المؤلفَةَ قلوبُهم.

قال العلماء: وسببه أنهم كانوا انهزموا، فلم يرجعوا إلا وقد انهزم الكفار، فردَّ الله أمر الغنيمة إلى نبيه ﷺ، ففعل فيها ما فعل للتأليف، ووكلَ الأنصار إلى إيمانهم. والله أعلم^(٢).

وفي هذا عدالةُ النبي ﷺ في توزيع الغنائم، وحكمةُ بالغة من حِكمه ﷺ البالغة.

* * *

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٧: ٣) و ابن أبي شيبة في المصنف (٢٠: ٥٢٨).

(٢) انظر فتح الباري (٨: ٤٩) و حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (٣٩٢).

□ تحليل الحادثة :

إنّ الباعث على اعتراض الأنصار أنّ لهم حقاً في هذه الغنائم ، وحينما يحرمون من الغنائم يثار سؤال : هل حدث هناك تغير في العلاقة والمودة بين الرسول ﷺ والأنصار؟

• قام الرسول ﷺ بمعالجة هذه المشكلة على النحو الآتي :

١ - أسرع الرسول ﷺ في التصديّ لحلّ سماع الخبر ؛ لأن على القيادة الحكيمة إذا علمت بوجود مشكلة في صفوف أفرادها أن تبادر على الفور بدراسة هذه المشكلة ، بمعرفة أسبابها ، وبواعثها ، ثم تقوم بتقديم العلاج الناجح بسرعة لكيلا يستفحل ضررها ، فيصعب بعد ذلك علاجها وعند ذلك يتسع الرتق على الراتق .

٢ - الصحابةُ بشرٌ ، ومنهم الأنصارُ ، والبشرُ يعترتهم الغضبُ والرضا . و« سعد بن عبادة » - زعيم الخزرج القبيلة الكبرى في المدينة - كان لمبادرته بإعلام الرسول ﷺ بموقف الأنصار خيرٌ وبركةً ، إذ قطعت سبيلَ الشيطان على نفوس الأنصار ، وحصّنت الجماعة المسلمة ، إذ ترتب على هذه المبادرة العلاج الحكيم من الرسول ﷺ .

٣ - إنما أراد « سعد بن عبادة » من قوله : (ما أنا إلا رجلٌ من قومي) أن يستطلع لقومه حكمة السياسة النبوية في هذا التصرف ليُظهِرَهُم على السبب الذي لأجله تصرف الرسول ﷺ فيما أفاء الله عليه وعلى المسلمين من غنائم هوازن .

كما أنّ في قوله منتهى الصدق والصراحة ؛ إذ كان ظاهره كباطنه ، فهو يشاطر الأنصار في ألمهم وعتبهم ، ويودّ تدارك الأمر والعلاج .

٤ - أمر الرسول ﷺ « سعد بن عبادة » ﷺ أن يجمع قومه ؛ ليلتقي بهم .

وفي هذا دلالة على مكانته عند النبي ﷺ، ومكانته في نفوس الأنصار.
 ٥ - إعلام الرسول ﷺ الأنصار بمقياسه الذي اعتمده في توزيع الغنائم، إذ أعطى ضعاف الإيمان؛ ليقوي إيمانهم، ووكل أقوياء الإيمان إلى إيمانهم فلم يعطهم.

٦ - الحوار بصراحة، والاعتراف لأهل الفضل بالفضل، فذكر الرسول ﷺ فضل الأنصار وجهادهم وبذلهم من أجل الدفاع عن الرسول ﷺ ودعوته.

كما بين لهم فضل هذا الدين عليهم من هداية بعد ضلال، وغنى بعد فقر، ومن تأليف للقلوب بعد عداوة.

٧ - إعلان الرسول ﷺ أنه معهم، ولن يتخلى عنهم، وأنه لولا الهجرة لكان أمراً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلك شعب الأنصار. ثم ختم ﷺ حواره بالدعاء لهم: اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار^(١).

٨ - لقد تأثر الأنصار ذوو العواطف الجياشة، ورقت قلوبهم الطيبة، وسارعوا بالاستجابة لكلام الرسول ﷺ النابع من القلب الرحيم، فصادف مكانه في قلوبهم، وفاضت دُررُ مدامع أمانيهم تبوح بما تمكّن في الأحشاء من صدق الحب. وكان هذا التدرج في العلاج ناجحاً يُعلمُ القادة كيف تُعالج النفوس، ويُزأبُ الصدغ.
 ولقد أجاد مَنْ قال:

أولئك الصَّحْبُ سادوا في الغلا وبنوا بيتاً من المجد فوق الأنجم الزهر
 مَنْ ذا يُناظرهم أو مَنْ يُشابههم أو مَنْ يُشاكلهم في أحسن السير

(١) انظر «المدرسة النبوية العسكرية» (٥٧ - ٦٠).

فازوا بصحبة خيرِ الخلقِ كلِّهمِ فأخزروا قَصَباتِ السَّبِقِ والظَّفْرِ

حلم الرسول ﷺ وصبره على جفاة الأعراب

اشْرَأَبَتِ الْأَعْنَاقُ إِلَى غَنَائِمِ حَنِينٍ، وارتفعت الأبصارُ نحوها، وتعلقت الأعراب برسول الله ﷺ يسألونه حتى اضطروه إلى سَمْرَةَ^(١) خِطَفَتْ رِداءه.

ثبت في الصحيح عن «جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ» أنه بينا هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناسُ مقبلًا من حُنَيْنٍ عَلِقَتْ رِسْوَلُ اللَّهِ ﷺ الْأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوه إِلَى سَمْرَةَ فَخِطَفَتْ رِداءه، فوقف رسولُ الله ﷺ فقال: «أعطوني رِدائي، فلو كان عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاءِ نَعْمًا^(٢) لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونَنِي بِخِيَلًا وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا».

وعن «أنس بن مالك» رضي الله عنه قال: «كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظٌ الْحَاشِيَةُ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّداءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرُّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعِطَاءٍ».

وعن «عبد الله بن مسعود» رضي الله عنه قال: «لما كان يومُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَناسًا فِي الْقِسْمَةِ: فَأَعْطَى «الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ» مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى «عُيَيْنَةَ»

(١) هي شجرة طويلة متفرقة الرأس، قليلة الظل، صغيرة الورق والشوك، صلبة الخشب. «فتح

الباري» (٦: ٢٥٤).

(٢) المفرد الغضة، من شجر البوادي الشائكة. والتَّعَمُّ: الإبل، وأَعْرُها عندهم الحمراء.

مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب فأثرهم يومئذ في القسمة.

قال رجل : والله إن هذه القسمة ما عُدِلَ فيها، وما أريد بها وجهُ الله .

فقلت : والله لأخبرنَّ النبيَّ ﷺ فأتيته فأخبرته، فقال : « فمن يعدلُ إذا لم يعدلِ الله ورسوله ؟ رَجَمَ اللهُ موسى قد أُوذِيَ بأكثرَ من هذا فصبرَ »^(١).

قال : ابن حجر: يتضح من هذه الأحاديث ما كان في النبي ﷺ من الحلم، وحسن الخلق، وسعة الجود، والصبر على جفأة الأعراب^(٢).

لم ترَ العيونُ، بل لم تسمع الآذانُ أرقَّ لطفًا من رسول الله ﷺ، وكان يبادلُ الإساءة بالابتسامه، والأذية بالعطية ﷺ.

ملاطفة الرسول ﷺ لـ «عُتْبَةَ، ومُعْتَبِ، ابْنَيْ أَبِي لَهَبٍ

أخرج ابن سعد^(٣) عن العباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح قال لي : « يا عباس، أين ابنا أخيك (عتبة) و(مُعْتَبِ) لأراهما ؟ ».

فقلت : تنحياً مع مَنْ تنحى من مشركي قريش . قال : « اذهب فائتني بهما ».

(١) الأحاديث الثلاثة أخرجهما البخاري في « صحيحه » في (كتاب فرض الخمس) (٣١٤٨) و(٣١٤٩) و(٣١٥٠) وحديث « عبد الله بن مسعود » أخرجه في (كتاب المغازي) (٤٣٣٦) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الزكاة) (١٠٦٢) والرجل هو « مُعْتَبِ بن قُشَيْر » من الأوس. قيل: كان منافقًا، وقيل: إنه تاب. انظر « الإصابة » (٦: ١٧٥) و« المواهب اللدنية » (٦١٣: ١).

(٢) « فتح الباري » (٦: ٢٥٤).

(٣) في « الطبقات الكبرى » (٤: ٤١ - ٤٢).

قال : فركبت إلى عرفة فأتيتهما، فقلت : إن رسول الله ﷺ يدعوكما . فركبا معي سريعين ، فدعاهما إلى الإسلام ، فأسلما وبايعا ، ثم أخذ بأيديهما وانطلق بهما يمشي بينهما حتى أتى بهما الملتزم^(١) . فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يُرى في وجهه .

قال « العباس » : فقلت له : سرَّك الله يا رسول الله فإنني أرى في وجهك السرور .

فقال النبي ﷺ : « إني استوهبتُ ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي » .

وأخرج الطبراني من وجه آخر إلى علي أن النبي ﷺ دخل يوم الفتح بين عتبة ومُعْتَب يقول للناس : « هذان أخواي وابنا عمي » فرحًا بإسلامهما ، استوهبتهما من الله فوهبهما لي . ويجمع بأنه دخل المسجد بينهما بعد أن أحضرهما العباس .

وقال الزبير بن بكار : إنهما شهدا حينًا مع رسول الله ﷺ^(٢) وكانا ممن ثبت . وأقاما بمكة .

* * *

(١) وهو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود.

(٢) « الإصابة » (٤ : ٤٤٠) و(٦ : ١٧٥).

الرسول ﷺ داع إلى الله، ولا يزيده النصر إلا تواضعاً لله

لما أشرف النبي العظيم ﷺ على البلد الأمين، الذي أخرج منه قبل ثمان سنين، وقد استسلم له أهله لم يُزههِ النصرُ اليقين، ولم يستخفهُ الفتحُ المبين. لقد أيد الله رسوله، وأتم له رسالته ومكّن له أمّ القرى تمكيناً، فضلاً منه - تعالى - ونعمةً، فاستحق الشكر الجزيل والحمد المطلق الجليل، والتجمل بحال العبودية المثلى لرب العالمين، وكذلك كان على النحو الآتي :

- ١ - دخل النبي ﷺ أمّ القرى متعمماً بعمامة حمراء بسيطة، لفها مقدار نصف ثوب يماني، سلبت الجنان، وأردف خلفه أسامة، على ناقته القصواء.
- ٢ - حتى رأسه تواضعاً لله -تعالى- الذي أتمّ عليه نعمته. أكرم به من أواه! وبالغ في الانحناء حتى إن لحيته لتكاد تمسّ واسطة رحله^(١). أحسن به من صبّ مستهام!
- ٣ - قرأ سورة الفتح، قراءةً وترتيلاً وترجيحاً^(٢)؛ استشعاراً لنعمة الله بالفتح المبين، وغفران الذنب كله، وإضافة النصر العزيز عليه.
- ٤ - نهى عن القتال لهؤلاء الذين قاتلوه سنين طويلاً، ولما عَلِمَ أن خالداً قاتل لَمَّا قُوتل، لم يزد على قولته : قضاء الله خيرٌ.
- ٥ - أنكر على « سعد بن عبادة » سيّد الخزرج لما استخفه الظفر، فقال : « اليومُ يومُ الملحمة، اليومُ أذلّ الله قريشاً » فأمر فزعت منه الراية،

(١) انظر « المواهب اللدنية » (١ : ٥٧٥).

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٢٨١) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب صلاة المسافرين) (٧٩٤).

وقال : « بل اليوم يومٌ تُعظَّمُ فيه الكعبة ، اليومُ يومٌ أعزَّ الله فيه قريشاً » .
 له ﷺ سجيّة بالمعروف معروفة ، وبالمنن الوافرة موصوفة .
 فالنصر في شريعة نبينا ﷺ ليس الانتصار على العدو ، ولا الاستحواذ
 على نواصيه ، بل النصر أن يُعزَّ دينُ الله ، ويؤمنَ به الناس ، وتدينَ به
 البشرية .

٦ - كَسَرَ الأوثان خارج الكعبة وداخلها ، وعددها ثلاثُ مئةٍ وستون
 صنماً ، وهو ﷺ يقول : ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَرَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
 زَهُوقًا ﴾ (الإسراء : ٨١) فجعلت تهوي من غير أن يمسه^(١) .

٧ - رَفَعَ النبي ﷺ بلاً ليوذن فوق الكعبة ، فأعلن الأذان بصوته الندبي الشجي
 فصدحت ألحان التوحيد في الأرجاء ، فتمايلت الأغصان ، وخشعت
 الجبال ، وطربت السماء من نشيد الإيمان ، ثم طاف ﷺ وصلّى حامداً
 وشاكراً .

٨ - خطب خطبة حافلة بالأحكام والمآثر ، استهلها بقوله : « لا إله إلا الله
 وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب
 وحده »^(٢) .

مواقف ومشاهد كلها تنضح بالعبودية لله ، والإخلاص المطلق له .

وهدفه الوحيد تبليغ الإسلام ، وقيامُ الناس بالعبودية لله رب العالمين .

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٢٨٧) و « مسلم » في
 « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٧٨١) و « أبو نعيم » في « دلائل النبوة » (٢ : ٥٢٠)
 و « سير أعلام النبلاء » (٢٧ : ١٧٦) .

(٢) انظر « صور وعبر » (٣٩٥ - ٣٩٦) .

قصة جمل « جابر بن عبد الله » ﷺ

قال « جابر بن عبد الله » ﷺ: خرجتُ مع رسول الله ﷺ إلى « غزوة ذات الرقاع » من نخل، على جَمَلٍ لي ضعيف، فلما قفل رسولُ الله ﷺ جعلتُ الرفاقُ تمضي، وجعلتُ أتخلف، حتى أدركني رسولُ الله ﷺ فقال: « مالك يا جابر؟ ». قلت: يا رسول الله أبطأني جملي هذا.

قال: « أنخه » فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ.

ثم قال: « أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصاً من شجرة ». ففعلت. فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخساتٍ ثم قال: « اركب » فركبتُ، فخرج والذي بعثه بالحق يُواهب^(١) ناقته مُواهقة.

وتحدثتُ مع رسول الله ﷺ فقال لي: « أتبيعي جملك هذا يا جابر؟ ».

قلت: يا رسول الله ﷺ! بل أهبه لك، قال: « لا، ولكن بعنيه ».

قلت: فسُمنيه يا رسول الله! قال: « قد أخذته بدرهم ».

قلت: لا، إذن تعبني يا رسول الله! قال: « فبدرهمين ». قلت: لا، فلم يزل يرفع لي رسولُ الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقية.

فقلتُ: أفقد رضىيتَ يا رسولَ الله؟ قال: « نعم »، قلتُ: فهو لك، قال:

« قد أخذته ».

(١) أي: يساقها، ويعارضها في المشي لسرعته.

ثم قال : « يا جابرُ ! هل تزوجتَ بعدُ ؟ » قلت : نعم ، يا رسول الله .

قال : « أثيبًا أم بكرًا ؟ » . قلت : لا ، بل ثيبًا .

قال : « أفلا جاريةً تلاعبها وتلاعبك ؟ » . قلت : يا رسول الله إن أبي أُصيب يوم أُحد ، وترك بناتٍ له سبعًا ، فنكحتُ امرأةً جامعةً ، تجمع رؤوسهن ، وتقوم عليهن .

قال : « أصبتَ - إن شاء الله - أما إننا لو قد جئنا صِرارًا^(١) أمرنا بجزور فنُحرث ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعتُ بنا فنَفَضْتُ نمارِقَها^(٢) .

قلتُ : والله يا رسول الله ! مالنا من نمارق ، قال : « إنها ستكون ، فإذا قدمت فاعمل عملاً كَيِّسًا » .

فلما جئنا صِرارًا أمر رسولُ الله ﷺ بجزور فنُحرث ، وأقمنا عليها ذلك اليوم .

فلما أمسى رسولُ الله ﷺ ، دخل ودَخَلنا . فحدَّثتُ المرأةَ الحديثَ ، وما قال لي رسولُ الله ﷺ . قالتُ : فدُونك ، فسمعَ وطاعةً .

فلما أصبحتُ أخذتُ برأسِ الجمل ، فأقبلتُ به ، حتى أنخته على باب رسولِ الله ﷺ ، ثم جلستُ في المسجد قريبًا منه .

وخرج رسولُ الله ﷺ فرأى الجمل ، فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : يا رسول الله هذا جملٌ جاء به جابرٌ .

(١) ماء على بعد ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق « المعانم المطابة » (٢ : ٨٨٦) .

(٢) وسائدها .

قال : « فأين جابر ؟ » فدُعيتُ له ، فقال : « يا ابن أخي ، خذ برأس جملك ، فهو لك » ودعا بلالاً ، فقال له : « اذهب بجابر ، فأعطه أوقيةً » . فذهبت معه ، فأعطاني أوقيةً ، وزادني شيئاً يسيراً .

فو الله ما زال ينمي عندي ، ويُرى مكانه من بيتنا ، حتى أُصيب أمس فيما أُصيب لنا^(١) ، يعني يوم الحرّة^(٢) .

□ أضواء على قصة جمل « جابر بن عبد الله » :

كان النبي ﷺ - ولنا فيه أسوة حسنة - حلو العشرة ، لطيف الحديث ، بالغ العناية بأصحابه ، جمّ التواضع لهم . هذا الحوار مع « جابر » يمثل خُلقَ رسولِ الله ﷺ خيرَ تمثيل ، ويصوّر حسنَ عشرته لأصحابه - رضي الله تعالى عنهم - في أجلى صُور اللطف والرفقة ، والتواضع الرفيع الرحيم .

١ - رأيت كيف أدرك جابراً ، وقد تخلف عن القوم لضعف جَمَلِهِ ، فأهمّه أمره ، واتَّخذ له جريدة فنخسه بها نخساتٍ خفيفةً ، فكانت للجمل قوةً ، غالبَ بها الجمال فسبقها ؟ إنها معجزة للنبي ﷺ .

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ٢١٦ - ٢١٨) و« البداية والنهاية » (٥ : ٥٦٩) وأصله في « صحيح البخاري » في (كتاب البيوع) (٢٠٩٧) و(كتاب الشروط) (٢٧١٨) و(كتاب الجهاد) (٢٩٦٧) و« صحيح مسلم » في (كتاب المساواة) (٧١٥) و(كتاب الرضاع) (١٤٦٦) .

(٢) وقعة الحرّة كانت بالمدينة يوم أن خلَّع أهلها « يزيد بن معاوية » وأمروا عليهم « عبد الله بن حنظلة الغسيل » ولم يوافق على هذا الخُلْع أحدٌ من أكابر الصحابة الذين كانوا فيهم . وأرسل « يزيد » عسكره لقتال أهل المدينة من الصحابة والتابعين ، وأمر عليهم « مسلم بن عقبة المزني » سنة (٦٣هـ) وانتهبت المدينة . والحرّة: أرضٌ بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة . وكانت الواقعة بها . « النهاية » (١ : ٣٦٥) وحاشية « السيرة لابن هشام » (٣ : ٢١٨) .

٢- ثم عرض على « جابر » أن يبتاع جملة هذا، فأراد أن يهبه إياه، فأبى، وسأومه مساومة، كانت سمحة بارة، لا كما يساوم الناس في بيعاتهم، وما كان من قصد النبي ﷺ المتاجرة بالجمال، والمرابحة فيه، وإنما اتَّخذه وسيلة لبرِّ « جابر » وملاطفته، فإنه لما انقلب إلى صرار، ردَّ على « جابر » جملة، ونقده ثمنه، وزاده شيئاً يسيراً.

إنه أسلوب فريد في برِّ الأصحاب، والتلطف بعشرتهم.

٣- تعرَّف رسول الله ﷺ على أخبار « جابر » الأسرية، بعد أن استشهد والده في أحد، وأصبح هو المسؤول عن الأسرة وحده، وعلم من خلال سؤاله عن أحواله وزواجه، أنه تزوج أخيراً امرأة نبيّاً، فقال له ﷺ: « أفلا جاريةً . . » غصّة الإهاب، تداعبك وتداعبها، وتخفف من قسوة المحنة التي تعاني منها؟ لكنه استصوب رأيه لَمَّا أجابه بأنه أثار الثيب، لتقوم على البنات السبع اللاتي مات عنهن أبوه، وتُلِّمُ شعَثَهُنَّ، وترِمُّ من رَثَائِهِنَّ.

٤- أحبَّ الرسول الكريم ﷺ أن يكرم الصحابيَّ المجاهد معه في غزوة ذات الرِّقاع، لقرب عهده بالزواج، عندما يقترب من المدينة، فيكون منها على بعد أميال، فيأمر فتنحر الجزور، ويقيم عليها يومه، وتسمع زوجته العروس بمقدمه، فتصلح من شأنها، وتتعهد بيتها تأهباً للقاء زوجها، ولما عقب « جابر »، بأنه ليس في بيته وسائل أخبر ﷺ بأنه ستصلح حاله، وسيغتنى بفضل الله، وستكون له وسائلٌ وغيرها.

أيُّ لطف هذا، وأي مواساة هذه، في أوبةٍ من غزوة بلا تكلف ولا تهيؤ ولا استعداد سابق؟!

أبرأ الله به جملة، وقواه له، بلمسة خارقة، ومعجزة ظاهرة، ثم وهبه إياه بعد أن نقدته ثمنه، ثم احتفى به فأمر فنحر القوم الجزور لتستعد عرسه لاستقباله، ثم طمأنه عن نعيم منظور، وغنى مذخور^(١).

إنها أخلاق رائقة، وسماة فائقة، ومناقب عليّة، ومنح مصابيحها جلية، ومُحيا طليق، وسخاء لا يدرك شأوه.

* * *

الرسول ﷺ يصف يوم الفتح بأنه يوم بز ووفاء

روي عن « عثمان بن طلحة » وكان مفتاح الكعبة في يده بالجاهلية، أنهم كانوا يفتحون الكعبة في الجاهلية أيام الاثنين والخميس، وأن النبي ﷺ في أوائل دعوته أراد أن يدخل الكعبة مع الناس، فمنعه منه عثمان، وأغلظ له القول، لكن النبي ﷺ حلم عنه، وترفق به قائلاً: « لعلك يا عثمان ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت ». فقال عثمان متطاولاً متغطرساً: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت.

فقال له النبي ﷺ: « بل عمّرت وعزّت يومئذ ».

فلما كان يوم الفتح، قال: يا عثمان اتني بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه مني ثم دفعه إليّ، وقال: « خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان! إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف ».

فلما ولّى عثمان، ناداه رسول الله ﷺ فقال - مذكراً إيّاه - : « ألم يكن

(١) انظر « صور وعبر » (١٧٩).

الذي قلت لك؟». فذكر عثمان قوله ﷺ له قبل الهجرة: «سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت». فقال عثمان: بلى! أشهد أنك رسول الله!

وهكذا لم يشأ النبي ﷺ أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في يد أحد من بني هاشم.

إن علياً أراد المفتاح والسقاية لنفسه لمكانته من رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ولأنه من بني هاشم، الأسرة البارزة العريقة في قريش، غير أن النبي ﷺ أعاد المفتاح إلى «عثمان بن طلحة» فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء»^(١).

* * *

□ أضواء على الحادثة:

هذا مفهوم الفتح الأعظم في شريعة رسول الله ﷺ، البر والوفاء، حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا وقتلوا، وذلك لأن الإسلام دين السلام، لا التسلط والقهر، والعلو والطغيان. وهو سلام في الحرب وفي الفتح، وجاء في التنزيل:

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (سورة الحج: ٤١).

فلم يسلبوا الأملاك، ولم يختصوا بالنفائس، ولم يستأثروا بكرائم المال^(٢)

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (٤: ٥٥) و«الطبقات الكبرى» (٢: ٩٩) و«زاد المعاد» (٣: ٤٠٩).

(٢) انظر «صور وعبر» (٤٠٠).

وفاء الرسول ﷺ مع الأنصار في البقاء معهم بعد فتح مكة

ثبت في الصحيح : قالت الأنصارُ بعضهم لبعضٍ : أمّا الرجلُ فأدركته رغبةٌ في قريته ، ورأفةٌ بعشيرته .

قال أبو هريرة : وجاء الوحيُ . وكان إذا جاء الوحيُ لا يخفى علينا . فإذا جاء فليس أحدٌ يرفعُ طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحيُ . فلَمَّا انقضى الوحيُ قال رسولُ الله ﷺ : « يا معشرَ الأنصارِ ! » قالوا : لبيك يا رسول الله ، قال : « قلتم : أمّا الرجلُ فأدركته رغبةٌ في قريته » . قالوا : قد كان ذاك . قال : « كَلَّا ، إني عبدُ الله ورسولُهُ ، هاجرتُ إلى الله وإليكم ، والمخيا محياكم . والمماتُ مماتكم » .

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون : والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللهَ ورسولَهُ يُصدِّقانكم وَيَعذِّرانكم »^(١) .

لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، وظهرت عليه مظاهر الأُنس بمشاعرها وبالبيتِ العتيق ، وأنسَ المشوقُ إلى حبيبٍ غائبٍ عنه ثم عاد إليه ، تخوَّفَ الأنصارُ أن يكون هذا الأُنسُ بمواقفِ العبودية في مشاعرها رغبةً عند رسول الله ﷺ في إقامته بمكة بلده التي فيها عشيرته وقومه الأذنون ، وذلك لأنهم رأوا رأفةَ النبي ﷺ بأهل مكة ، وكفَّ القتلَ عنهم ، فظنوا أنه يرجعُ إلى سكنى مكة والمقامِ فيها دائماً ، ويرحلُ عنهم ، ويهجُرُ المدينةَ ، فشقَّ ذلك عليهم . فقال

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد والسير) (١٧٨٠) وانظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ٥٩) و« المواهب اللدنية » (١ : ٥٨٤) .

بعضهم لبعض : « أترون رسولَ الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها أم يرجع إلينا ؟ » .

وإنما قال الأنصار ذلك حباً في رسول الله ﷺ وضيئاً به أن تكون إقامته بينهم لا يفارقهم ولا يفارقونه، تعلقاً به ﷺ، وحرصاً عليه أن يظلّ موضع اختصاصهم به في الإقامة بينهم. وهذا نابغ من ألم الغيرة التي هي من خلق الأنصار، شمس الإيمان، وبدور الإسلام. والغيرة - بمفهومها الصحيح - منزلة شريفة عظيمة جداً، جليلة المقدار، ومعناها عجزُ الغيور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه، ويحبُّبه عنه ضيئاً به أن يعتاض عنه بغيره^(١).

وسيدنا فخر الكائنات رسولُ الله ﷺ البشيرُ النذيرُ، الذي ليس له في العالمين نظير، لا يعوّضه شيءٌ عند فقده. وما أرقَّ قولَ القائل !

رأت وجهه الأنصارُ لما أتاهم فقالوا : تجلّى البدرُ من ساكني بدرٍ
رُحمتنا به إذ جاء في ليلٍ تبهنا فلاح لنا من وجهه غرّة الفجرِ

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : قال بعض الجهال : (لا إله إلا الله) من أصل القلب، و(محمد رسول الله) من القُرط. ونحن نقول : (محمد رسول الله) من تمام قول (لا إله إلا الله). فالكلمتان تخرجان من أصل القلب، ومن مشكاة واحدة، لا تتم إحداهما إلا بالأخرى^(٢). اهـ

والغيرة شأن المحب، يُحييه الوصالُ، ويُميته الفراق، بل التفكير في الفراق يقطع كبده، ويحرق فؤاده.

(١) انظر « مدارج السالكين » (٣ : ٤٩٦ - ٥٠٣).

(٢) « مدارج السالكين » (٣ : ٥٠٢).

وقد حفزهم على هذا الظنّ ما رأوه منه ﷺ من مزيد الأُنس بالمشاعر، والشوق إلى مطالعة أسرار العبودية في مجالها، بكثرة ذكر الله - تعالى - والدعاء والتضرع في ظل نسمات جودها، استنزالاً لرحمات الله في معالمها.

وكان الرسول ﷺ حين قال الأنصارُ ذلك قد علا على الصفا حتى يرى البيت، فرفع يديه، وجعل يحمد الله ويذكره، ويدعو بما شاء الله أن يدعو، متضرّعاً متخشّعاً، والأنصار في سفح الصفا.

فلما فرغ ﷺ من دعائه أخبره الوحي بما قالوا رافةً بهم ليمسح عن أفئدتهم ما مسّها من الغيرة وشعور الألم والحُزن على مفارقة رسول الله ﷺ، فالتفت إليهم ﷺ وقال لهم: « ماذا قُلتُم؟ » قالوا - استحياء من مواجهته ﷺ بما هجس في خواطرهم حياله، وحرصاً على وجوده بينهم - : لا شيء، فلم يزل يتلطف بهم، حتى أخبروه بما قالوا، فقال ﷺ يُطمئنُ أفئدتهم الوالهة، ويثلج صدورهم بإخباره أنه باقٍ لهم، وسيعيش بينهم: « معاذَ الله، المحيا محياكم، والمماتُ مماتكم »^(١). فأزالت كلماته ﷺ الهمّ من القلب الكسير، وداوى ببرد الوصل فؤادَ المستجير. وما أعذبَ هذا الكلامَ: « المحيا محياكم، والمماتُ مماتكم »!

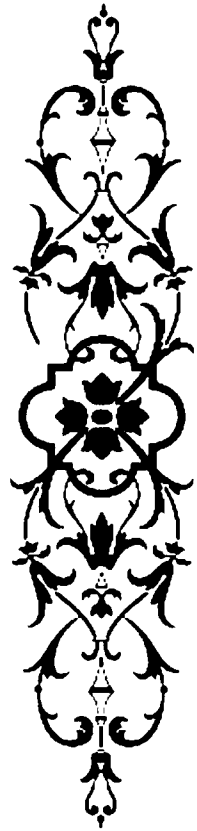
ومن خالطه ﷺ أحبه حباً يفوق حبّ النفس والولد، فأحاديثه مصابيح الأنوار، وذاته مشكاة العلوم والأسرار، وأخلاقه مشرقةً بالكمال، فالنفوس تذوب كمداً إذا خطر في البال الهجران.

* * *

(١) انظر « محمد رسول الله ﷺ » (٤: ٣٤١).

المبحث الحادي عشر

الشائعات



إشاعة مقتل الرسول ﷺ يوم أُحُد أفقدت الصحابة التوازن

عندما انهزم المشركون في غزوة أُحُد قال أصحابُ « عبد الله بن جبير » :
« الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ » .

فقال عبد الله بن جبير : « أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ » قالوا :
« والله لنا تين الناس فلنصيب من الغنيمة » ثم هرعوا إلى جمع الغنائم .

وكانت هذه فرصة مواتية لخالد بن الوليد ليلتفت حول المسلمين، فيراه المشركون فيعودوا إلى ميدان القتال مرة أخرى محيطين بالمسلمين . وارتبك المسلمون إلى الحد الذي لم يقدر أن يميز بعضهم المسلم من الكافر . وفي هذه اللحظات قتل المسلمون « اليمان » - والد حذيفة - وابنه حذيفة يصرخ فيهم : « أي عباد الله، أبي أبي، ثم قال لهم عندما قتلوه : يغفر الله لكم »^(١) . فزادته عند رسول الله ﷺ خيراً ، وأمر رسول الله ﷺ بديته أن تُخرج . فتصدّق حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بديته على المسلمين^(٢) .

واستشهد من المسلمين جماعة كثيرة، وغاب الرسول ﷺ عن أعينهم، وشاع أنه قد قُتل . وصاح الشيطان : قُتل محمد . فلم يشك فيه أنه حق^(٣) .

وفرّ جمعٌ من المسلمين من الميدان . وجلس بعضهم دون قتال، وتصدّى

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٠٦٥) وانظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ١٢١، ١٢٩) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرک » (٣ : ٢٠١) وانظر « إمتاع الأسماع » (١٢٨) .

(٣) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٦ : ٤١٧) .

آخرون للمشركين، وحرّضوا المؤمنين على القتال حتى نالوا الشهادة.

ومن هؤلاء « أنس بن النضر »، الذي كان يتشوق لتعويض ما فاته من فضل بدر. فقال عندما رأى بعض المسلمين قُعودًا: « اللهم إني أعتذرُ إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأُ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدّم فاستقبله سعدُ بن معاذ، فقال: يا سعدُ بن معاذ، الجنةُ وربُّ النضر، إني أجدُ ريحها من دون أحد.

قال سعد: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع أنسُ ».

وعندما انجلت الغمةُ وُجد في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربةٍ بالسيف، أو طعنةٍ برمح، أو رميةٍ بسهم، ووجدناه قد قُتلَ ومثَّلَ به، فما عرّفه أحدٌ إلا أخته « الربيع بنت النضر » عرفته بينانه. ونزلت فيه وفي أشباهه من المجاهدين الصادقين الآية: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ (١) (الأحزاب: ٢٣).

وكان الفارون يُصعدون في الجبل هارين، ولا يلوون على أحدٍ من الدَّهْسِ والخوف والرعب. وفي ذلك نزل قولُ الله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ ﴾ (٢) (آل عمران: ١٥٣).

وقد عفا الله عن الذين فرّوا. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَىٰ

(١) الحديث أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٢٨٠٥) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الإمارة) (١٩٠٣).

(٢) انظر « تفسير القرآن العظيم » (٢: ١٣٧).

الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ يَبْغِضُ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿ آل عمران : ١٥٥ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَبْغِضُ مَا كَسَبُوا ﴾ أي: بشؤم بعض ما اكتسبوه بهم من الذنوب، كترك المركز، والميل إلى الغنيمة، مع النهي عنه، فمُنِعُوا التأييد وقوة القلب، فكم من ذنب عقابُه فيه! ثم أخبر - سبحانه - أنه عفا عنهم بقوله: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي: بالاعتذار والندم؛ لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها^(١).

وذكر ابن الجوزي^(٢) أن أحد سببي فرارهم هو سماعهم إشاعة مقتل النبي ﷺ.

قال ابن إسحاق: كان يومٌ أحد يومِ بلاءٍ ومُصيبةٍ وتمحيصٍ، اختبر الله به المؤمنين، ومحن به المنافقين، ممن كان يُظهر الإيمان بلسانه، وهو مُستخفٍ بالكفر في قلبه.

ويومًا أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته^(٣).

* * *

(١) انظر « محاسن التأويل » (٤: ٢٦٩).

(٢) في « زاد المسير » (١: ٤٨٣) وانظر « البداية والنهاية » (٥: ٣٧٧).

(٣) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ١١٢).

خبر الإفك

ثبت في « الصحيحين »^(١) عن عُرْوَةَ بن الزبير عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ عائشةَ^(٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ .

قالت عائشةُ فأقرعَ بيننا في غزوةِ غزاهَا^(٣) فخرج سهمي، فخرجتُ مع رسولِ الله ﷺ بعدما نزلَ الحجابُ، فأنا أُحْمَلُ في هودَجي وأنزلُ فيه .

فيسرنا حتى إذا فرغَ رسولُ الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة قافلينَ أذنَ ليلةَ بالرحيلِ .

١ - سبب تأخر عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن الجيش .

فقمْتُ حينَ آذَنُوا بالرحيلِ، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ^(٤) قَدْ انْقَطَعَ فَالْتَمَسْتُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب التفسير) (٤٧٥٠) و« مسلم » في صحيحه في (كتاب التوبة) (٢٧٧٠) واللفظ للبخاري، وانظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٣٠٩ - ٣١٦) و« فتح الباري » (٨: ٤٥٢ - ٤٥٥).

(٢) ليس المراد أن عائشة تروي عن نفسها، بل معنى قوله « عن عائشة » أي: عن حديث عائشة في قصة الإفك. ثم شرع يحدث عن عائشة فقال: إن عائشة قالت.. « فتح الباري » (٨: ٤٥٧).

(٣) هي غزوة بني المصطلق، وكانت سنة ست.

(٤) يروى « أظفار ». الجزع: الخرز. وظفار، كقطام: مدينة باليمن قرب صنعاء، وينسب إليها الجزع الظفاري. « تاج العروس » (ظفر ٣: ٣٧٠).

عَقْدِي، وحسني ابْتِغَاؤُهُ.

وأقبلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كانوا يرحلونَ لي، فاحتملُوا هَوْدَجِي، فرحلوه على بعيري الذي كنتُ ركبْتُ، وهم يَحْسَبُونَ أَنِي فيه.

وكان النساءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لم يُثْقِلَهُنَّ اللَّحْمُ، إنما يَأْكُلْنَ العُلُقَةَ^(١) مِنَ الطعامِ فلم يستنكرِ القومُ خِفَةَ الهودجِ حينَ رَفَعُوهُ، وكنتُ جاريةً حديثَةَ السنِّ، فَبَعَثُوا الجملَ وساروا.

فوجدتُ عَقْدِي بعدما استمرَّ الجيشُ، فجنثُ منازلهم، وليس بها دَاعٍ ولا مُجِيبٌ، فَأَمَمْتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أَنهم سَيَقِيدُونِي فيرجعونَ إِلَيَّ.

٢- رؤية صفوان لعائشة رضي الله عنها واسترجاعه.

فيينا أنا جالسةٌ في منزلي غَلَبَتْني عَيْنِي فَمِئْتُ، وكان « صفوانُ بنُ المُعَطَّلِ » مِنْ وراءِ الجيشِ، فَأَذْلَجَ فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرَفَنِي حينَ رَأَيْتِي، وكان يراني قبلَ الحجابِ، فَاسْتَيْقِظْتُ باسترجاعِهِ حينَ عرَفَنِي فخرَّرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كَلَّمَنِي كلمةً ولا سَمِعْتُ منه كلمةً غيرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حتى أَنَاخَ راجِلَتَهُ فوطئَ على يَدَيْهَا فركبْتُها فانطلقَ يقوُدُ بي الراجِلَةَ حتى أَتينا الجيشَ بعدما نزلوا مُوغَرِبِينَ في نَحْرِ الظهيرةِ، فهلكَ مَنْ هلكَ، وكان الذي تولَّى الإِفْكَ « عبدُ الله بنُ أَبِي ابنِ سَلُولٍ »^(٢).

(١) العُلُقَةُ: كل ما يُتَلَعُ به من العيش « الفاموس » (علق).

(٢) فائدة: « سلول » أم « عبد الله بن أبي » ولذا ثبت ألف « ابن » الثانية دون الأولى، وتعرب صفة ثانية لعبد الله لا لأبي، ويُؤنَّ « أبي ». وسلول: ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث.

٣- انتشار الإشاعة بالمدينة.

فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، وَلَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيئِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَسَلُّمُ ثُمَّ يَقُولُ: « كَيْفَ تَيْكُمُ؟ ». ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ الَّذِي يَرِيئِي، وَلَا أَشْعُرُ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ - وَهُوَ مُتَبَرِّزُنَا - وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُتَّخَذَ الْكُنْفُ قَرِيبًا مِنْ بِيوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي التَّبَرُّزِ قَبْلَ الْغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَى بِالْكُنْفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بِيوتِنَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، أُمُّهَا خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ.

فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ بَيْتِي، قَدْ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرْتُ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطَهِهَا فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحٌ. فَقُلْتُ لَهَا: بَسْ مَا قُلْتِ، أَتُسَبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟

قَالَتْ: أَيُّ هَتَّاءُ، أَوْلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَمَا قَالَ؟ فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي.

فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - تَعْنِي سَلَّمَ - ثُمَّ قَالَ: « كَيْفَ تَيْكُمُ؟ ».

٤- استئذنها في زيارة والديها.

فَقُلْتُ: أَنَاذُنْ لِي أَنْ آتِيَ أَبُويَّ؟ وَأَنَا حَيْثُ أُرِيدُ أَنْ أُسْتَقِرَّ الْخَبَرَ مِنْ قَبْلِهِمَا، فَأَذِنْ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَجِئْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ لِأُمِّي : يَا أُمَّتَاهُ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ : يَا بِنْتَهُ، هُوَ نَبِيٌّ عَلَيْكَ فَوَاللَّهِ، لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطَّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا.

قَالَتْ : فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ لَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ فَبِكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرِقُّ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَجِلُ بِنَوْمٍ حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

٥- استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عندما تأخر الوحي.

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما حِينَ اسْتَلَبَتْ الْوَحْيُ، يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ.

قَالَتْ : فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلُكَ، وَمَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا.

وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسَأَلَ الْجَارِيَةَ تَضَدُّكَ. فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ : « أَيُّ بَرِيرَةَ، هَلْ رَأَيْتِ عَلَيْهَا مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبُكَ؟ » ^(١).

قَالَتْ بَرِيرَةُ : لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتِ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِضُهُ ^(٢) عَلَيْهَا سِوَى أَنِهَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السَّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ. فَقَالَ رَسُولُ

(١) انظر « صحيح البخاري » في (كتاب الشهادات) (٢٦٦١) و(كتاب الاعتصام) (٧٣٦٩).

(٢) أعيبه.

الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشرَ المسلمين مَنْ يَعِذِرُنِي ^(١) مِنْ رَجُلٍ ، قَدْ بَلَّغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ؟ ، فوالله ما علمتُ على أهلي إِلَّا خَيْرًا ، ولقد ذكروا رجلاً ، ما علمتُ عليه إِلَّا خَيْرًا ، وما كان يدخلُ على أهلي إِلَّا معي » .

٦- آثار الإِشَاعَةِ الْآثِمَةِ .

فقام « سعدُ بنُ معاذِ الأنصاريُّ » ، فقال : يا رسولَ الله أنا أَعِذُّكَ مِنْهُ ، إِنَّ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرِبْتُ عُنُقَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا ، ففعلنا أَمْرَكَ .

فقام « سعدُ بنُ عُبَادَةَ » وهو سيدُ الخزرج ، وكان قبلَ ذلك رجلاً صالحًا ، ولكن احتملته الحميةُ فقال لسعدٍ : كذبت ، لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ .

فقام « أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ » وهو ابنُ عمِّ سعدٍ ، فقال لسعدِ بنِ عُبَادَةَ : كذبت ، لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّه ، فَإِنَّكَ مَنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ ، فَتَشَاوَرِ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يُقْتَلُوا ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمَنْبَرِ ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَّتُوا وَسَكَتَ .

قالت : فمكثتُ يومي ذلك لا يرقأُ لي دمعٌ ، ولا أكتحلُ بنومٍ .

قالت : فأصبحَ أبوأيِّ عندي وقد بكيتُ ليلتينِ ويومًا لا أكتحلُ بنومٍ ، ولا يرقأُ لي دمعٌ يظنَّانِ أَنَّ الْبِكَاءَ فَالِقُ كَبِدِي .

قالت : فبينما هما جالسانِ عندي وأنا أبكي ، فاستأذنتُ عليَّ امرأةٌ من

(١) أي: طلب من يعذره منه، أي: ينصفه. وقيل: من بنصري. وقيل: من ينتقم لي منه؟ فتح

الأنصار، فأذنتُ لها، فجلستُ تبكي معي .

قالت : فيينا نحن على ذلك دخل علينا رسولُ الله ﷺ فسَلَّم ثم جلس .

قالت : ولم يجلسْ عندي منذ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا .

٧- مصارحة الرسول ﷺ لعائشة، رضي الله عنها.

وقد لبثَ شهرًا، لَا يُوحَى إليه في شأني .

قالت : فتشهدَ رسولُ الله ﷺ حينَ جلسَ ثم قال : « أَمَا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنَّ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسِيرْتُكَ اللَّهُ ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ . »

٨- الطاهرة المتهممة في احتراقٍ وذهولٍ وقد قَلَصَ دَمْعُهَا : النجدة النجدة!

قالت : فلمَّا قضى رسولُ الله ﷺ مقالتهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً ، فَقُلْتُ لِأَبِي : أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ . قال : وَاللَّهِ مَا أُذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

فقلتُ لأُمِّي : أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . قالتُ : مَا أُذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

قالتُ : فقلتُ - وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأ كثيرًا مِنَ الْقُرْآنِ - إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ ، فَلَنْتُنَّ قُلْتُ لَكُمْ : إِنِّي بَرِيئَةٌ - وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ - لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ ، وَلَنْتُنَّ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ - وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ - لَتُصَدِّقُنِّي . وَاللَّهُ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا

إلا قول أبي يوسف قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ ﴾ (يوسف: ١٨).

٩- البريئة تذوب في نفسها، وتغيب عن وجودها وتوقن أن المنجد الله !
 قالت : ثم تَحَوَّلْتُ فاضطجعتُ على فراشي . قالت : وأنا حينئذٍ أعلمُ
 أنني بريئة، وأنَّ الله مُبرِّئِي ببراءتي، ولكنَّ والله ما كنتُ أظنُّ أن الله مُنزِلُ
 في شأني وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي في نفسي كان أَحقرَ مِنْ أن يتكلَّم اللهُ فيَّ
 بِأمرٍ يُتْلَى، ولكن كنتُ أَرْجو أن يَرَى رسولُ اللهِ ﷺ في النومِ رُؤيا يُبرِّئني
 الله بها.

١٠- نزول الوحي ببراءة أم المؤمنين عائشة ؓ.

قالت : فوالله ما رامَ رسولُ اللهِ ﷺ ولا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ
 حتَّى أنزَلَ عليه، فأخذه ما كانَ يَأخُذُه مِنَ البُرْحَاءِ، حتَّى إنهُ لَيَتحدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ
 الجُمانِ^(١) مِنَ العَرَقِ، وهو في يومٍ شاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي يُنزَلُ عليه.

قالت : فلَمَّا سُرِّيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ سُرِّيَ عنه وهو يضحكُ، فكانتُ
 أوَّلَ كلمةٍ تكَلَّمُ بها « يا عائشةُ، أمَّا اللهُ ﷻ فقد بَرَّأكَ ».

وفي رواية للبخاري^(٢) : قال لي : « يا عائشةُ احمدي الله فقد بَرَّأكَ
 اللهُ ».

[هو الحسنُ الأخلاقِ والخلقِ والشدَى هو الروضةُ الغناء طابَ بها المَجْنَى]

(١) رام: فارق. البرحاء: العرق. الجمان: اللؤلؤ. انظر « فتح الباري » (٨: ٤٧٦).

(٢) في « صحيحه » في (كتاب الشهادات) (٢٦٦١).

١١- غريقة البحار، النائمة في القفار تنادي بعد النجاة من الغم : لربي
الحمد !

[أدب العبيد تذلُّ والعبيد لا يدعُ الأدب
فإذا تكاملَ ذلُّه نال المودةً واقترب]

فقلت أمي : قومي إليه . قالت : فقلت : واللّه ، لا أقومُ إليه ، ولا أحمَدُ
إلا الله ﷻ وأنزلَ الله العشرَ الآياتِ كُلَّهَا وهي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ
مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى
كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا
هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَقَوْلُوكَ عِنْدَ اللَّهِ
هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ بِالْيَمِينِ وَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا
وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا
بَيِّنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدًا إن كنتم مؤمنين ﴿١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ
الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ (النور: ١١- ٢٠).

١٢- موقف أبي بكر رضي الله عنه ممن تكلم في عائشة رضي الله عنها.

فلما أنزلَ الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان يُنْفِقُ على
مِسْطَحِ بْنِ أَثَانَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ، وَفَقَرَهُ : وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ
الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا
أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ

لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ (النور : ٢٢).

قال أبو بكر : بلى ، والله إنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفَرَ اللهُ لِي ، فرجعَ إلى مُسْطَحِ النَفَقَةِ التي كان يُنْفِقُ عليه ، وقال : والله لا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا .

قالت عائشةُ : وكان رسولُ اللهِ ﷺ يسألُ زينبَ ابنةَ جحشٍ عن أمرِي ، فقال : « يا زينبُ ماذا عَلِمْتِ أو رأيتِ ؟ » .

فقالت : يا رسولَ اللهِ ، أَحْمِي سَمْعِي وبصري ، ما عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا . قالتُ : وهي التي كانت تُسَامِينِي ^(١) مِنْ أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا « حَمْنَةُ » تُحَارِبُ لَهَا . فهلكتُ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أصحابِ الإِفْكِ .

١٣- موقف عائشة ؓ مِمَّنْ تكلمَ فيها .

جاء في الصحيح ^(٢) : وكان الذي تَوَلَّى كِبَرَ الإِفْكِ عبدُ اللهِ بنُ أبي ابنِ سلولٍ .

قال عروةُ : أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كانَ يُشاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيَقْرَهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ .

وقال عروةُ أيضًا : لم يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيضًا إِلَّا حسانُ بنُ ثابتٍ ، وَمِسْطَحُ بنُ أَثانَةَ ، وَحَمْنَةُ بنتُ جحشٍ في ناسٍ آخِرِينَ . . .

(١) أي: تعاليني، من السمّ، وهو العلوّ والارتفاع أي: تطلب الحظوة عند النبي ﷺ كما أطلب، أو تعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده. « فتح الباري » (٨: ٤٧٨).

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي - باب حديث الإفك) (٤١٤١)، ومن « وقال عروة: كانت عائشة تكره... إلخ » في « صحيح مسلم » (كتاب التوبة) ٥٧ (٢٧٧٠).

قال عروة : كانت عائشة تُكرهه أن يُسبَّ عندها حسَّانُ، وتقول : إنه الذي

قال :

فإنَّ أبي ووالدَهُ وعِرضِي لعِرضِ محمدٍ منكم وِقَاءُ

* * *

□ تحليل هذا الموقف :

سموٌّ في الأخلاق، وترفُّع عن الانتقام، ومحاسنٌ عزَّ نظيرُها في البشر، وتألَّق في العفو، فقد كرهتُ الصديقة أن يُسبَّ عندها من آذاها ؛ لأنه كان يدافع عن الرسول ﷺ.

إنها أخلاق الصديقة بنت الصديق حبيبة الحبيب، وأليفة القريب، المبرأة من العيوب، المعرّاة من ارتياب القلوب، القالية للدنيا، واللاهية عن سرورها، والباكية على فقد أليفها.

وفي « صحيح البخاري »^(١) قال مسروق : تَدَعِينَ مِثْلَ هَذَا يَدْخُلُ عَلَيْكَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾ (النور: ١١).

فقلت : إنه كان يُنافح أو يُهاجي عن رسول الله ﷺ.

وفي روايةٍ للبخاري^(٢) « قالت : قد كان يرُدُّ عن رسول الله ﷺ ».

ولا عجب أن تنسى نفسها من أجل رضاء الله ﷻ، وتحلِّمَ عمن آذاها، وتعفو عمن ظلمها ؛ لأنها لا تنسى دفاعه عن الإسلام، وعن نبيِّ الإسلام،

(١) رقم (٤١٤٦).

(٢) رقم (٤٧٥٦).

وهي القائلة لابن عباس رضي الله عنهما حين زكّاهما : « يا ابنَ عباس دعني منك ومن تزكيتك ، فوالله لو ددْتُ أني كنتُ نسيًّا منسيًّا »^(١) . هذه أخلاقها ، فلقد كملها الله في خَلْقها وخُلُقها .

كانت تقول : يا رسول الله كيف حُبُّك لي؟ قال : « كعُقْدَةِ الحبلِ » فكنتُ أقول : كيف العُقْدَةُ يا رسول الله؟ فيقول : « هي على حالها »^(٢) .

لقد كان هَمُّ السيدة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها من الدنيا أن تكون قريبةً من الله تعالى وحبيباً لرسول الله ﷺ .

اللهم اجعل حبِّهم في قلوبنا أحبَّ إلينا من كلِّ شيء ، واحشرنا معهم يا رب العالمين يوم نلقاك وأنت راضٍ عنا .

* * *

حاك المنافقون في أعقاب غزوة بني المصطلق حادثة الإفك ، فقد ألمَّت بالبيت النبويّ هذه النازلة الشديدة ، والمحنة العظيمة التي كان القصد منها النيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار .

كانت قصة الإفك حلقةً من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين ، وكان من لطف الله - تعالى - بنيّه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها ، وسجّل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية ، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب ، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تُعرضُ لهم في حياتهم مثلُ هذه الفرية .

(١) « حلية الأولياء » (٢ : ٤٥) .

(٢) « حلية الأولياء » (٢ : ٤٤) .

وكان الناس عندما رميت الصديقة بالإفك على أربعة أقسام :

- ١- قسم - وهم أكثر الناس - حَمَوْا أَسْمَاعَهُمْ وَأَلَسْتَهُمْ، فاعتصموا بالصمت ولم ينطقوا إلا بخير.
- ٢- قسم سارع إلى التكذيب، وهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب رضي الله عنهما فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك، وَبَرَّوْا عَائِشَةَ رضي الله عنها مما نُسِبَ إليها في الحال.
- ٣- قسم كانوا جملةً من المسلمين لم يصدّقوا ولم يكذبوا ولم ينفوا، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإفك، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يعرضهم لعقوبة الله. ومن هؤلاء « حَمَنَةُ بنت جحش » و« حسان بن ثابت » و« مِسْطَح بن أثاثة ».
- ٤- قسم جاؤوا بالإفك وروّجوه، وعلى رأس هؤلاء « عبد الله بن أبي ابن سلول » رأس المنافقين، وهو الذي تولّى كِبْرَهُ ^(١).

□ الآثار والنتائج

- ١- من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم التريث والتبصر إزاء الشائعات. قال « محمد فوزي فيض الله » : حيال هذه القرية وما خلفته من آثار داكنة، وهموم ثقيلة في قلب النبي الكبير صلى الله عليه وسلم لا ذبيبت النبوة وبيت الصديق بالصمت، واعتصما بالصبر، فلم يلجأ إلى تكذيب المنافقين ومعاتبتهم، لكيلا تحدث فتنةً وشرًّا مستطير، ولا إلى تجريح عائشة رضي الله عنها والنيل منها ؛ لئلا يعملوا على تثبيت مكر المنافقين السيئ الهدّام.

وفي هذا الموقف حكمة عظمى، تكشف عن مبلغ التصبر والتجلّد، الذي

(١) هذا التقسيم ذكره « الصلاحي » في « السيرة النبوية » (٩٧٩).

كان البيتان يتحليان به، وعن عمق الإيمان الذي يعتصمان به . وما بعد الصبر والإيمان إلا النصرُ والفرجُ^(١).

خطا النبي ﷺ خطوة أخرى في التحقُّق والاستشارة، ودعا قريبه عليًا، وحبيبه أسامة، فاستشارهما، ودعا « بَريرة » الجارية التي هي ألصق الناس بأُم المؤمنين، فسألها، واتخذ لنفسه سبيلاً فريداً. فاتَّجه إلى عائشة ؓ وعندها أبواها وامرأةٌ من الأنصار، وهما تبيكان، فقال : « أمَّا بعدُ يا عائشةُ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئةً فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنوبٍ فاستغفري الله، وتوبي إليه؛ فإن العبدَ إذا اعترفَ بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه ».

إنَّ الموقفَ السليم حيال الدسِّ الرخيص، والإشاعات المغرضة، والإرجاف الهدَّام، هو كظمُ الغيظ والانعغال، والتحلي بالصبر، وإجراء التحقُّق الهادئ، واللفظ في مخاطبة المفتري عليه.

هذه المواقف النبوية المسدَّدة، والخطوات الرزينة الثابتة، استنزلت الوحيَ من عند الله قرآناً يُتلى ببراءة أُمِّ المؤمنين، رضي الله تعالى عنها.

قال « محمد عبد الله دراز » : ألم يُرَجِّفِ المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة - رضي الله تعالى عنها - وأبطأ الوحي، وطال الأمر، والناس يخوضون، حتى بلغت القلوبُ الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول، بكل تحفظ واحتراس : « إني لا أعلم عنها إلا خيراً ؟ » ثم إنه بعد أن بذل جُهدَه في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهرٌ بأكمله والكلّ يقولون :

(١) « صور وعبر » (٢٠٦) بتصرف.

ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة أما إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله...» هذا كلامه بوحى ضميره، وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المثبت الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها، ومصدراً للحكم المبرم بشرفها وطهارتها... فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي لتقطع السنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذّر الكذب على الناس، ويكذب على الله ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٧) (١).

إن موقف النبي ﷺ إزاء حديث الإفك مع ما قد ناله من الأذى البالغ، كان في غاية الحكمة، وكان في القيمة من الصبر والحلم.

وجه قولها ﷺ: «والله لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا الله - عز وجل -» الاتباع وطاعة رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ قال لها: «يا عائشة أحمدي الله، فقد برأك الله». وطاعته ﷺ مقدمة على طاعة الأبوين؛ لأنها لما أن قال لها النبي ﷺ: أحمدي الله، وقالت لها أمها: قومي إلى رسول الله ﷺ تركت ما أمرتها به، وأكدت باليمين ألا تفعله، وامثلت ما أمرها به النبي ﷺ. وهذا مما يشهد لفضلها، وعلو منزلتها؛ إذ أنها مع صغر سنها تراعي مرضاة النبي ﷺ وتفعله على مرضاة أبويها، يشهد لما ذكرناه سكوت أبي بكر ﷺ لها حين

(١) «النبأ العظيم» (٢٠) بتصرف.

قالت: « لا والله، لا أقوم إليه . . . » فلو كان ذلك منها لغير الوجه الذي قدرناه لزجرها أبو بكر رضي الله عنه عن ذلك، ولجبرها على القيام إليه ﷺ ^(١).

وهكذا فقد انطوت قصة الإفك على حكمة باهرة استهدفت تثبيت العقيدة الإسلامية، وردّ ما قد يعرض من شُبّهٍ عليها، وتلك هي الخيرية التي عبّر الله عنها بقوله: ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ (النور: ١١).

٢- صبر الرسول ﷺ وآل أبي بكر تحت وطأة شائعة الإفك.

وقد لبث النبي ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية رابط الجأش صابراً صبراً لم يُعرف في تاريخ النوازل والبلايا لأحدٍ من قبله ولا لأحدٍ من بعده حتى نزلت آياتُ براءة « عائشة » رضي الله عنها بعد قدومهم للمدينة بسبع وثلاثين ليلةً، فقد بلغه ﷺ حديثُ الإفك عند وصوله إلى المدينة. تحدّث به أهلُ النفاق، ومرضى القلوب، ولائته ألسنتهم بين أشداقهم، وهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم.

وكذلك كان حال آل أبي بكر، فإنهم منذ أن بلغهم (الإفك) وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء العاصف، لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون، ولكنهم استسلموا لقضاء الله منتظرين حكمه، وهم يتجرعون مرارة الصبر في حيرة وذهول بكشف هذه العُمة التي أحاطت أنفالتها بأكنافهم، وكان أمرُ رسول الله ﷺ أهمّ لديهم من أمر أنفسهم.

٣- وصف عائشة رضي الله عنها لحالها وحال أبويها.

عائشة رضي الله عنها تصف حال أبويها وحال أهل بيتها وما بلغ منهم من شدة

(١) انظر « بهجة النفوس » (٣: ٧١-٧٢).

عصفت بكيانهم، وزلزلت أقدامهم، وأذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية، فسكتوا سكوت الراضي بقضاء الله ﷻ: «ووالله ما أعلم أهل بيتٍ دخلَ عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام»^(١).

٤- موقف نبيل لأم المؤمنين « زينب » ﷺ.

وقد كان لأم المؤمنين « زينب بنت جحش » موقفٌ نبيل من عائشة ؓ في قصة الإفك وهي التي كانت تناصيها عند رسول الله ﷺ ذلك أن رسول الله ﷺ خصَّها بالسؤال عن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها، وطهارة ذيلها من رجس (الإفك)، وافتراء البهتان، فقال لها: « ما ذا علمتِ أو رأيتِ؟ » فقالت: يا رسول الله ﷺ أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيتُ إلا خيراً.

هذا خُلُقٌ خَلِيقٌ أن يتحلَّى به الصديقُ الأفيقُ^(٢)، فزينبُ اتَّخذتِ الأدبَ جُنَّةً، وحفظت أذنها من سماع الوشاية، فسلمت من الغواية.

قالت عائشة ؓ تشني عليها وتذكر لها فضلها في دينها وأدبها: « وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها « حمنة » تحارب لها فهلكت فيمن هلك ».

٥- أدبها في حقوق الزوجية.

أحدقت بأم المؤمنين هذه الشائعات التي فتكت بجسمها، وأقضت مضجعها، وجعلتها لا يرقأ لها دمع، ولكنها لم يَطشْ لُبُّها، ولم تخرج على حدود الأدب والالتزام بالشرع في حقوق زوجها. قالت له: « أتأذن لي أن آتي

(١) انظر « محمد رسول الله ﷺ » (٤: ٢٢٨).

(٢) أفيق - كَفْرِخ - بلغ النهاية في الفضائل، فهو أفيقٌ وأفيقٌ. « القاموس » (أفيق).

أَبُوَيَّ؟ « قالت: « فأذن لي رسولُ الله ﷺ ».

وهنا أمران أوْدُ الإلِّماع إليهما :

الأول : استئذان المرأة زوجها في الخروج من بيتها .

سُئِلَ « ابن تيمية » رَحِمَهُ اللهُ عَنْ المرأة تخرج من دون إذن زوجها .

فأجاب : « لا يحل للزوجة أن تخرج من بيتها إلا بإذنه ، ولا يحل لأحد أن يأخذها إليه ويحبسها عن زوجها . وإذا خرجت من بيت زوجها بغير إذنه كانت ناشزة عاصية لله ورسوله ومستحقة للعقوبة »^(١).

وقال رَحِمَهُ اللهُ أَيْضاً : « فليس لها أن تخرج من منزله إلا بإذنه ، سواء أمرها أبوها أو أمها أو غير أبيها . باتفاق الأئمة »^(٢).

الثاني : يستفاد من الحديث وجوبُ تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي^(٣) . وذلك من قول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : « كان يراني قبل الحجاب » ثم قالت : « فخمرت وجهي بجلبابي » أي : بعد نزول الحجاب .

٦- الشائعات مصدرها النفاق :

عن « عائشة » رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ قالت : عبدُ الله بنُ أبي ابنِ سلول^(٤) .

(١) « مجموع الفتاوى » (٣٢ : ٢٨١).

(٢) « مجموع الفتاوى » (٣٢ : ٢٦٣).

(٣) انظر « فتح الباري » (٨ : ٤٧٩).

(٤) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب التفسير) (٤٧٤٩). وانظر « السيرة النبوية »

لابن هشام (٣ : ٣١٦).

انتشار الشائعات في المجتمعات داءٌ عظيم يفتك في المجتمع، وهو خلق ذميم، وشرٌ مستطير، ولم يسلم من رذيلتها أحدٌ حتى الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

فهذا المسيح عليه السلام تُشككُ الشائعةُ الرخيصةُ في أمه الصديقة: ﴿يَتَأَخَتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا﴾ (مريم : ٢٨).

وهذا يوسف عليه السلام تمسُّ شرفه الشائعاتُ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف : ٣٠).

وهذه أم المؤمنين عائشة الصديقة رضي الله عنها تتهمُ في عرضها وشرفها.

وقد تزعم هذه الحملة الآثمة كبيرُ المنافقين « عبد الله بن أبي » وانجرف في تيارها نفرٌ قليلٌ من المؤمنين ندموا وتابوا حينما نزلت عشرُ آيات براءة السيدة الجليلة، أما بقية الصحابة فحموا أسماعهم وألستهم منها.

قال ابن هشام : إن أبا أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال : بلى، وذلك الكذب، أكنيت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت : لا والله، ما كنتُ لأفعله، قال : فعائشة - والله - خير منك^(١).

وثبت في الصحيح^(٢) : .. وقال رجل من الأنصار : سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

(١) « السيرة النبوية » (٣ : ٣١٥).

(٢) تنمة حديث أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) (٧٣٧٠). وانظر « روح المعاني » (١٨ : ١٢٠).

قال ابن حجر : قوله : « وقال رجل من الأنصار » وقع عند ابن إسحاق أنه « أبو أيوب الأنصاري » .

وورد هذا عن « أسامة بن زيد » وعن « زيد بن حارثة » وهما ليسا أنصارين .

وكذلك ورد عن « سعد بن معاذ » و « أبي بن كعب » و « قتادة بن النعمان » وقد اجتمع ممن قال ذلك ستة : أربعة من الأنصار، ومهاجريان^(١) .

٧- في هذه التهمة الشنيعة درسٌ لكل مسلمة .

هذا الدرسُ ألقاه الله ﷻ علينا في شخص أكمل امرأة وأفضلها، زوجة أكرم البشر ﷺ، وبنت شيخ المسلمين ﷺ وقد نزل ببراءتها عشرُ آياتٍ نتلوها آناء الليل وأطراف النهار .

• خلاصةُ هذا الدرس :

أن يبتعد النساء عن مواطن الشبهات ولو كنَّ تقياتٍ نقياتٍ، ولْيُوقَنَّ أنه إذا اتَّهمتُ أمُّ المؤمنين فليس في البشر امرأةٌ هي فوق التَّهم، ولعَطَّ الناس .

٨- أشدُّكم بلاءً الأنبياء ثم الأمثلُ فالأمثل .

المحن والبلايا لا تكون إلا لأصحاب الهمم العالية، والنفوس الكبيرة، والقلوب الواعية، ولمن أراد الله اجتناءه ؛ لأنها تطهير وتكفير للذنوب، ورفع للدرجات .

قال « سعد بن أبي وقاص » : قلت : يا رسول الله أيُّ الناسٍ أشدُّ بلاءً؟ قال : « الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ . يُبتلى الرجل على حَسَبِ دينه، فإن كان في

(١) « فتح الباري » (١٣ : ٣٤٤) بتصرف .

دينه ضلُّبًا اشتدَّ بلاؤه. وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابْتُلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(١).

وكان صدى هذه الإشاعة شديداً على أم المؤمنين، لأن البريء يتألم عند الاتهام، ويستغرب ما يُرمى به، لذا قالت: «فبكيُّت يومي كلَّه لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحلُّ بنوم، حتى إني لأظن أن البكاء فالقُ كيدي».

هدف هذه الشائعة هدمُ بيت النبوة معنوياً، بيت القائد العام للمجتمع الإسلامي.

أراد رأسُ المنافقين أن تعصف الشائعاتُ بهذا البيت الطاهر متمثلاً بالنبي ﷺ وبآل الصديق بأسوأ تهمةٍ يتلخخ بها الشريف مما يندى له الجبين؛ لأن الشائعات تفتك في جسد الأمة، ولها تأثير كتأثير السحر، وانتشارٌ كانتشار الهواء في السماء، وانتشار النار في الهشيم.

وما كان من البيت الطاهر إلا أن يتلقى هذه الصدمة برباطة جأش، وثبات العظماء، وسكينة الأتقياء، وصبر يعقوب عليه السلام حتى جاء الفرج بتبرئة الصديقة التي جمعت من العلم والفضل والبيان ما لم يجتمع مثله في امرأة. وكانت تحمل الشريعة عن النبي ﷺ تُعلِّم العلماء، وتُفتي المفتين وبخاصة ما يتعلق بالحياة الأسرية.

* * *

(١) أخرجه «الترمذي» في «جامعه» في (كتاب الزهد) (٢٣٩٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

المبحث الثاني عشر
الصدق



قصة المخلفين في غزوة تبوك

كان ثلاثة رهط من المسلمين تخلّفوا عن غزوة تبوك، من غير نفاق أو شك. وهم « كعب بن مالك » و« مُرارة بن الربيع » و« هلال بن أمية » فلما قدم النبي ﷺ عائداً من تبوك، قال لأصحابه : لا تُكَلِّمَنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة .

□ عناصر القصة :

١- اعتراف « كعب » أنه تخلّف عن الغزوة من دون عذر .

ثبت في « الصحيحين »^(١) عن « كعب بن مالك » أنه قال : « لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلّا في غزوة تبوك غير أنّي كنتُ تخلّفتُ في غزوة بدرٍ، و لم يعاتب أحدًا تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عيرَ قريشٍ، حتى جمَعَ الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعادٍ .

ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبةِ، حين توائمتنا على الإسلام، وما أحبُّ أنّ لي بها مشهدَ بدرٍ، وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها .

كان من خبري، أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيسرَ حين تخلّفتُ عنه في تلك الغزاةِ، ووالله ما اجتمعتُ عندي قبّله راحلتانِ قطُّ حتى جمعتُهما في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب المغازي) (٤٤١٨) و مسلم في صحيحه في (كتاب التوبة) (٢٧٦٩) واللفظ للبخاري، وانظر السيرة النبوية لابن هشام

تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورى^(١) غيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبلَ سفيراً بعيداً، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبةً غزويهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير^(٢)، ولا يجمعهم كتابٌ حافظ - يريد الديوان - قال كعبٌ: فما رجلٌ يريد أن يتعيبَ إلا ظنَّ أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله.

٢- سببُ تخلف « كعب » الخلودُ إلى الراحة والتسويف.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمارُ والظلالُ، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطففتُ أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادي بي حتى اشتدَّ الناسَ الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا^(٣) لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا. وتفارط^(٤) الغزو، وهممتُ أن أرتحل فأدرگهم، وليتني فعلتُ، فلم يُقدِّر لي ذلك فكننتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم، أحزنتني أنني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً^(٥) عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذَّر الله من الضعفاء.

(١) أوهم غيرها.

(٢) يزيدون على ثلاثين ألفاً. « فتح الباري » (٨: ١١٧).

(٣) ذهبوا.

(٤) فات.

(٥) مطعوناً في دينه، متهمًا بالنفاق.

٣- رجل من بني سلمة يغمز كعباً، و« معاذ » يدافع عنه.
ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال - وهو جالس في القوم بتبوك - : « ما فعل كعب؟ » فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه بُرداه، ونظره في عطفه^(١)، فقال له معاذ بن جبل: بش ما قلت! واللّه يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلاً، حضرني همي فطففت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم^(٢) قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أنني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه^(٣).

٤- قبول الرسول ﷺ أعذار المتخلفين.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، قبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

٥- عتاب الرسول ﷺ لكعب عن تخلفه عن الغزوة.

فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: « تعال »، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: « ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ ».

(١) كتني بذلك عن حسنه وبهجهته.

(٢) أشرف.

(٣) جزمت بذلك.

فقلت : بلى ، إني والله يا رسول الله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرجُ من سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، والله لقد أُعْطِيتُ جَدَلًا^(١) ، ولكنني والله لقد علمتُ لئن حَدَّثْتُكَ اليومَ حديثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عني لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسَخِّطَكَ عليّ ، ولئن حَدَّثْتُكَ حديثَ صِدْقٍ تَجِدُ^(٢) عليّ فيه ، إنِّي لأرجو فيه عفوَ اللهِ ، لا والله ما كان لي من عُذْرٍ ، والله ما كنتُ قَطُّ أَقْوَى ولا أيسرَ منِّي حينَ تَخَلَّفْتَ عنك .

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « أَمَا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَمَنْ حَتَّى يَفْضِي اللهُ فِيكَ » .

٦- وسوسةُ شياطينِ الإنسِ لكعبٍ وثبأته على الصدق .

فَقُمْتُ ، وثار^(٣) معي رجالٌ من بني سَلِمةَ فَاتَّبَعُونِي ، فقالوا لي : والله ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا ، ولقد عَجَزْتَ أَلَّا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بما اعتذرتَ به الْمُتَخَلِّفُونَ ، قد كان كافيكَ ذنبك استغفارُ رسولِ اللهِ ﷺ لك . فوالله ما زالوا يُؤْتِبُونِي حتى أردتُ أن أَرْجِعَ فَأَكْذَبَ نَفْسِي ، ثم قلتُ لهم : هل لَقِيَّ هذا معي أَحَدٌ ؟ قالوا : نعم ، رجلاً قالاً مثلَ ما قلتَ ، فقيلَ لهما مثلُ ما قيلَ لك ، فقلتُ : مَنْ هما ؟ قالوا : مُرارةُ بنِ الربيعِ العَمْرِيُّ ، وهلالُ بنِ أُمَيَّةِ الواقِئِيُّ ، فذكروا لي رجلينِ صالحينِ قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوةٌ ، فمضيتُ حينَ ذكروهما لي .

٧- الرسولُ ﷺ يربِّي هؤلاء الثلاثة بهجرهم والنهي عن تكليمهم .

ونهى رسولُ اللهِ ﷺ المسلمينَ عن كلامنا - أيها الثلاثة - مِنْ بَيْنِ مَنْ

(١) فصاحة وقوة كلام .

(٢) تغضب .

(٣) ونبوا .

تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحبائي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما ببيكان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنْتُ أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواق، ولا يكلمني أحدٌ، وأتى رسولُ الله ﷺ فأسلمَ عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقولُ في نفسي: هل حرَّكَ شَفَتَيْهِ برَدَّ السلامِ عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسأله النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُ نحوَه أعرضَ عني.

[يا هاجري قسما بربك مت من شوقي إليك تعيش أنت وتسلم إن كان ذنبي الإنقطاع فحبكم باق، وأنتم في الحقيقة أنتم] حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت^(١) جدارَ حائطِ أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي - فسلمتُ عليه، فوالله ما ردَّ عليَّ السلامَ، فقلتُ: يا أبا قتادة! أنشدك بالله هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكتَ، فعُدتُ فنشدته فسكتَ، فعُدتُ فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم!

ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورتُ الجدارَ.

[كيف السبيل لِكتمِ أشرارِ الهوى ولسانِ دمعي في الغرامِ يُترجمُ ولقد كتمتُ هواك لكن مقلتي شوقًا إلى مغناك ليست تكتمت]

(١) علوت.

٨- ملك غسان يغري كعباً باللحوق به والردة عن الإسلام.

فبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبِطِي^(١) من أُنْبَاطِ أهل الشام ممن قَدِمَ بالطعام يَبِيعُهُ بالمدينة، يقولُ : مَنْ يَدُلُّ على كعب بن مالك؟ فَظَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ له، حتى إذا جِئني دَفَعَ إليّ كتاباً من ملكِ غسان^(٢) فإذا فيه : « أما بعدُ، فإنه قد بَلَغني أَنَّ صاحِبَكَ قد جفاكَ، ولم يَجعلكَ اللهُ بدارِ هَوَانٍ ولا مَضِيعَةٍ، فالْحَقُّ بنا نُواسِيكِ ».

فقلتُ لما قرأتُها : وهذا أيضاً من البلاء، فَتَيَمَّمْتُ بها التَّنَوَّرَ، فَسَجَرْتُهُ^(٣) بها .

[ما شاهدوا ذاك الجمال وقد بدا فأننا الأصمُّ عن الملام وهم عموا
ولئن دروا أنني عَشِقتُ فإنه ليهوى القلوبُ سريرةً لا تُعلمُ]
٩- الرسول ﷺ يأمره باعتزال أهله .

حتى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين، إذا رسولُ الله ﷺ يأتيني، فقال : إن رسولَ الله ﷺ يأمرُك أن تعتزِلَ امرأتَكَ، فقلتُ : أطلَقُها أم ماذا أفعلُ؟ قال : لا، بل اعتزلها ولا تَقْرَبها، وأرسلَ إلى صاحِبِي مثلَ ذلك . فقلتُ لامرأتي : الحَقِي بأهلك، فتكوني عندهم، حتى يَقْضِي اللهُ في هذا الأمرِ .

قال كعبُ : فجاءتِ امرأةُ هلالِ بنِ أميةَ رسولَ الله ﷺ، فقالت : يا رسولَ الله إنَّ هلالَ بنِ أميةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادمٌ فهل تكرهُ أن أخدمه؟ قال :

(١) أعجمي .

(٢) كانت « غسان » إذ ذاك - وهم ملوك عرب الشام - حرباً لرسول الله ﷺ .

(٣) ألهيته .

« لا ، ولكن لا يَقْرَبُكَ » ، قالت : إنه والله ما به حَرَكَةٌ إلى شيءٍ ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يُدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها ، وأنا رجلٌ شابٌ .

فلبثت بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كُملت لنا خمسون ليلةً ، من حين نَهَى رسول الله ﷺ عن كلامنا .

[نقف هنا متأملين ومتسائلين : لِمَ هذه الشدة من الرسول ﷺ - فيما يبدو - مع أن الله وصفه بالرفقة والرحمة بالمؤمنين ؟ !

أجل . هذه الشدة لا تنافي كمال رافته ورحمته ﷺ من حيث التربية والتأديب ؛ لأنها سببٌ للتخلص من العقاب المؤبد ، والفوز بالثواب المخلد ، وما أحلى ما قيل !

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقسُ أحياناً على مَنْ يرحمُ]

١٠ - حينما ادلهمت الدنيا في وجه المُخْلِفين انبلج الصباح وعمَّ البشرُ . فلما صَلَّيْتُ صلاةَ الفجرِ صُبِحَ خمسين ليلةً وأنا على ظهرِ بيتٍ من بيوتنا ، فبينما أنا جالسٌ على الحال الذي ذَكَرَ اللهُ قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليَّ الأرضُ بما رَحِبْتُ ، سمعتُ صوتَ صارخٍ فأوقى على جبلٍ سَلَعٍ بأعلى صوته : يا كعبُ بنَ مالكٍ ! أبشِرُ .

[إن واصلوا فالليلُ أبيضُ مشرقٌ أو قاطعوا فالصبحُ أسودٌ مظلمٌ]

١١- سجود الشكر للخروج من ليل الفرقة إلى صبح الوفاق .

قال : فخررتُ ساجداً^(١) ، وقد عرفتُ أن قد جاء فرجٌ . وأذن^(٢) رسولُ الله ﷺ بتوبة الله علينا ، حين صَلَّى الفجر ، فذهبَ الناسُ يُبشروننا ، وذهبَ قِبَلِ صَاحِبِيَّ مَبْشُرُونَ ، وركضَ إليَّ رجلٌ فرساً ، وسعى ساعٍ من أَسْلَمَ ، فأوفى^(٣) على الجبل ، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرس^(٤) .

١٢- مكافأة حامل البشري .

فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشُرني نزعْتُ ثوبيَّ ، فكسوتهُ إياهما ببُشْرَاهُ^(٥) والله ما أملكُ غيرَهما يومئذ ، واستعرتُ ثوبين فلبستُهُما . وانطلقتُ إلى رسولِ الله ﷺ ، فيتلقاني الناسُ فوجاً فوجاً^(٦) ، يُهَنِّونني بالتوبة ، يقولون : لِيَتَهَنِكَ توبَةُ اللهِ عليك .

قال كعبٌ : حتى دخلتُ المسجد ، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ حوله

(١) في سجود « كعب » حين سمع صوتَ المبشِّر دليل ظاهرٌ على أنَّ تلك كانت عادةَ الصحابة ، وهي سجود الشكر عندَ النعم المتجدِّدة والنقم المندفعة . وقال « أبو بكره » ﷺ : كان رسولُ الله ﷺ إذا أتاه أمرٌ يسره خَرَّ للهِ ساجداً شكراً لله تبارك وتعالى . أخرجه أبو داود (٢٧٧٤) والترمذي (١٥٧٨) وابن ماجه (١٣٩٤) وسنَّدهُ حسن .

(٢) أعلن .

(٣) أشرف وأطلع .

(٤) في استيقاق صاحب الفرس ، والراقي على سَلْعٍ لبشُرًا كعبًا دليلٌ على حرص القومِ على الخير واستيقاقهم إليه ، وتنافسهم في مسرَّة بعضهم بعضًا . « زاد المعاد » (٣ : ٥٨٥) .

(٥) في نزع « كعب » ثوبيه وإعطائهما للبشير دليلٌ على أنَّ إعطاءَ المبشِّر من مكارم الأخلاق والسَّيِّم ، وعادةُ الأشراف . « زاد المعاد » (٣ : ٥٨٥) .

(٦) جماعة جماعة .

الناسُ، فقام إليَّ « طلحةُ بنُ عبيدِ الله »^(١) يُهْرَوُلُ حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره. ولا أنساها لطلحة.

١٣- فرحُ الرسول ﷺ بتوبة الله على الثلاثة.

قال كعبٌ : فلما سلَّمْتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ - وهو يَبْرِقُ وجهه من السرور - : « أُبَشِّرُ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ »^(٢) قال : قلتُ : أمِنَ عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا ، بل من عند الله » وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُه حتى كأنه قطعةُ قَمَرٍ^(٣) ؛ وكنا نعرف ذلك منه .

[والأنبياءُ بُدُورٌ وهو أكملُهُم والكلُّ تيجانٌ حُسنٍ وهو إكليلٌ]

١٤- التصدق بالمال شكرًا لله تعالى .

فلما جلستُ بين يديه قلت : يا رسولَ الله ! إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ، قال رسول الله ﷺ : « أمسكْ عليك بعضَ مالِك ، فهو خيرٌ لك » .

قلت : إني أُمسك سَهْمِي الذي بخيرٍ .

(١) هو أحد العشرة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى. استشهد سنة (٣٦ هـ) يوم الجمل عن سن (٦٤) سنة. « الإصابة » (٣: ٥٢٩).

(٢) فإن قيل: فكيف يكون هذا اليوم خيرًا من يوم إسلامه؟ قيل: هو مكتمل ليوم إسلامه، ومن تمامه، فيوم إسلامه بداية سعادته، ويوم تويته كمالها وتماؤها. « زاد المعاد » (٣: ٥٨٥)

(٣) في هذا دليل على ما جعل الله فيه ﷺ من كمال الشفقة على الأمة، والرحمة بهم والرفقة، حتى لعل فرحه كان أعظم من فرح « كعب » وصاحبيه. « زاد المعاد » (٣: ٥٨٥).

١٥- الصدق سفينة النجاة.

فقلت : يا رسولَ الله إنَّ الله إنما نَجَّاني بالصدق^(١)، وإنَّ من توبتي ألاَّ أحدثَ إلاَّ صِدْقًا ما بقيتُ. فو الله ما أعلمُ أحدًا من المسلمينَ أبلأه الله في صِدْقِ الحديثِ منذ ذكرتُ ذلكَ لرسولِ الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ما تعمَدْتُ منذ ذكرتُ ذلكَ لرسولِ الله ﷺ إلى يومي هذا كذِبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيتُ.

وأَنْزَلَ اللهُ - تعالى - على رسوله ﷺ : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ^(٢) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَقْتُمْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ بِمَا رَحِمَتْ وَصَافَقْتُمْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَسْتُوْبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ^(٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (التوبة : ١١٧ - ١١٩).

فو الله ما أنعمَ اللهُ عليَّ نعمةً قطُّ، بعد أن هداني للإسلام أعظمَ في نفسي من صدقي لرسولِ الله ﷺ ألاَّ أكونَ كذِبْتُهُ، فأهلكَ كما هلكَ الذين

(١) السعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب.

(٢) هذا من أعظم ما يُعرَفُ العبدُ قدرَ التوبةِ وفضلها عند الله، وأنها غاية كمالِ المؤمن، ولا يعرف هذا حقَّ معرفته إلا من عرَفَ الله، وعرَفَ نفسه، وأنَّ ما قام به من العبودية بالنسبة إلى حقِّ ربه عليه كقطرة في بحر، هذا إذا سلِمَ من الآفات الظاهرة والباطنة.

(٣) تأمل تكريره - سبحانه وتعالى - توبته عليهم مرتين في أول الآية وآخرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لفعلها وتفضل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه وله وفي يديه، يعطيه من يشاء إحساناً وفضلاً، ويحرمه من يشاء حكمةً وعدلاً. « زاد المعاد » (٣ : ٥٩٢).

كَذَّبُوا، فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا، حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَرَاءً يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِ عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿ (التوبة: ٩٥ - ٩٦).

قال كعبٌ: وَكُنَّا تَخْلِفْنَا - أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ - عَنْ أَمْرِ أَوْلَادِكَ الَّذِينَ قَبْلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرُوا لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا، حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ (التوبة: ١١٨).

وليس الذي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِفْنَا عَنِ الْغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ «^(١)».

* * *

□ تأمل واعتبار:

حينما تحققوا بأن لا ملجأ إلى الله إلا إليه توجهوا واقفين ببابه، منقطعين إلى رحابه، تاب عليهم وذلك حين رأى - سبحانه وتعالى - صدق تضرعهم بين يديه، وقد عراهم من الضيق ما عراهم مما أذهلهم عن كل شيء إلا عن مولاهم؛ إذ صدر منهم ما ينافي مقامهم، وما لا يليق بحالهم، وحينما صدقوا بعبوديتهم لله - تعالى - أمطر عليهم وابل سحائب كرمه، وأشرق على آفاق

(١) أي: أنهم خُلِفُوا مِنْ بَيْنِ مَنْ خَلَفَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاعْتَدَرَ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ، فَخَلَفَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ عَنْهُمْ، وَأَرْجَأَ أَمْرَهُمْ دُونَهُمْ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ تَخْلُفُهُمْ عَنِ الْغَزْوَةِ، لِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ لَقَالَ: تَخْلِفُوا.

أسرارهم أنوار محبته، فأنسهم بعد يأس، ومَنَّ عليهم بعد قنوط ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْبَ مِنْ بَعْدِ مَا فَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ (الشورى: ٢٨)، وما أعذب قوله!

هَجَرُوا وَالْهَوَىٰ وَصَالَ وَهَجَرَ هَكَذَا سَنَّتِ الْغَرَامَ الْمَلَاخَ

النجاة في الصدق والتوبة

لم يسلك « كعب بن مالك » مسلك المنافقين، الذين انتحلوا الأعدار للنبي ﷺ في تخلفهم عن الغزوة مع أن النبي ﷺ قَبِلَ اعتذارهم، ووَكَّلَ سرائرهم إلى الله. وكان - كما تحدَّث عن نفسه - قد أُوتِيَ جَدلاً وحرطاً كبيراً من البيان.

لقد آثر الصدق، وأبان بأنه تخلف من غير عذر، وتحمل تبعات صدقه، وكم كانت شاقّة، ولم يأسف لذلك، بل فرح بتوبة الله - سبحانه وتعالى - عليه بعد ذلك فرحاً شديداً، وَصَفَهُ له النبي ﷺ بأنه خيرُ يومٍ مرَّ عليه منذ ولدته أمه، وردَّ ذلك كعبٌ إلى أنه صدق رسولَ الله ﷺ، فهو الذي كانَتْ به نجاته، وهو الذي كان سببَ توبة الله - تعالى - عليه، وهو الذي تَنَزَّلَ من أجله في شأنه قرآنٌ يُتلى.

فأين هذا من كذب المنافقين، الذين تَنَزَّلَ القرآن بسببه ينعتهم بأقبح ما تُنعتُ به الأفعال، ويقرر مصيرهم بالاستقرار في جهنم، ويعلن سخط الله عليهم؟

والكذبُ - بحد ذاته - ضعفٌ ومهانة . قال بعض الفضلاء : لو لم أَدعِ الكذبَ تأثُّماً^(١) لَتَرَكْتُهُ تَكْرُماً .

ألا إن الصدق من خير خصال المسلم ؛ وإن الكذب من أبرز خلال المنافق .

لذلك قال النبي ﷺ : « إنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا »^(٢) .

وما أجملَ ختمَ ربِّ العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ !^(٣) (التوبة: ١١٩) لقد سلك « كعب » وصديقه مسلك الصادقين .

قال ابن القيم^(٤) : في نهى النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب، وأما المنافقون، فجرمهم أعظم من أن يُقابل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق، ولا فائدة فيه، وهكذا يفعلُ الربُّ - سبحانه - بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدِّبُ عبده المؤمن

(١) تأثُّمٌ : كَفٌّ عن الإثم .

(٢) أخرجه البخاري في « صحيحه » في (كتاب الأدب) (٦٠٩٤) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب البر) (٢٦٠٧) من حديث « عبد الله بن مسعود »، واللفظ لمسلم .

(٣) « صور وعبر » (٤٨٨) بتصرف .

(٤) « زاد المعاد » (٣ : ٥٧٨) .

الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأمّا من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخلى بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرور يُظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عينُ الإهانة، وأنه يُريد به العذابَ الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: « إذا أراد الله بعبْدٍ خيرًا عَجَّلَ له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبْدٍ شرًّا أمسكَ عنه عقوبته في الدنيا، فَيَرُدُّ يَوْمَ القيامة بذنوبه »^(١). اهـ

وجرت سنة الله ﷻ أن يَتَّبِعِي الأنبياء والصدّيقين ليرفعهم إلى أعلى المنازل. لذا مما يستنبط من هذا الحديث ما قاله « ابن حجر »: « أن القوي في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين »^(٢).

وذلك بسبب صدق القويّ في فعله وقوله وحاله ومقاله.

ومن الابتلاء الشديد عند الصحابة الصادقين إعراضُ الرسول ﷺ عن أحدهم تربيةً له. لذلك هؤلاء الثلاثة حينما أعرض عنهم الرسول ﷺ ضاقت عليهم الأرضُ بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وتقطعت أوصال أكبادهم، وتملّكهم الندم، وأجهشوا بالبكاء، وابتضت أعينهم من الحزن شاء الله - تعالى - أن يتوب عليهم ليتوبوا. كل هذا بتربية المربي الحاذق، والمعلّم القائد ﷺ لأصحابه الصادقين.

لقد علّمهم بكل الوسائل، ورباهم بصنوف التربية، بالقول والفعل، وبالسرور والغضب، وبالترغيب والترهيب، وبالإقبال والإدبار، حتى

(١) أخرج « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب الزهد) (٢٣٩٦) نحوه.

(٢) « فتح الباري » (٨: ١٢٣).

أصبحوا مضرِبَ المثل في الأخلاق الحسنة، والقُدوة الصالحة، وخفقت على هامات مجدهم ألويةُ الحمد، وأضاءت في سماء معاليهم كواكبُ المجد.

ولما تهذبت نفوس هؤلاء الثلاثة ولم تبقَ لهم شائبة صعدوا إلى مدارج القبول، وبذلك صار وجهه ﷺ يبرُق من السرور والحبور، مستنيراً وضاءً حتى كأنه قطعةُ قمرٍ فرحاً بتوبة الله - تعالى - على أصحابه. فهو ﷺ يحب للناس ما يحب لنفسه.

وما أَلطفَ قولَ القائلِ !

هو رحمةٌ للناسِ مُهداةٌ فيا	ويخ المعاندِ إنّه لا يُرحمُ
نالَ الأمانَ المؤمنونَ به إذا	شبتَ وقودًا بالطغاةِ جهنمُ
اللّه أَيْدُهُ فليس عن الهوى	في أمرِهِ أو نهْيِهِ يتكلّمُ
فليحذرِ المرءُ المخالفُ أمرَهُ	من فتنةٍ أو من عذابٍ يُؤلمُ

* * *

المبحث الثالث عشر

العفو



حسرة الرسول ﷺ على خسارة أرواح قريش

أثنى الله - سبحانه - على رسوله محمد ﷺ بأن أرسله رحمة للعالمين . وأعظمُ مظهرٍ من مظاهر الرحمة ، وذروةُ سنامها أن يُنقذَ رجلٌ الناسَ من الهلاك . ولخصائص قريش ومكانتها بين العرب حَرَصَ ﷺ على إسلامهم ، وتحسّرَ على عنادهم ، وخسارة أرواحهم في الحروب مع المسلمين ، فها هو الرسول ﷺ يعبّر عن هذه الحسرة بقوله :

« يا وَيْحَ قريشٍ ! لقد أَكَلْتَهُمُ الحربُ ، ماذا عليهم لو خَلَوْا بيني وبين سائر الناس ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فماذا تظنُّ قريشٌ ؟ والله إني لا أزال أجاهدُهم على الذي بعثني الله له حتى يُظهِرَهُ اللهُ له أو تَنْفِرِدَ هذه السالفةُ »^(١) .

إنها كلماتٌ ملؤها الأسى ، يبوح بها لسانه ﷺ ، تذوب معها نفسه ، يعتصرها الألم على قومه وقد تملكهم الغرور والكبرياء . وقد بذل الرسول ﷺ ما في وسعه ؛ لإفهام قريش أنه لا يريد حرباً معهم ، بل هو يكره الحرب .

بادر النبي ﷺ إلى مَواذعة قريش ، تلبيةً لرَغْبته الظاهرة في السَّلْمِ والسَّلَامِ ، مع أنه ﷺ حديثٌ عهدٌ بهم ، في حربٍ كادت - لولا العنايةُ الإلهية - تنسِفُ

(١) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (٤: ٣٢٣) من حديث طويل في « صلح الحديبية » عن « المشور بن مخزومة » و « مروان بن الحَكَم » وانظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٣٢٣) و « السيرة النبوية » لمهدي رزق (٢: ٣٣) .

المدينة، وتقتلع منها جذور الإسلام، وتأتي على المسلمين جميعاً، كما في غزوة الأحزاب.

قال ﷺ وهو في طريقه إلى بيت الله الحرام: «والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطَّةً يُعَظَّمون فيها حرَمَاتِ الله، إلا أعطيتهم إيَّاهَا»^(١).

فهذه نسمات يعبُقُ بها لسانُ من طَهَّره ربه وزكَّاه، وخصَّه بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة.

بعد تلك الحرب الضروس، وما قبلها من الحروب والمواجهات والدماء المهرقة يعلن ﷺ استعداداً للمهادنة الإيجابية في سبيل الدعوة إلى الله، وتعظيم حرَمَاتِ الله، وصلة الرحم التي أمر الله بها أن توصل.

ولا يبدو في هذه الخطوة الإيجابية نحو السلم أيُّ أثرٍ للذات، ولا أية رواسبٍ للماضي القريب والبعيد الأسود، والظلم الصارخ الذي من كَفَّار قريش.

التوجيه النبوي للرِّمَاءِ

ثبت في الصحيح: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَجْلَسَ جَيْشًا مِنَ الرِّمَاءِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ «عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ» وَقَالَ: «لَا تَبْرَحُوا. إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا»^(٢). وفي رواية قال ﷺ للرِّمَاءِ: «إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ

(١) أخرجه «البخاري» في «صحيحه» في (كتاب الشروط) (٢٧٣١).

(٢) أخرجه «البخاري» في «صحيحه» في (كتاب المغازي) (٤٠٤٣).

رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَى الْعَدُوِّ وَأَوْطَأْنَا هُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ» (١).

وفي رواية : وأمر على الرماة « عبد الله بن جبير » وهو مُعَلِّمٌ يَوْمئِذٍ بِشِيبِ بَيْضِ، والرماةُ خمسون رجلاً، فقال : « انْضَحِ الْخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ، لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، فَابْتُثْ مَكَانَكَ، لَا نُؤْتِيَنَّ مِنْ قَبَيْكَ » (٢).

□ سبب الهزيمة مخالفة الرماة أوامر الرسول ﷺ.

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده، فحشوهم (٣) بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها.

روى ابن إسحاق عن الزبير، أنه قال : والله لقد رأيتني أنظر إلى خَدَمٍ (٤) « هند بنت عتبة » وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليلٌ ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخللوا ظهورنا للخيل، فأتينا من خلفنا، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قُتِلَ، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يذنو منه أحدٌ من القوم (٥).

قال « المقرئ » : « وما ظفر الله نبيه ﷺ في موطن قط ما ظفره وأصحابه

(١) « البداية والنهاية » (٥ : ٣٨٣).

(٢) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ٧٠) و « البداية والنهاية » (٥ : ٣٥٢) و « إمتاع الأسماع » (١٢٤).

(٣) قتلوهم واستأصلوهم.

(٤) الخدم : الساق موضع الخلخال.

(٥) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣ : ٨٢) و « البداية والنهاية » (٥ : ٣٧٣) و « المواهب اللدنية » (١ : ٣٩٧).

يوم أُحُدٍ حتى عَصَوْا الرسول، وتنازعوا في الأمر..» (١).

□ نتائج مخالفة الرماة .

لم يترك ﷺ تعبيراً في أسلوب القيادات الحربية المحذرة إلا حدّثهم به في أوامره ووصاياه، وأراهم منافع المحافظة على هذه الأوامر و الوصايا، ويّن لهم مضارّ التهاون والغفلة عنها، وعرفهم مكانتهم، ووزنهم الخطير في موقفهم لحماية ظهر الجيش ؛ لأن الجيش الذي تحمي ظهره قوةٌ يُوثق بها، ويُطمئن إلى يقظتها وحرصها عليه يجعل ثقله كلّه في حملته على جيش أعدائه.

ومن أجل هذه الأهمية لهذه الحماية أبرزها القائد الأعظم محمد ﷺ في أسلوب القيادة الحازمة، والأوامر الحربية الصارمة، وصاغها في عبارات تكاد تكون معجزة في معانيها ومراميتها، وإن كانت قد جاءت في سهولة بيانها، وسماحة تعبيرها خالية من الغموض والتعقيد حتى لا تترك مجالاً للتأويل والتحريف، ولو لم يكن فيها إلا قوله ﷺ « إِنَّا لَا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا نُنَبِّئُكُمْ مَكَانَكُمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ عَلَيْهِمْ » لكفى لمن كان له قلب لا تستهويه الدنيا بزخارفها (٢).

لقد كان المسلمون في « غزوة بدر » مثالَ الطاعة والانضباط، لذلك نصرهم الله وهم قِلّة، وعلى الرغم من تأكيد الرسول ﷺ على الطاعة والانضباط في (غزوة أُحُدٍ) فقد فقدوا هذا المعنى في هذه المعركة. لقد جرّهم التعلّق بالمادة إلى مخالفة الرسول ﷺ وقالوا : مالنا في الوقوف من

(١) في « إمتاع الأسماع » (١٢٧).

(٢) انظر « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » (٢: ٣٠٣) و« محمد رسول الله ﷺ » (٣:

حاجة، وذكّرهم رئيسهم « عبد الله بن جُبَيْر » قائلاً : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟

وقال لهم : أمّا أنا فلا أبرح مكاني، فخالفه أكثرهم، وانطلقوا إلى الغنائم، وثبت معه عشرة رماة، حينذاك اهتبل هذه الفرصة « خالد بن الوليد » ومعه « عكرمة بن أبي جهل »، فشدّ على بقية الرّماة فقتلهم، واندفع بخيله في ظهور المسلمين وأخذوهم على غرّة وهم لاهون بجمع الغنائم، وصاح في قريش : أن ارجعوا، فعاد كلُّ منهزم منهم، واندفعت قريش كالسيل الآتي إلى معسكر المسلمين، وصار المسلمون بين نارين، وهناك دارت الدائرة على المسلمين، ووقع الاضطراب في صفوفهم وصار كلُّ واحد يُلقي ما في يده من مغنم، وعاد إلى سيفه يسألُه ليقاتلَ به، ولكن هيهات هيهات، لقد تفرقت الصفوف، وتمزقت الوحدة.

لقد كانوا منذ ساعة يقاتلون بوحى من إيمانهم، ودفاعاً عن عقيدتهم، وهاهم الساعة يقاتلون لينجوا من براثن الموت، ويفلتوا من ذلّ الأسر، وكانوا يقاتلون متراضين متضامين، وهم الآن يقاتلون مبعثرين متفرقين، لا نظام يجمعهم، ولا وحدة تشملهم، وكانوا يقاتلون تحت قيادة حكيمة حازمة، وهم الآن يقاتلون ولا قيادة لهم^(١).

وهذا من نتائج مخالفة تعليمات الرسول القائد ﷺ التي أصدرها إلى الدريّة.

(١) انظر « السيرة النبوية » لأبي شعبة (٢: ١٩٥).

□ عفو الرسول ﷺ عن الرماة :

إنَّ الرماة الذين أَخْطَؤُوا الاجتهاد في « غزوة أُحُد » لم يخرجهم الرسول ﷺ خارج الصفِّ، وعفا عنهم وسامحهم، ثم شمل - سبحانه وتعالى - برعايته وعفوه جميع الذين اشتركوا في هذه الغزوة على الرغم مما وقع من بعضهم من أخطاء جسيمة، وما ترتب عليه من خسائر فادحة، فعفا - سبحانه وتعالى - عفواً غسل به خطاياهم، ومحا به آثار تلك الخطايا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

وهناك أمرٌ مهم يتصل بهذا العفو : أنهم يشعرون أن الرسول ﷺ هو وحده المتأثر والمتضرر، وهو الذي تحمّل نتيجة تلك الأخطاء فلا بد أن ينالوا منه عقاباً وتعنيفاً بمقتضى الجبلة البشرية حيث صدروا عنه وحياض الأحوال مترعة، وشمروا للهزيمة والحرب قائمة على ساق، ولكنه ﷺ عفا عفواً لا يُعهد له نظير، ولا يُجارى فضلاً عن أن يُسبق، فهو ﷺ سمح السجية وقد أمره الله - سبحانه وتعالى - بأن يعفو عنهم، وحثه على الاستغفار لهم، كما أمره أن يأخذ رأيهم والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفاً له عن الاستفادة من خبراتهم ومشورتهم.

قال تعالى : ﴿ فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمَتَّوَكِّلِينَ ﴿ (آل عمران : ١٥٩) ^(١) .

قال الألوسي : فبرحمة عظيمة كائنة من الله - تعالى - كنت لين الجانب لهم ولم تعنفهم ، وأفادَ كلامُ الله - تعالى - هذا فائدتين :
الأولى : ما يدلّ على شجاعته ﷺ .

والثانية : ما يدل على رفقته ، فهو من باب التكميل .

وقد اجتمعت فيه ﷺ هاتان الصفتان يوم أُحد حيث ثبت حتى كَرَّ عليه أصحابه مع أنه عَرَاه ما عَرَاهُ ، ثم ما زجرهم ولا عَنَفَهُم على الفرار بل آسَاهم في الغم ^(٢) .

وما أَصَدَقَ قولَ القائل!

أما والذي آتاه مجداً مؤثلاً لقد كان كَهْفًا لِلْعُقَاةِ وَمَغْفَلًا ^(٣)
يُبَوِّئُهُمْ سِتْرًا مِنَ الْجِلْمِ مُسَدَّلًا وَيُمَطِّرُهُمْ غَيْثًا مِنَ الْجُودِ مُسَبَّلًا
وَيَنْزِعُ فِي إِكْرَامِهِ كُلَّ مَنْزِعٍ

□ الفوائد والحكم المستفادة من غزوة أُحد :

قال الحافظ ابن حجر : قال العلماء : وكان في قصة أُحد ، وما أصيب به المسلمون من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة ، منها :

(١) انظر « السيرة النبوية » للصلاحي (٢ : ٨٧٥) .

(٢) « روح المعاني » (٤ : ١٠٥ - ١٠٦) .

(٣) يقال : هو عافٍ : أي من جاء بطلب فضلاً أو رزقاً ، وجمعه (عُفَاة) « لسان العرب » (عفا

- ١- تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ، وهو ألا يبرحوا مواقعهم، وأن هذا الشؤم يعم ضرره على مَنْ لم يقع منه.
- ٢- تعريف المسلمين أن عادة الرسل أن تُبتلى، وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين مَنْ ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين، لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أنَّ نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم، فاستعدوا لهم وتحرّزوا منهم.
- ٣- أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس، وكسراً لشموخها.
- ٤- أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لا تبلغها أعمالهم فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن، ليصلوا إليها.
- ٥- أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم.
- ٦- أن الله - تعالى - أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين.
- ٧- في وقوع الابتلاء بالأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - لينالوا جزيل الأجر. قاله النووي، وقال القاضي: وليعلم أنهم من البشر، تصيهم محن الدنيا، ويطراً على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر، ليتيقنوا أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يُفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات،

وتلبس الشيطان من أمرهم ما لبَّسَهُ على النصارى وغيرهم. اهـ
وليتأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، والعاقبة للمتقين.

٨- يستفاد من قول « عبد الله بن مسعود » رضي الله عنه : « كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَّ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : « رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ^(١) مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْحَلْمِ وَالصَّبْرِ ، وَعَفْوِهِمْ عَنْ أَعْدَائِهِمْ الَّذِينَ آذَوْهُمْ ، وَالِدَعَاءِ لَهُمْ بِالْهُدَايَةِ وَالْمَغْفِرَةِ ، فَتَرْتَفِعَ بِذَلِكَ دَرَجَاتُهُمْ ، وَيَتَأْسَى بِهِمْ أَتْبَاعُهُمْ ^(٢) .

عفو الرسول ﷺ عن اليهودية التي سمَّت له الشاة

في غزوة خيبر سمَّت النبي ﷺ « زَيْنُبُ بِنْتُ الْحَارِثِ » امرأة « سَلَامِ بْنِ مِشْكَمٍ » كما في حديث أبي هريرة : لما فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ » فَجُمِعُوا لَهُ . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيٌّ عَنْهُ ؟ » . فَقَالُوا : نَعَمْ يَا أَبَا

القاسم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « مَنْ أَبُوكُمْ ؟ » قالوا : أبونا فلان . فقال رسول

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب أحاديث الأنبياء - باب ٥٤) (٣٤٧٧)،
و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد - باب غزوة أحد) (١٧٩٢).

(٢) « فتح المنعم » (٧: ٣٠٤-٣٠٥) بتصرف، وفيه كلام الحافظ.

الله ﷺ : « كذبتم، بل أبوكم فلان » فقالوا : صدقت وبررت .

فقال : « هل أنتم صادقِّي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » فقالوا : نعم يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبنا، كما عرفته في أيينا .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « من أهل النار؟ » فقالوا : نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ : « اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً . » ثم قال لهم : « هل أنتم صادقِّي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا : نعم .

فقال : « هل جعلتم في هذه الشاة سماً ؟ » فقالوا : نعم . فقال : « ما حملكم على ذلك؟ » فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً نستريحُ منك، وإن كنت نبياً لم يضرَّك^(١) .

وعن جابر بن عبد الله يُحدِّث أن يهوديةً من أهل خيبر سمّت شاةً مَضْلِيَّةً ثم أهدتها إلى رسول الله ﷺ، فأخذ رسولُ الله ﷺ الذراعَ فأكلَ منها، وأكلَ رهطٌ من أصحابه معه . فقال رسولُ الله ﷺ : « ارفعوا أيديكم » وأرسل إلى اليهودية فقال : « أسَممتِ هذه الشاة؟ » .

فقلت : مَنْ أخبرك؟ قال : « أخبرتني هذه في يدي، الذراعُ » . قالت : نعم، قلت : إن كان نبياً فلن يضرَّه، وإن لم يكن نبياً استرخنا منه . فعفا عنها ﷺ ولم يُعاقبها .

وتُوفِّي بعضُ أصحابه الذين أكلوا من الشاة، واحتجَم رسولُ الله ﷺ على

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجزية و المواعدة) (٣١٦٩) و(كتاب الطب)

كاهلِهِ من أجل الذي أكلَ من الشاة^(١).

وفي رواية: جعلت « زينب بنت الحارث » امرأة ابنِ مُشكَم تسأل: أيُّ الشاة أحبُّ إلى محمد؟ فيقولون: الذراعُ، فعمدت إلى عنز لها فذَبَحَتْها وصلَّتْها، ثم عمدت إلى سُمِّ لا يبطئ - يعني لا يلبث أن يقتلَ من ساعته - وقد شاورت يهودَ في سموم، فاجتمعوا لها على هذا السُمِّ بعينه، فسَمَّتِ الشاةَ وأكثرت في الذراعين والكتف، فوضعت بين يديه ومَنَ حضر من أصحابه، وفيهم « بشر بن البراء »^(٢)، وتناول ﷺ الذراع فانتَهَس منها، وتناول « بشر بن البراء » عظماً آخر، فلما ازدرد ﷺ لقمته، ازدرد « بشر بن البراء » ما في يده، وأكل القومُ. فقال ﷺ: « ارفعوا أيديكم، فإنَّ هذه الذراعُ تخبرني أنها مسمومة ».

وفي مغازي سليمان التيمي: أنها قالت: إن كنت كذاباً أرحتُ الناس منك. وقد استبان لي الآن أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضرني على دينك، وأن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله. قال: فانصرف عنها حين أسلمت. فالله أعلم^(٣). اهـ.

وقد كان ﷺ من خلقه أنه لا ينتقم لنفسه، وإذا انتهكت محارمُ الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله، فيعفو عن حقِّه، ويستوفي حقَّ ربه.

* * *

(١) أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الديات) (٤٥١٠).

(٢) شهد العقبة مع أبيه « البراء بن مقرر »، وشهد بدرًا وما بعدها، ومات بعد خيرٍ بخولٍ مسمومًا.

« الإصابة » (١: ٢٩٤) و(٧: ٦٧٠).

(٣) « المواهب اللدنية » (١: ٥٣٣ - ٥٣٤).

عفو الرسول ﷺ العام يوم فتح مكة

قام رسول الله ﷺ غداة يوم الفتح خطيباً، فَحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه ثم قال : « إنَّ مكةَ حَرَمَها اللهُ ولم يُحَرِّمها النَّاسُ . فلا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أن يَسفَكَ بها دماً ، ولا يعصِدَ بها شجرةً . فإنَّ أحدٌ ترخَّصَ بقتالِ رسولِ اللهِ ﷺ فيها فقولوا له : إنَّ اللهَ أذنَ لرسوله ولم يأذنَ لكم . وإنما أذنَ لي فيها ساعةً من نهارٍ . وقد عادتْ حُرْمَتُها اليومَ كحُرْمَتِها بالأَمسِ . وليبلغِ الشاهدُ الغائبَ »^(١).

ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال : « ما تقولون وما تظنون ؟ » .

قالوا : نقول : ابنُ أخٍ وابنُ عمِّ حليمٍ رحيمٍ . قالوا ذلك ثلاثاً .

فقال رسولُ اللهِ ﷺ : أقول كما قال يوسفُ : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف : ٩٢) . فخرجوا كأنما نُشروا من القبور فدخلوا في الإسلام .

وحكى « الشافعي » عن « أبي يوسف » في هذه القصة أنه قال لهم حين اجتمعوا في المسجد : « ما ترون أني صانع بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخُ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريمٍ . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(٢) .

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٢٩٥) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الحج) (١٣٥٤) واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه « البيهقي » في « السنن الكبرى » في (كتاب السير) (٩ : ١١٨) و« سيرة ابن هشام » (٤ : ٥٥) .

أي : الذين أطلقوا، فلم يُسْتَرْقُوا، ولم يؤسروا. والطلاق : الأسير إذا أطلق^(١).

وقال النبي ﷺ يوم فتح مكة : « أَلَا يُقْتَلُ مُدَبِّرٌ، وَلَا يُجَهَّزَ عَلَى جَرِيحٍ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ »^(٢).

والآن هاهي ذي مكة البلدة التي هاجر منها الرسول ﷺ متخفياً قبل ثمان سنوات، خاضعة له مؤمنة برسالته وهدية، وهاهم أولاء الذين طالما ناصبوه العدا، وساموه أصناف الأذية والعذاب مجتمعون حوله في خشوع وترقب وإطراق، فما الذي سيقوله ﷺ لهم اليوم؟

لقد طويت جاهلية قريش، فلتطو معها سائر عاداتها وتقاليدها تحت الأقدام، ولتدفن في غياهب الماضي الذي أدبر.

لقد أعلن الرسول ﷺ المساواة، وحقوق الإنسان صريحة مدوية، وقرّر أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وعلى أنه لا تعاضم إلا بحلة الإسلام، ولا مباهاة إلا بالتمسك بنظامه.

وبناء على ذلك ملكهم الله زمام العالم، وأخضع لهم الدنيا^(٣).

هذا موقف من مواقف العفو الكريم، والصفح الجميل لم يعرفه التاريخ، ولا عُرف مثله في النبل والإحسان، ومكارم الأخلاق. وقفه رسول الله ﷺ مع

(١) « المواهب اللدنية » (١ : ٥٨٠).

(٢) أخرجه « ابن أبي شيبة » في « المصنف » في (كتاب السير) (١٨ : ٦٤).

(٣) انظر « فقه السيرة » للبوطي (٢٨٢).

من أساءوا إليه، وكذبوه وسخروا منه، وآذوه بالقول والفعل، حتى أخرجوه من بلده وآذوا أصحابه، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعشائهم^(١).

* * *

• قال ﷺ: « اليوم يومُ الرحمة ».

وأسلم أبو سفيان فلما سار النبي ﷺ إلى مكة بأصحابه قال ﷺ للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ كتيبة كتيبة على أبي سفيان. فمرت كتيبة فقال: يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار. قال: مالي ولغفار؟ ثم مرت جهيئة. فقال مثل ذلك. حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم « سعد بن عبادة » معه الراية.

فقال « سعد بن عبادة »: يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة.

فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار، ثم جاءت كتيبة - وهي أقل الكتائب - فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير بن العوام. فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: « ما قال؟ ».

قال: قال: كذا وكذا، فقال: « كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة »^(٢).

(١) « محمد رسول الله ﷺ » (٤: ٣٣٨).

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤٢٨٠). الذمار: بالمعجمة المكسورة: الهلاك.

قال ابن حجر : وعند ابن عساكر من طريق أبي الزبير عن جابر قال : لما قال « سعد بن عبادة » ذلك عارضت امرأة من قريش رسول الله ﷺ فقالت :
يا نبيَّ الهدى إليك لجأ
حي قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر
ض وعاداهم إلى السماء
إنَّ سعداً يريد قاصمة الظهر
ر بأهل الحجون والبطحاء
فلما سمع هذا الشعر دخلته رافة لهم ورحمة ، فأمر بالراية فأخذت من
سعدٍ ودُفعت إلى ابنه قيس . ثم دفعها إلى « الزبير بن العوام »^(١) .

• قال ﷺ لخالد : « لم قاتلتَ وقد نهيتك عن القتال ؟ » .
وبعث « سعد بن عبادة » في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم
أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم .
واندفع « خالد بن الوليد » حتى دخل من أسفل مكة ، وقد تجمّع بها « بنو
بكر » و « بنو الحارث بن عبد مناف » ، وناسٌ من هذيل ومن الأحابيش الذين
استنصرت بهم قريش ، فقاتلوا خالداً فقاتلهم فانهزموا ، وقُتل من بني بكر نحو
من عشرين رجلاً ، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة ، حتى انتهى بهم القتل إلى
الحزورة^(٢) إلى باب المسجد حتى دخلوا في الدور ، وارتفعت طائفة منهم
على الجبال .

(١) « فتح الباري » (٨ : ٨ - ٩) و « المواهب اللدنية » (١ : ٥٦٧ - ٥٦٨) ، وقال الحافظ : الشعر
لضرار بن الخطاب الفهري ، وكأنه أرسل به المرأة ليكون أبلغ في المعاطفة عليهم . ومعنى :
كذب سعد ، أي : أخطأ .

(٢) الحزورة : سوق مكة ، ودخلت في المسجد الحرام لما زيد في بنائه .

وصاح أبو سفيان : « مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ وَكَفَّ يَدَهُ فَهُوَ آمِنٌ » . ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال : « ما هذا وقد نَهَيْتُ عن القتال ؟ » . فقالوا : نظن أن خالداً قُوتل وبُدئ بالقتال فلم يكن له بُدٌّ من أن يقاتلهم . وقال رسول الله ﷺ - بعد أن اطمأن - لخالد بن الوليد : « لِمَ قَاتَلْتَ وقد نَهَيْتُكَ عن القتال ؟ » فقال : هم بدؤونا بالقتال، ووضعوا فينا السلاح، وقد كَفَفْتُ يدي ما استطعتُ . فقال : « قضاءُ الله خيرٌ »^(١) .

* * *

• عَفُوُّ الرَسُولِ ﷺ عَمَّنْ آذَاهُ .

وكان ممن لقي الرسول ﷺ في طريقه إلى مكة « أبو سفيان بن الحارث » ابن عمه، وأخوه من رضاع حليلة السعدية، ومعه ولده « جعفر بن أبي سفيان » .

وكان أبو سفيان يألف رسولَ الله ﷺ، فلما بُعِثَ عاداه وهجاه . وكان لقاؤهم له - عليه السلام - بالأبواء^(٢)، وأسلما قبل دخول مكة .

وقيل : بل لقيه هو و« عبد الله بن أبي أمية » ابن عمته « عاتكة بنت عبد المطلب » بين السُّقْيَا والعَرَجِ^(٣)، فأعرض ﷺ عنهما لما كان يلقي منهما من شدة الأذى والهَجْوِ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابنُ عمِّك وابنُ عمَّتِكَ أشقى

(١) « فتح الباري » (٨ : ١١) و« المواهب اللدنية » (١ : ٥٧٠ - ٥٧١) .

(٢) الأبواء: من أعمال الفُزْعِ، وهي بين المدينة والجُحْفَةِ . وفيها قبر أمانة أم الرسول ﷺ « المغانم المطابة » (٢ : ٥٨٥) .

(٣) السُّقْيَا: اسم قرية على بعد يومين من المدينة، وإن الرسول ﷺ كان يُسْتَقَى له الماء العذب منها كما في « مسند أحمد » (٦ : ١٠٠) . والعَرَجُ: موضع على بعد يومين وبعض الثالث من المدينة . انظر « المغانم المطابة » (٨٤٠ ، ٩٢٨) .

الناس بك .

وقال عليُّ لأبي سفيان : ائت رسولَ الله ﷺ من قِبَلِ وجهه فقلْ له ما قال إخوة يوسف ليوسفَ : ﴿ تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ (يوسف : ٩١) فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ منه قولاً ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له ﷺ : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِعَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف : ٩٢) .

ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياءً منه^(١) .

• الصدق منجاة .

سرية « عمرو بن أمية الضمري » إلى « أبي سفيان بن حرب » بمكة ، لأنه أرسل للنبي ﷺ مَنْ يقتله غدراً ، فأقبل الرجل ومعه خنجر ليغتاله ، فلَمَّا رآه النبي ﷺ قال :

« إن هذا يريد غدراً » ، فجذبه « أسيد بن حُضَيْر » فإذا الخنجر بداخل إزاره ، فأسقط في يده فقال ﷺ : « اصدُقني ما أنت ؟ » .

قال : وأنا آمن ؟ قال : « نعم » فأخبره بخبره فخلَّى عنه ﷺ^(٢) فأسلم .

(١) « المواهب اللدنية » (١ : ٥٦٦) .

(٢) « المواهب اللدنية » (١ : ٤٨٨) و « السيرة النبوية » لمهدي رزق (٢ : ٢٦) .

• عفو الرسول ﷺ عن صفوان، وعكرمة :

« صفوان بن أمية بن خلف »، و « عكرمة بن أبي جهل » هربا خوفاً على نفسيهما منه ﷺ لِمَا اقترفاه، ولا سيما (يوم الفتح) إذ وَشَبُوا أَوْشَاباً^(١) من قريش وأتباعهم، وقاتلوا جنود الفتح فَقَتَلَ مِنْهُمْ « خالد بن الوليد » مقتلةً عظيمةً، ومع ذلك فقد أرسل إليهما رسولُ الله ﷺ مؤمناً لهما، فجاءا فأسلم « عكرمة » مكانه^(٢)، واستأجل « صفوان » إسلامه شهرين فأعطاه ﷺ أربعة أشهر.

قالت « عائشة » رضي الله عنها: خرج « صفوان بن أمية » يريد جُدَّةَ ليركب منها إلى اليمن. فقال « عمير بن وهب » : يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيّدُ قومه، وقد خرج هارباً منك ليقدف نفسه في البحر، فأمنه يا رسول الله.

فقال ﷺ : « هو آمن » . فقال عمير : يا رسول الله أعطني آيةً يعرف بها أمانك، فأعطاه الرسول ﷺ عمامته التي دخل بها مكة^(٣).

□ تذييل :

لقد ضاقت على قريش يوم فتح مكة الأرضُ بما رحبت، ولم يجدوا ملجأً يتنفسون فيه أنفاس الراحة إلا أن يلقوا بأيديهم مستسلمين في ضراعة إلى التوبة والندم بين يدي رسول الله ﷺ، فَرَقَّ لَهُمْ ﷺ، وَقَبِلَ مِنْهُمْ ضراعتهم، فأسلموا طائعين ومكرهين، فَقَبِلَ إِسْلَامَهُمْ، ولم يبحث عما في قلوبهم، بل عفا عنهم مستألفاً قلوبهم حتى صلح حالهم أو حال أكثرهم بما

(١) الأوشاب: الأوباش والأخلاق، واحده: وشب. « القاموس » (وشب).

(٢) انظر « سير أعلام النبلاء » (٢٧ : ١٦٤).

(٣) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٤ : ٦٠) و« إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » (٣).

(١٣٥) و« محمد رسول الله ﷺ » (٤ : ٣٣٩).

بِوَأْهِمِ اللّٰهَ - تَعَالَى - مِنْ سَاحَةِ الْإِيمَانِ، وَأَحْسِنِ اللّٰهَ إِلَيْهِمْ بِفَضْلِهِ، فَكَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ قَادَةَ ذَادَةَ، وَسَادَةَ رَادَةَ، وَحَمَلُوا أَلْوِيَةَ الْفَتْحِ وَالْجِهَادِ، وَحَمَلَ مِنْ بَعْدِهِمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَأَحْفَادُهُمْ رَايَاتِ الْهَدَايَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَأَدْرَبُوا بِهَا فِي آفَاقِ الْأَرْضِ بَرًّا وَبِحَرًّا، يَدْعُونَ إِلَى اللّٰهِ، لِيُحَرِّرُوا النَّاسَ مِنْ ذُلِّ عِبَادَتِهِمْ لِلْمَخْلُوقِينَ إِلَى عِزِّ عِبَادَتِهِمْ لِلْمَخْلُوقِ.

هذا العفو هو السلوك الإنساني الرفيع، وهو سلوك القرآن، الذي حضّ على مكارم الأخلاق.

وقد سُئِلَتْ «عائشة» رضي الله عنها عن خُلُقِ رَسُولِ اللّٰهِ صلى الله عليه وسلم فقالت: لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صَحَّاباً فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ^(١).

وعن «عطاء بن يسار»^(٢) قال: لقيت «عبد الله بن عمرو بن العاصي» رضي الله عنه، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. قال: أَجَلٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ. فِي التَّوْرَةِ بِيَعُضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥) وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمَتَوَكِّلَ، لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَحَّابٍ^(٣) فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللّٰهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمَلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ

(١) أخرجه «الترمذي» في «جامعه» في (كتاب البر والصلة) (٢٠١٦)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) تابعي ثقة، كثير الحديث مولى أم المؤمنين ميمونة - رضي الله عنها - روى عن بعض الصحابة. كان مولده سنة (١٩٩هـ) ومات سنة (١٠٣هـ) بالإسكندرية. «تهذيب التهذيب» (٧: ٢١٧).

(٣) سَحَّابٍ وَصَحَّابٍ بِمَعْنَى.

إلا الله، ويُفْتَحُ بها أَعْيُنُ عُمِّي، وَأَذَانُ صُمَّ، وَقُلُوبٌ غُلْفٌ^(١).

* * *

عضو الرسول ﷺ عن « وحشي » قاتل « حمزة »

قَاتَلَ « حمزةُ بن عبد المطلب » قتالاً شديداً، وقتل عدداً من الأبطال، وكان لا يقف أمامه شيءٌ في (غزوة أحد).

كان « وَحْشِيَّ بن حرب الحبشي » عبداً لـ « جُبَيْر بن مُطْعِم » قد اشترط عليه أن يعتقه إن هو قتل « حمزة » ثأراً لعمه « طُعَيْمَة بن عَدِيَّ » الذي قتله « حمزة » يوم بدر.

فكان « وحشي » له بالمرصاد، وكان يقذف بحربة له، قلماً يخطئ بها شيئاً.

وكانت « هند بنت عتبة » تحرّضه كذلك على قتل « حمزة ».

فكمن لـ « حمزة » تحت صخرة، فلما دنا منه رماه بحرْبته حتى خرجت من بين رجليه، فقتله غَدْرًا.

روى الواقدي^(٢) : أن وحشيًا عندما أيقن بموت « حمزة » تذكّر هنداً وما لقيت على أبيها وعمها وأخيها حين مصرعهم يوم بدر، ذهب خلسة إلى جثة حمزة فأخرج كبده، وجاء بها إلى هند ليدلّل على قتل حمزة، فمضغتها ثم

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب البيوع) (٢١٢٥).

(٢) انظر « المغازي » (١ : ٢٨٩).

لفظتها، ونزعت ثيابها وحليها فأعطتها وحشياً، ووعده بدنانير حين الرجوع إلى مكة، وأراها جثته، فقطعت مذاكيره، وجدعت أنفه وأذنيه، وجعلت منها أسورة وخلاخل.

قال ابن إسحاق : حدثني « محمد بن جعفر بن الزبير » قال : خرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة، فوجده ببطن الوادي قد مُثِّل به . فقال : لولا أن تحزن « صفية بنت عبد المطلب » وتكون سنَّة بعدي لتركته حتى يحشر من بطون السباع، وحواصل الطير^(١).

قال ابن هشام : ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال : لن أصاب بمثلك أبداً ! ما وقفتُ موقفاً قط أغيظ إليّ من هذا ! ثم قال : جاءني جبريلُ فأخبرني بقوله :

إن « حمزة بن عبد المطلب » مكتوبٌ في أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله، وأسدُ رسوله .

وكان رسول الله ﷺ وحمزة أخوين من الرضاعة، أرضعتهم مولاة لأبي لهب (اسمها ثويبة).

قال ابن إسحاق : وقد أقبلتُ فيما بلغني « صفية بنت عبد المطلب » لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله ﷺ لابنها « الزبير بن العوام » : القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ؛ فقال لها : يا أمه إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تَرجعي، قالت : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن ولأضبرن إن شاء الله . فلما جاء

(١) « فتح الباري » (٧ : ٣٧١).

الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، قال: حَلَّ سَيْلَهَا، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه، واسترجعت^(١)، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن^(٢).

قال « وحشي » بعد مقتل « حمزة » ﷺ: فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ رَجَعْتُ مَعَهُمْ، فَأَقَمْتُ بِمَكَّةَ حَتَّى فُشِيَ فِيهَا الْإِسْلَامُ ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى الطَّائِفِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُسُلًا فَقِيلَ لِي: إِنَّهُ لَا يَهْجُرُ الرَّسُلَ، قَالَ فَخَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَيْتَنِي قَالَ: « أَنْتَ وَحْشِي؟ » قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: « أَنْتَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ؟ » قُلْتُ: قَدْ كَانَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ بَلَغَكَ، قَالَ: « فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّبَ وَجْهَكَ عَنِّي؟ » قَالَ: فَخَرَجْتُ^(٣).

□ تذييل:

ليس موقف أدق من موقفه ﷺ حينما جاءه « وحشي » مسلماً، وقد قتل عمه « حمزة » ﷺ أسد الله، وأسد رسوله. ومثل به تمثيلاً لم يُمثل بأحد من القتلى مثله، فاحتمل كل ذلك في صبر أولي العزم من الرسل.

فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ مَكَّةَ ضَاقَتْ عَلَى « وَحْشِي » الْمَذَاهِبُ، وَأَرَادَ لِلْحُقُوقِ بِالشَّامِ أَوْ الْيَمَنِ، أَوْ بَعْضِ الْبِلَادِ، وَأَظْلَمَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَيْحَكَ، وَاللَّهِ مَا يَأْتِي مُحَمَّدًا أَحَدٌ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ إِلَّا خَلَّى عَنْهُ. قَالَ: فَاَنْطَلَقْتُ فَمَا شَعَرَ بِي إِلَّا وَأَنَا قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ أَشْهَدُ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ.

(١) أي: قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ١٠١ - ١٠٣).

(٣) اقرأ مقتل « حمزة » بلسان « وحشي » في « صحيح البخاري » في (كتاب المغازي - باب قتل حمزة ﷺ) (٤٠٧٢).

قال « ابن إسحاق » : فقيل لرسول الله ﷺ : هذا وحشي، فقال :
 « دعوه، فلا إسلام رجلٍ واحدٍ أحب إليَّ من قتل ألفٍ كافرٍ »^(١). فقبل
 رسولُ الله ﷺ منه الإسلامَ، ولم يُفزعْه، وسمع منه قصة قتلِ « حمزة »،
 فلما فرغ من حديثه تحرَّك في رسول الله ﷺ ذلك الشعور الإنساني الرقيق
 من غير أن يزاخَمَ طبيعةَ منصبِ النبوة الرفيع، فيرفض إسلامه، أو يثورَ فيه
 الغضبُ، فيقتله شفاءً للنفس، فأبى قلبٌ يتحمل ذلك المصاب، ويصفح
 إلا قلبًا أشرق فيه نور الله - تعالى - برعاية ربه ؟ ! ولم يزد على أن
 قال : « غيَّب وجهك عني فلا أراك »^(٢) إن بشرية رسول الله ﷺ كاملة،
 وإحساسه مرهف، ولكن الرحمة والرأفة والصفح هي طباعه وسجاياه.

إنه درسٌ عظيم من دروس سيد المرسلين صاحب القلب الكبير، وموقفٌ
 نبيل في العفو عند المقدرة عن أساء، وهمة للمعالي تسمو ولا تُسامى،
 وأجاد حسان رضي الله عنهم حين قال :

له هِمَمٌ لا مُنتهى لكِبَارِها وهِمَّتُه الصغرى أجلُّ من الدهرِ
 له راحةٌ لو أنَّ معشَرَ جودِها على البرِّ كان البرُّ أُنْدَى من البحرِ

* * *

(١) « فتح الباري » في (كتاب المغازي) (٧ : ٢٧٠).

(٢) انظر « فتح الباري » في (كتاب المغازي) (٧ : ٢٧٠).

الصفح والعضو من أخلاق الرسول ﷺ

وأما « عكرمة بن أبي جهل » رضي الله عنه فإنه رضي الله عنه إنما أمر بقتله ؛ لأنه كان أشد الناس هو وأبوه أذيةً للنبي ﷺ وأشد الناس على المسلمين، ولما بلغه أن النبي ﷺ أهدر دمه فرَّ إلى اليمن فاتبعته امرأته بنت عمه « أم حكيم بنت الحارث بن هشام » بعد أن أسلمت فوجدته في ساحل البحر يريد أن يركب السفينة، وقيل: وجدته في السفينة فردته، أي: بعد أن قالت له يا بن عم جنتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، لا تُهلك نفسك، فقد استأمنتُ لك.

فجاء معها فأسلم وحسن إسلامه، أي بعد أن قال: يا محمد هذه - يعني زوجتي - أخبرتني أنك أمنتني، قال: « صدقت، إنك آمنٌ » .

فقال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبده ورسوله .
وطأ رأسه من الحياء، فقال له ﷺ: « يا عكرمة ما تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتك ». قال: استغفر لي كلَّ عداوة عاديْتُكها .

فقال ﷺ: « اللهم اغفر لعكرمة كلَّ عداوة عاديها، أو منطِقِ تكلم به » .
ولمَّا قدم عليه ﷺ وثب قائماً فرحاً به، ورمى ﷺ رداءه وقال: « مرحباً بمن جاء مؤمناً مهاجراً »^(١) وكان بعد ذلك من فضلاء الصحابة .

وقال ﷺ قبل أن يقدم عليه عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه: « يأتيكم عكرمة

(١) أخرجه « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب الاستئذان) (٢٧٣٥) وانظر « الإصابة » (٤: ٥٣٨).

مؤمنًا مهاجرًا فلا تسبوا أباه فإنَّ سبَّ الميت يؤذي الحيِّ ولا يلحق الميت .
 وفي رواية : « لا تسبوا الأموات ، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدَّموا »^(١) .
 وفي أخرى : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء »^(٢) .

* * *

عضو الرسول ﷺ عن « كعب بن زهير »

قال ﷺ : « مَنْ لقي كعبَ بن زهير فليقتله » فلمَّا بلغ كعبًا الكتابُ ضاقتْ به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به مَنْ كان في حاضره من عدوِّه فقال : هو مقتول . فلما لم يجد من شيء بُدأ ، قال قصيدته التي يمدح بها الرسول ﷺ ، ويذكر خوفه ، وإرجاف الوشاة به من عدوِّه .

ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفةٌ من جهينة ، فغدا به إلى رسول الله ﷺ فقال : هذا رسولُ الله فقمَّ إليه واستأمنه . فقام حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فوضع يده في يده - وكان رسولُ الله ﷺ لا يعرفه - فقال : يا رسول الله ، إنَّ كعب بن زهير جاء ليستأمنك تائبًا مسلمًا ، فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتُك به ؟

قال رسول الله ﷺ : « نعم » ، قال : أنا يا رسولَ الله كعبُ بن زهير .

فوثب عليه رجلٌ من الأنصار وقال : يا رسول الله دعني وعدوَّ الله أضربُ

(١) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الجنائز) (١٣٩٣) وفي (كتاب الرقاق) (٦٥١٦) .

(٢) « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » (٣ : ١٣٢ - ١٣٣) .

عَنقَه ، فقال ﷺ : « دَعُهْ عَنْكَ فَقَدْ جَاءَ تَائِبًا نَازِعًا » .

قال : فغضب كعبٌ على هذا الحي من الأنصار بما صنع صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير . ثم قال قصيدته اللامية التي أولها :

بانث سعادُ فقلبي اليومَ متبولٌ مُتَمِّمٌ إثرَها لم يُفدَ مكبولٌ^(١)
ومما جاءَ فيها :

أُبَيِّتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أُوَعِدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ
فقد أتيتُ رسولَ الله معترِفاً وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَقْبُولٌ
إنَّ الرسولَ لَنورٍ يُستضاءُ به مهتدٌ من سيوفِ الله مسلولٌ

فكساه النبي ﷺ بُردةً له ، فاشتراها «معاوية» من ولده ، فهي التي يلبسها الخلفاء في الأعياد^(٢) .

من دخل دار حكيم ، فهو آمن

كان « حكيماً بن حزام » ﷺ من أشرف قريش ووجوهها^(٣) .

عاش في الجاهلية ستين عاماً ، وفي الإسلام مثلها ، وكان صديق النبي ﷺ

(١) « المواهب اللدنية » (١: ٦٢٣) و« الرحيق المختوم » (٥٢٧) .

(٢) « الإصابة » (٥: ٥٩٤) .

(٣) وحسبك أنه ابن أخي خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - دخلت أمه الكعبة في نسوة من قريش ، فضربها المخاض ، فأُتيت بنطع ، فولدت عليه حكيماً .

قبل المبعث وبعده، وكان يُحبه ويؤده، ويتمنى لو سَبَقَ إلى الإسلام، ولكن لأمرٍ ما قَضَى اللهُ أن يتأخر إسلامه إلى عام الفتح. ولعلَّ نزعَةً من نزعات سُودِّه في الجاهلية بطَّأَتْ به.

وما كان أشدَّ فرحَ النبي ﷺ بإسلامه! حتى قال: «مَنْ دخل دارَ حَكِيمٍ فهو آمِنٌ»^(١). وتألَّفَه بالعطاء حتى حَسُنَ إسلامه، واكتمل وآتَى أَكْلَهُ جَنِيًّا شَهِيًّا.

* * *

من أخلاق رسول الله ﷺ العفو عن من أراد قتله

أصاب النبي ﷺ مطرٌ فنزع ثوبيه ونشرهما على شجرة لِيَجِفَّا، واضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إليه، فقالوا لِدُعُوثِ بْنِ الْحَارِثِ: قد انفرد محمدٌ فعليك به.

فأقبل ومعه سيفٌ حتى قام على رأسه ﷺ فقال: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنْي الْيَوْمَ؟ فقال ﷺ: اللهُ. فدفع جبريل في صدره، فوقع السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ، فقال: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنْي الْيَوْمَ؟ فقال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ثم أتى قومَه فدعاهم إلى الإسلام. وأنزل الله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ

(١) وأشار «ابن حجر» في «الإصابة» (٢: ١١٣) إلى صحة هذا الخبر بقوله: ثَبَّتَ فِي السِّيرَةِ وَفِي الصَّحِيحِ. وانظر «مجمع الزوائد» (٦: ١٧٢).

عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ (المائدة : ١١).

عن جابر قال : كنا مع النبي ﷺ بذات الرِّقَاع ، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ . فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه فقال له : أتخافني؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك مني؟ قال : الله^(٢) .

وعند أبي عوانة : فسقط السيف من يده فأخذه ﷺ فقال : مَنْ يمنعك مني؟ قال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال الأعرابي : أعاهدك أني لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك . قال : فخلي سبيله . فجاء إلى قومه فقال : جئتم من عند خير الناس^(٣) .

وفي رواية عند « البخاري »^(٤) : ثم لم يُعاقبه رسولُ الله ﷺ .

وإنما لم يؤاخذه ﷺ بما صنَع وعفا عنه ، لشدة رغبته ﷺ في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام .

وفي رواية أبي اليمان عند « البخاري »^(٥) قال : مَنْ يمنعك مني (ثلاث مرات) . وهو استفهام إنكاري ، أي : لا يمنعك مني أحدٌ . وقد كان الأعرابي قائماً على رأسه والسيف في يده ، والنبي ﷺ جالسٌ لا سيف معه .

ويؤخذ من مراجعة الأعرابي له في الكلام أن الله - سبحانه - منع نبيه ﷺ

(١) وهذه القصة كانت في غزوة غطفان ، وهي غزوة ذي أتر بنجد . « المواهب اللدنية » (١) : ٣٨٩ و « إمتاع الأسماع » (١١١) .

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي) (٤١٣٦) .

(٣) « فتح الباري » (٧ : ٤٢٨) .

(٤) (٤١٥٣) .

(٥) في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (٢٩١٠) وانظر « فتح الباري » (٧ : ٤٢٧) .

منه (أي: حفظه)، وإلا فما الذي أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الخطوة عند قومه بقتله.

وفي قوله ﷺ في جوابه: «اللَّهُ»، أي: يمنعني منك، إشارة إلى ذلك، ولذلك لما أعادها الأعرابي فلم يزد على ذلك الجواب، ثقةً في الله، واعتصامًا به، وتوكلاً عليه.

وذكر الواقدي في نحو هذه القصة أنه أسلم، ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير.

وقال فيه: إنه رُمِيَ بالزُّلْخَة^(١) حين هم بقتله ﷺ، فندَرَ السيفُ من يده وسقط إلى الأرض. وقال البخاري: قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: «اسمُ الرجلِ غَوْرَثُ^(٢) بن الحارث^(٣)».

وحكى الخطابي فيه: غَوْرِيثُ، بالتصغير. ودُكِرَ في غزوة غطفان، وهي غزوة ذي أمر بناحية نجد مثل هذه القصة لرجل اسمه دعثور، وأنه قام على رأسه ﷺ بالسيف فقال: مَنْ يمنعك مني؟ فقال ﷺ: الله، ودفع جبريل في صدره فوق السيف من يده، وأنه أسلم. قال في عيون الأثر: والظاهر أن الخبرين واحد. وقال غيره من المحققين: الصواب أنهما قصتان في غزوتين.

وفي هذا فرطُ شجاعته، وقوةُ يقينه وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال ﷺ^(٤).

(١) الزُّلْخَة - بضم الزاي وتشديد اللام -: وجع يأخذ في الصلب.

(٢) غَوْرَثُ: على وزن جعفر.

(٣) في (كتاب المغازي) (٤١٣٦) وانظر «إمتاع الأسماع» (١٩٣).

(٤) «المواهب اللدنية» (١: ٤٣٧-٤٣٨) و«إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» (٢: ٣٦٩).

وما ألفت قولَ القائل!

عطاءً ولا منً، وحكْمٌ ولا هوىً وجلْمٌ ولا عجزٌ، وعزٌّ ولا كبرٌ

صفح الرسول ﷺ عن الطلقاء يوم حنين

ثبت في الصحيح^(١) عن أنس، أن أمَّ سُلَيْمٍ^(٢) اتخذت يوم حُنَيْنٍ خنجرًا. فكان معها. فرآها أبو طلحة. فقال: يا رسول الله، هذه أمُّ سُلَيْمٍ معها خنجرٌ. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجرُ؟» قالت: اتَّخَذْتُهُ إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ. فجعل رسول الله ﷺ يضحك. قالت: يا رسول الله، اقتُلْ مَنْ بَعَدَنَا مِنَ الطَّلَاقِ^(٣) انهزموا بك^(٤). فقال رسول الله ﷺ: «يا أمَّ سُلَيْمٍ إِنْ اللَّهُ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ.»

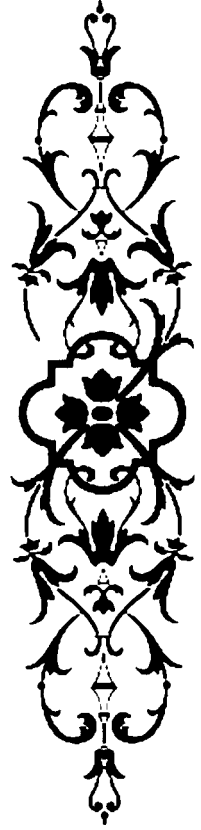
(١) أخرجه «مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد والسير) (١٨٠٩).

(٢) هي بنت بلحان بن خالد، وهي أم أنس، أسلمت مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار، فغضب مالك بن النضر، وخرج إلى الشام فمات بها، فتزوجت بعده أبا طلحة، وكان صداقها الإسلام. ولها درسٌ طريف تعلّم الزوجات حسن العشرة مع الأزواج ذكرها «البيخاري» في «صحيحه» في (كتاب العقيدة) (٥٤٧٠) من حديث أنس. ولها ترجمة في «الإصابة» (٨: ٢٢٧).

(٣) «الطلاق» هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح. سموا بذلك لأن النبي ﷺ من عليهم وأطلقهم. وكان في إسلامهم ضعف، فاعتقدت أم سليم أنهم منافقون، وأنهم استحقوا القتل بانهمزاهم وغيره.

(٤) «انهزموا بك» الباء في «بك» هنا بمعنى عن. أي: انهزموا عنك. على حدّ قوله تعالى:

المبحث الرابع عشر
الدعاء والافتقار إلى الله



الرسول ﷺ يتخذ الأسباب ويلجأ إلى الله بالدعاء والصلاة

قد أثنى الله ﷻ على المتوكلين فقال: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٢). وقال: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: ٣). وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة الإنسان وسعيه إلى مقاصده، وسعي العبد إما أن يكون لجلب نفعٍ مفقود كالكسب، أو حفظٍ موجودٍ كالادخار، وإما لدفع ضررٍ لم ينزل كدفع الصائل، أو لإزالة ضررٍ قد نزل كالتداوي من المرض^(١).

ولو تتبعنا سيرة النبي ﷺ من أولها إلى آخرها لوجدناه يأخذ بالأسباب وهو إمام المتوكلين. والشواهدُ على ذلك كثيرة، أذكرُ بعضها :

كان النبي ﷺ إذا خرج للجهاد يُعدُّ العُدَّةَ من اتِّخاذه الخيل والسلاح، وما يحتاج إليه من آلات الجهاد والسفر، ثم إذا رجع يتعرَّى من ذلك ويردُّ الأمر كله لمولاه ﷻ لا لغيره.

وقال ﷺ لأصحابه: « قولوا: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ».

فلما ارتحلوا قال: « قولوا: آيرون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون ».

فعلى المكلف الامتثال في الحاليتين، أي: امتثال تعاطي الأسباب، والرجوع إلى المولى، والسكون إليه، لساحة كرمه، كما كان ﷺ يأتي

(١) انظر « مختصر منهاج القاصدين » (٣٦٣).

الأسباب أولاً تأديباً مع الربوبية، وتشريعاً لأمته، ثم يُظهر الله - تعالى - على يديه ما يشاء من قدرته الغامضة التي آذرها له ﷺ^(١).

والدعاء لا ينافي الأخذ بالأسباب. هذا رسول الله ﷺ « يوم بدر » يُعدُّ المسلمين للمعركة، ويسوي الصفوف، ويبدل جهده في الإعداد للمعركة.

روي عن « السائب بن يزيد »^(٢) ﷺ قال : « إن النبي ﷺ يوم أُخذ أُخذ درعين كأنه ظاهر بينهما »^(٣).

وفي غزوة خيبر عتبى رسول الله ﷺ كتابه، وصفهم صفوفًا، ووضع الألوية والرايات في أهلها، وتهياً للحرب، ولبس درعين، والمغفر، والبيضة، وفي يده قنّاة وترس^(٤).

وقال « ابن القيم »^(٥) : « إن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباتها قدرًا وشرعًا، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه أكمل الخلق توكلًا، وإنما كانوا يلقون عدوّهم وهم متحصّنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله ﷺ مكة والبيضة على رأسه، وقد أنزل الله عليه : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة : ٦٧).

(١) « المواهب اللدنية » (١ : ٦١١ - ٦١٢).

(٢) هو أزدي، له ولأبيه صحبة، قال: حجّ أي مع النبي ﷺ وأنا ابن ست سنين، مات سنة (٨٢ هـ) وقيل: بعد التسعين. « الإصابة » (٣ : ٢٧).

(٣) أي: لبسهما فوق بعضهما. أخرجه « أبو داود » في « سننه » في (كتاب الجهاد) (٢٥٩٠) و« ابن ماجه » في « سننه » في (كتاب الجهاد) (٢٨٠٦).

(٤) انظر « إمتاع الأسماع » (٣١٣).

(٥) في « زاد المعاد » (٣ : ٤٨٠).

وبعد ذلك يسأل الله نصره، ويستغرق في الدعاء، فهو لم يدع إلا بعد بذل الأسباب، والتحقيق أن الدعاء سببٌ من أهم الأسباب في نجاح المقاصد، وتحقيق الغايات، بل هو أهم أسباب قضاء الحاجات.

هذا طالوت يُعِدُّ عُدَّتَهُ، ويأخذ أهْبَتَهُ، ويبرز لعدوّه، ثم يدعو ربه ويسأله النصر بعد أخذ الأسباب، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَّرُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٠ - ٢٥١).

الدعاء في القتال

الدعاء في القتال وعند التحام الجيشين كان من دأبه ﷺ، ومن أعظم الآداب التي أدب بها جنوده في الحرب؛ لأن الدعاء ولاسيما في هذا الموطن عنوان الفزع إلى الله والالتجاء إليه، وأن لا اعتماد في النصر إلا عليه، ثم هو أمانة على أن هذا القتال في سبيله، ومن أجل نُصرة دينه، قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧)^(١).

دعاؤه ﷺ في غزوة بدر،

تَرَاحَفَ النَّاسِ وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْعَرِيشِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، لَيْسَ مَعَهُ فِيهِ غَيْرُهُ، وَهُوَ ﷺ يَنَاشِدُ رَبَّهُ مَا وَعَدَهُ مِنَ النَّصْرِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ الْيَوْمَ فَلَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا». وَأَبُو بَكْرٍ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيَنْجُزُ لَكَ مَا

(١) انظر « من ذخائر السنة النبوية » (١: ٢٨٧).

وَعَدَكَ^(١). ولما كان يومُ بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثَرهم وإلى المسلمين فاستقلَّهم، فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه، فقال التَّكْبِيلُ وهو في صلته: « اللهم لا تَخْذُلْنِي . اللهم أنشدك ما وعدتني » .

وعن عليّ قال : لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال، ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل فأجده وهو ساجد يقول في سجوده : « يا حيّ، يا قيوم » لا يزيد عليها، فرجعتُ إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، فلم يزل يقول ذلك حتى فتح الله عليه^(٢).

وروي أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق، أخذت رسول الله ﷺ سنّة من النوم ثم استيقظ مبتسماً، فقال : « أبشُر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النُّعْ »^(٣). ثم خرج من باب العريش وهو يتلو : ﴿ سَبِّحْهُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر : ٤٥)^(٤).

هذه العبودية التي اتخذت مظهرها الرائع في طول دعاء النبي ﷺ وشدة ضراوته، ومناشدته لربه أن يؤتیه النصر، هي الثمن الذي استحق به ذلك التأييد الإلهي العظيم^(٥).

(١) أخرجه « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الجهاد) (١٧٦٣).

(٢) أخرجه « الحاكم » في « المستدرک » في (كتاب الإمامة) (١ : ٢٢١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، و« الهيثمي » في « مجمع الزوائد » (١٠ : ١٤٧).

(٣) الغبار.

(٤) « السيرة النبوية » لابن هشام (٢ : ٢٧٩) و« المواهب اللدنية » (١ : ٣٥١ - ٣٥٢).

(٥) « فقه السيرة » للبوطي (١٦٣).

دَعَاؤُهُ ﷺ بَعْدَ انْتِهَاءِ غَزْوَةِ أُحُدٍ

روي عن «عبيد بن رفاعة الزُرقي» عن أبيه : قال : لما كان يومُ أُحُدٍ ، وانكفأ^(١) المشركون ، قال رسولُ الله ﷺ : « اسْتَوُوا حَتَّى أُتِيَّ عَلَى رَبِّي » فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال : « اللهم لك الحمدُ كُلُّهُ ، اللهم لا قابضَ لما بسطتَ ، ولا باسطَ لما قبضتَ ، ولا هاديَ لما أضللتَ ، ولا مضِلَّ لمن هديتَ ، ولا معطيَ لما منعتَ ، ولا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا مقربَ لما باعدتَ ، ولا مباعدَ لما قربتَ .

اللهم ايسر علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك وريزقك .

اللهم اني اسألك النعيمَ المقيمَ ، الذي لا يحولُ ولا يزولُ .

اللهم اني اسألك النعيمَ يومَ العيلةِ ، والأمنَ يومَ الخوفِ .

اللهم اني عائدُ بك من شرِّ ما أعطيتنا وشرِّ ما منعت .

اللهم حبِّبْ إلينا الإيمانَ ، وزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا ، وكرهْ إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ ، واجعلنا من الراشدين .

اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غيرَ خزايا ولا مفتونين . اللهم قاتلِ الكفرةَ الذين يكذبون رسلكَ ، ويصدُّون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك .

(١) انهزم .

اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق»^(١).

دعاؤه ﷺ يوم غزوة الخندق

كان رسول الله ﷺ دعا على الأحزاب فقال: « اللهم مُنَزِّلِ الكتابِ، سريعِ الحسابِ، اهْزِمِ الأحزابَ، اللهم اهْزِمْهُمْ ».

وكان دعاؤه عليهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستجيب له بين الظهر والعصر يوم الأربعاء، فُعِرِفَ السرورُ في وجهه، فلما كان ليلة السبت بعث الله الريحَ على الأحزاب حتى ما يكاد أحدهم يهتدي لموضع رحله، ولا يَقْرُ لهم قِدْرٌ ولا بِنَاءٌ. وقام رسول الله ﷺ يصلِّي إلى أن ذهب ثلث الليل. وكذلك فعل ليلة قَتْلِ « كعب بن الأشرف ». وكان ﷺ إذا حَزَبَهُ الأمرُ أكثر من الصلاة^(٢).

دعاؤه ﷺ لما أشرف على خيبر

روي عن أبي مُعْتَب بن عمرو: أن رسولَ الله ﷺ لما أشرف على خَيْبِر قال لأصحابه، وأنا فيهم: قِفُوا، ثم قال: « اللهم ربَّ السمواتِ وما أظْلُنَّ، وربَّ الأرضينَ وما أفلُنَّ، وربَّ الشياطينِ وما أضْلُنَّ، وربَّ الرياحِ وما أذْرينَ، فإنَّا نسألكَ خيرَ هذه القرية وخيرَ أهلها وخيرَ ما فيها، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلها، وشرِّ ما فيها، أقدموا باسمِ الله ». وكان يقولها - عليه

(١) أخرجه « أحمد » في « مسنده » (٤٢٤: ٣) و« البخاري » في « الأدب المفرد » (٧٠٠) و« ابن كثير » في « البداية والنهاية » (٤٢٢: ٥).

(٢) « إمتاع الأسماع » (٢٣٨).

السلام - لكل قرية دَخلها^(١).

كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ أكثر من الصلاة

ثبت في « الصحيحين » عن « ابن عمر » رضي الله عنهما قال : غزوتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نجدٍ فوازينا العدوَّ، فصافقناهم، فقام رسول الله ﷺ يُصَلِّي لنا، فقامت طائفة معه تصلي، وأقبلت طائفة على العدو، فركَع رسولُ الله ﷺ بَمَنْ معه، وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تُصَلِّ، فجاؤوا فركَع رسول الله ﷺ بهم رَكَعَةً وسجد سجدتين، ثم سلَّم، فقام كلُّ واحد منهم فركَع لنفسه رَكَعَةً وسجدَ سجدتين^(٢).

لا وزنَ عند الله لجهادٍ لم يكن بين المجاهد ومَنْ يجاهد في سبيله صلَّة.

وأَيُّ صلَّةٍ أعظم من الصلاة؟ إن الصلاة عماد الدين، وملاك التقوى في الحَضْر والسفر، والسُّلم والحَرْب، والأمن والخوف، والنضال والقتال. فهي قاعدة كلِّ جهاد، وأساسُ كلِّ دفاع. لا يرفع الله لتاركها عملاً، ولا يتقبل الله منهم قُربة: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة : ٢٧).

وفي الصلاة بعد ذلك قوةٌ للضعفاء، ومعونةٌ للأقوياء، وإماتةٌ بالغيظ للأعداء، ومن أجل ذلك كانت الصلاة من الإسلام عمادَه الأول، وركنَه

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (٣: ٣٤٣) وأخرجه « النسائي » في « عمل اليوم والليلة » (٥٤٤)

عن « صهيب » وعن « أبي مغيث بن عمرو » .

(٢) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في كتاب (صلاة الخوف) (٩٤٢) و« مسلم » في

« صحيحه » في (كتاب صلاة المسافرين) (٨٣٩).

الأجل بعد الإيمان بالله ورسوله^(١).

« عبَاد بن بشر » يتلذذ في مناجاة الله وهو في الحراسة

قال جابر بن عبد الله الأنصاري^{رضي الله عنه}: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل^(٢)، فأصاب رجلٌ امرأةً رجلٍ من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً، أتى زوجها، وكان غائباً، فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يُهريق في أصحاب محمد ﷺ دماً. فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ، فنزل رسول الله منزلاً، فقال: مَنْ رجل يكلؤنا^(٣) ليلتنا هذه؟

فانتدب رجلٌ من المهاجرين، ورجلٌ آخرٌ من الأنصار، وهما « عمار بن ياسر »، و« عبَاد بن بشر »^(٤). فقالا: نحن يا رسول الله. قال: فكونا بقم الشعب. وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي.

قال ابن إسحاق: فلما خرج الرجلان إلى قم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيك: أوله أم آخره؟ قال: بل أكفي أوله.

فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي.

(١) « من ذخائر السنة النبوية » (١: ٢٨٩).

(٢) ذات الرقاع: بئر في الجاهلية قريبة من النخيل على ثلاثة أميال من المدينة. ونخل: موضع بنجد من أرض غطفان. « المعانم المطابة » (٢: ٨١٣) و(٣: ١١١٨).

(٣) يحفظنا.

(٤) من بني عبد الأشهل، شهد بدرًا، واستشهد باليمامة، وهو ابن (٤٥) سنة، وكان ممن قُتل كعب ابن الأشرف. « الإصابة » (٣: ٦١٢).

وأتى الرجلُ، فلما رأى شخصَ الرجلِ عَرَفَ أنه رَيْبَةٌ^(١) القومِ فرمى بسهم، فوضعه فيه، فنزعه ووضعه، فثبت قائماً.

ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائماً، ثم عاد له بالثالث، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد. ثم أَهَبَّ^(٢) صاحبه، فقال: اجلس فقد أُثْبِتُ^(٣). فوثب، فلما رآهما الرجل، عرف أن قد نذراً^(٤) به فهرب.

ولما رأى المهاجريُّ ما بالأنصاريِّ من الدماء، قال: سبحانَ الله! أفلا أَهْبَيْتَنِي أَوْلَ مارماك؟. قال: كنتُ في سورة أقرؤها، فلم أُحِبَّ أن أقطعها حتى أُنفِدها، فلما تابع عليَّ الرميَّ ركعتُ فأذنتك، وإيمُ الله، لولا أن أُضِيعَ ثَغْرًا أمرني رسولُ الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي، قبل أن أقطعها أو أنفِدها^(٥).

* * *

أفصحتُ قصة الصحابيِّين اللذين أقامهما رسولُ الله ﷺ حارسين ثَغْرًا من ثغور المسلمين، عن مبلغ امثال الصحابة أمر الرسول ﷺ القائد، وكشفتُ عن طبيعة الجهاد الإسلامي.

فليس الجهاد في الإسلام طاقةً ماديَّةً، وقوةً عسكرية، وتحركًا ماديًا،

(١) حارسهم.

(٢) أيقظ.

(٣) جُرِحْتُ جُرْحًا لا يمكن التحرك معه.

(٤) علما.

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣: ٢١٨ - ٢١٩) وأشار «البخاري» في «صحيحه» إلى طرف

منه معلقًا في (كتاب الوضوء) باب (٣٤).

ابتغاء النصر كيفما كان الأمر. كلاً، إنه في الإسلام عبادة وتربية وسعادة.
 فعباد ﷺ أراد أن يشغل شطراً من زمن الحراسة الليلية بركعات خاشعة،
 يقف فيها أمام الله - تعالى - ولم يقطع صلاته لألم يشعر به، وإنما قطعها
 استشعاراً بمسؤولية الحراسة التي كُلف بها.

قام عبّادٌ يصلي، ويتبتل ويقرأ ويدعو، ويستغرق في عبوديته لربِّ العالمين
 في جنح الظلام.

فلم يشعر وهو ممتزج ذائب في عبوديته، بوقع السهام في جسمه، الواحد
 تلو الآخر، وراح يتنزّعها بغير مبالاة، كما لو كانت ذباباً يذُبُّه، أو غباراً
 ينفضه.

ومن ثمّ لم تكن به حاجة إلى قطع الصلاة، أو قطع السورة التي كان يتلوها
 فيها، ولولا خوفه من فراغ الثَّغْر إن سقط، واتساع الخطر على المسلمين
 المجاهدين الذين تولّى حراستهم ليناموا، لما قطع صلاته، ليُسَلِّمَ أخاه أمانة
 حفظ الثَّغْر. قال: «وايم الله، لولا أن أضيّع ثَغْرًا أمرني رسولُ الله ﷺ بحفظه
 لقطع نفسي قبل أن أقطعها» يعني صلاته.

هكذا تُنسي حلاوة مناجاة الله - تعالى - الآلام، وهكذا تتكسّر السهام في
 موقف امثال أمر الله، وأمر رسول الله ﷺ.

كم كان «عبّاد بن بشر» متلذذاً بموقف الحراسة، وشرف الرباط في الثَّغْر،
 امتثالاً للأمر! وهو يستشعر قول النبي ﷺ: «عينان لا تمسهما النار: عين
 بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»^(١).

(١) أخرجه «الترمذي» في «جامعه» في (كتاب فضائل الجهاد) (١٦٣٩).

وقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءانَاءَ أَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَرَجُوا رَحْمَةً رَّبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُا الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٩).

يُحكى أنه أصاب أحدَ الصالحين شيءٌ في قدمه فلم يتوجع ولم يتأوه، بل ابتسم واسترجع. فقيل له: أليسُ بك هذا ولا تتوجعُ؟ فقال: إن حلاوة ثوابه أنستني وجعه.

شفقة الرسول ﷺ ودعاؤه لقومه وحلمه عليهم

ثبت في «الصحيحين» أن عائشة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومِك. وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبة إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ يالِيلِ بنِ عبدِ كُلالِ، فلم يُجِبنِي إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفقُ إلا وأنا بقرنِ الثعالبِ^(١)، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إن الله ﷻ قد سمعَ قولَ قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم، فناداني ملكُ الجبال فسَلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد! إنَّ الله قد سمعَ قولَ قومك لك، وأنا ملكُ الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرِك، فما شئتَ؟ إنَّ شئتَ أن أطبقَ عليهمُ الأخشبينِ^(٢)» فقال له رسولُ الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم مَنْ يعبدُ اللهَ وحده، لا

(١) هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل أيضا. «فتح الباري» (٦: ٣١٥).

(٢) هما جبال مكة: أبو قبيس، ومقابله فعيقان.

يشرك به شيئاً»^(١).

هذا موقف لرسول الله ﷺ من مواقفه التي تتلاشى فيها ذاته، ولا يسأل عن نفسه حتى ما يكاد يشعر لها بحق، ويبقى الحق كله لله، ولدين الله، وللدعوة إلى الله.

قال «ابن حجر»: في هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على قومه، ومزيد صبره وحلمه^(٢).

وعن أبي هريرة، قال: قيل: يا رسول الله! ادعُ على المشركين. قال: «إني لم أبعثُ لَعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً»^(٣).

وعن «سهل بن سعد»^(٤) قال: قال النبي ﷺ: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»^(٥).

وثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: قَدِمَ «الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدُّوسِيُّ» وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن دَوْسًا قد كفرتْ وأبَتْ، فادعُ الله عليها، فقيل: هَلَكْتُ دَوْسٌ. فقال: «اللهم اهدِ دَوْسًا وأتت بهم»^(٦).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» في (كتاب بدء الخلق) (٣٢٣١) و «مسلم» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد والسير) (١٧٩٥).

(٢) في «فتح الباري» (٦: ٣١٦).

(٣) أخرجه «مسلم» في «صحيحه» في (كتاب البر والصلوة والآداب) (٢٥٩٩).

(٤) من الخزرج. كان اسمه خَزْنًا فغَيَّرَهُ النبي ﷺ، وهو من مشاهير الصحابة، توفي النبي ﷺ وهو ابن (١٥) سنة. عاش مئة سنة. «الإصابة» (٣: ٢٠٠).

(٥) أخرجه «البيهقي» في «الدلائل» (٣: ٢١٤).

(٦) أخرجه «البخاري» في «صحيحه» في (كتاب الجهاد) (٢٩٣٧) و «مسلم» في «صحيحه» في (كتاب فضائل الصحابة) (٢٥٢٤).

وعن « جابر » قال : قالوا : يا رسول الله أحرقتنا نبأً ثقيفٍ فادعُ الله عليهم .

فقال : « اللهم اهدِ ثقيفًا »^(١) .

العُجْبُ سببُ انكشافِ المجاهدين في حُنين

لقد نصر الله المسلمين بيدر وهم قلّة، وفشلوا أول الأمر في « حُنين » وهم كثرة لأنهم قاتلوا في « بدر » بإيمان وإخلاص وتجرد وانكسار، وصدق توكلٍ على الله، واعتمادٍ عليه وثقةً بنصره، وإيمانٍ بوعدِهِ، مستيقنين بأن النصر من عند الله، لا بكثرة العَدَد ولا قوة العُدَد، فكانوا أهلاً للنصر .

وما ذكره الله - تعالى - في « غزوة حنين » من انكشاف كتائب المجاهدين في ملاقاتِ العدو، وتوليهِم مدبرين عن رسول الله ﷺ، إذ أعجبتهُم كثرتهم فركنوا إليها، فلم تغن عنهم شيئاً، وذلك في قوله جل شأنه : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَسَتْ مَدِيرِينَ ﴾ (التوبة : ٢٥) .

ثم تداركهم الله - تعالى - بفضلِهِ برجوعهم إلى رسول الله ﷺ مقبلين، وسيوفهم في أيديهم كأنها الشُّهُبُ إثر نداء « العباس » عليهم بما أمره به رسول الله ﷺ .

وقد امتنَّ به - سبحانه - عليهم بإنزال السكينة على رسول الله ﷺ وعلى

(١) أخرجه « الترمذي » في « جامعه » في (كتاب المناقب) (٣٩٤٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

المؤمنين، وبتنزل الملائكة مددًا من الله ﷻ ومن تسليطهم على أعدائهم بالقتل والتشريد والإذلال. فاقترضت حكمته - سبحانه - أن أذاق المسلمين أولًا مرارة الهزيمة والانكسار، مع كثرة عددهم وعددهم، وقوة شوكتهم، منعًا لهم من إظهار الترفع، وتنبهًا لهم على أن المطلوب منهم التواضع، وإظهار الشكر كما فعل ﷺ في دخوله مكة واضعًا رأسه منحنيًا على مركوبه، تواضعًا لربه، وخضوعًا لعظمته أن أحل له بلده ولم يحل له لأحدٍ قبله، ولا لأحدٍ بعده، وليبين - سبحانه - لمن قال: « لن نُغلب اليومَ من قلةٍ » أن النصر إنما هو من عند الله.

فلما انكسرت قلوبهم أرسلت خلع الجبر مع بريد ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (التوبة: ٢٦).

وقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن خلع النصر وجوائزته إنما تُفاض على أهل الانكسار، قال تعالى: ﴿ وَزُيْدُ أَنْ نَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿٦﴾ (الفصص: ٥-٦).

فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قد يُنعمُ الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعيم^(٢)

(١) انظر « محمد رسول الله ﷺ » (٤: ٣٧٦ - ٣٨٠).

(٢) انظر « زاد المعاد » (٤: ١٩٤).

النتائج والكتابات

بعد القراءة الماتعة في كتب السنّة والسيرة النبوية التي وقفنا فيها على الخُلُق العظيم في حروب الرسول الكريم ﷺ وأصحابه، وبعد أن عشنا زمنًا في كنف الحبيب ﷺ نقتري أقواله وأفعاله وصفاته وأخلاقه وشمائله وسيرته أخلصُ إلى النتائج الآتية :

- ١- تمكّن الرسول ﷺ في المدينة من تأسيس دولة تقوم على أساس التوحيد، وإقامة العدل والمساواة، والتخلق بالأخلاق الحميدة، وحفظ الأمن، وإدارة البلاد، وإبرام المعاهدات بين المسلمين واليهود والمشركين وغيرهم.
- ٢- ربّى الرسول ﷺ أصحابه على تحمّل المشاق في نشر الدعوة ؛ لأن معاناة المشاق هي التي تصنع الرجال.
- ٣- الرسول ﷺ بعث إلى قومه وإلى الناس كافة، وعالج مشكلة العصبية، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وأرسى قواعد التكافل الاجتماعي، وكانت كلماته ﷺ قوانين للحكم والتطبيق.
- ٤- جاء الرسول ﷺ بشريعة الإسلام الداعية إلى السلم، ونهى عن تمني الحرب. وإذا أُجئ إلى القتال كان من أشد الناس بأسًا. ولم يوجد في غزواته ﷺ ما يخذش أخلاقه، فلا يقتل من لا يُقاتل، ولا يرفع السيف على من لا سيف له.
- ٥- كانت حروب الرسول ﷺ حروبًا محدودةً مقتصرة على المقاتلين، ولم تكن حروبًا شاملةً تقتل الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال غير

- المقاتلين، وتخزب العمران، وتهلك المواشي، وتحصد الزروع والأشجار، وتحرق الأخضر واليابس.
- ٦- قرّر ﷺ مبدأ الشورى، وجعلها أصلاً في كل ما لا نصّ فيه.
- ٧- كان ﷺ ينهى عن قتل النساء والصبيان إذا لم يُقاتلوا، وينهى عن قتل الشيخ الهرم والأعمى والراهب والزّمن.
- ٨- كان ﷺ حسنَ المعاملة مع الجرحى والمرضى، لأن الأمر بالإحسان إلى الأسارى يتناول علاجهم، وينهى ﷺ عن المثلثة.
- ٩- حزر الرسول ﷺ المرأة من عادات الجاهلية في النكاح، وصانَ كرامتها، وأحاطها بسياج من الطهر والأخلاق، وقرّر الرسول ﷺ أن النساء شقائق الرجال، فبايعهنّ كما بايع الرجال، واعتدّ بجوارهنّ كما اعتدّ بجوار الرجال، وعامل المرأة بعدلٍ ورفقٍ وعطفٍ، وجعلها مساويةً للرجل أمام القانون إلا ما استثناه الشرع.
- قال «مارسيل»: «ويؤكد الفقهاء المسلمون أن حصول الوريث الذكر على ضِعْفِي نصيب الأنثى ليس محاباةً، وإنما هو مجرد غنم ظاهريّ ومنطقي، نظراً لأن واجب القيام بنفقات الأسرة جميعاً يقع على عاتق الرجل، بينما تتمتع المرأة بالاستقلال في إدارة أموالها»^(١).
- ١٠- قرّر ﷺ أن قاتل نفسه في النار مهما كانت الأسباب، ونهى عن ترويع المسلم.
- ١١- كان ﷺ رحيماً بالأسرى، يحسنُ معاملتهم، ويأمر بإطعامهم وكسوتهم وفكّكهم، وينهى عن ضربهم وتعذيبهم.
- ١٢- قرّر ﷺ أن الإحسان يُزيل البغض ويثبت الحب، كما كان من «ثمامة بن أثال» حينما أطلقه من قيده وهو أسير.

(١) «إنسانية الإسلام» (١١٠).

١٣- علمنا الرسول ﷺ أن من سُنن الله - سبحانه - كراهة القتال للمغنم، لذا كان العتاب من الله - تعالى - موجهاً للصحابة لحرصهم على أخذ الفداء من أسرى بدر، كما عاتب الله - سبحانه - مَنْ قَتَلَ المسلم للمغنم بعد أن سَلَّمَ بتحية الإسلام.

١٤- كان النبي ﷺ أول مَنْ وضع حجر الأساس في إزالة الأمية، وإشاعة القراءة والكتابة، فجعل فداء ناسٍ من الأسرى يوم بدر أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة.

١٥- كان ﷺ يحفظ المعروف لأهله كما اعترف بالجميل لمطعم بن عدي.

١٦- كان ﷺ رحيماً كما كان حكيماً لا يُخدع؛ لأنه ﷺ في أعلى مستويات العقل والبصيرة، أطلق «أبا عزة» من الأسر بلا فداء بعد أن أخذ عليه العهد ألا يُظاهر أحداً، فلما عاد إلى مكة نقض العهد، فلما أسر مرة ثانية أمر ﷺ بضرب عنقه.

١٧- بُعث الرسول ﷺ والرقُّ موجوداً، وعَمِلَ ﷺ على تقليصه، وتجفيف منابعه إلا منبعاً واحداً، وهو الرقُّ في الحرب؛ إذ هو معاملة بالمثل من جهة، ولا يصحُّ التنازلُ عنه من جهةٍ أُخرى، إذ هو الحلُّ الوحيد في ردِّ الاعتداء. وعاملُ الرسول ﷺ الرقيق على أنه إنسان له حق الكرامة والحياة، وسوى بينه وبين أي إنسان آخر في المعاملة. وقد أوصى الرسول ﷺ بإكرام الرقيق وإطعامه وكسوته وتزويجه، وقد آخى بعضهم مع سادة قريش، وأمر بالإعتاق في كثير من الأحكام.

لقد ألغت الثورة الفرنسية الرقُّ في أوروبا، وأصدر «أبراهام لينكولن»^(١) قراراً بإلغاء الرقُّ في أمريكا، واتفق العالم على إلغائه،

(١) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية. مات مقتولاً عام ١٨٦٥م.

ولكن ذلك قبل أن يمضي عليه فترة أصبح جبراً على ورق، وتحوّل إلى الخداع والمراوغة والإعلانات البرّاقة، والشعارات الزائفة؛ إذ كانت الحقائق التي وراءها هي أخبث ما عرفته البشرية في تاريخها الطويل. فالهمجية والاستعباد والإذلال والتشفي والتسلط والسجن والتعذيب والمثلة، ما زال ولم يزل قائماً، وأما القتل الجماعي بالمواد الحارقة، وإبادة الملايين من المسلمين، فكل أولئك يمارسه أدياء العدالة والحرية وحقوق الإنسان على مسمع العالم من دون حياء ولا وجل.

وأما الرسول ﷺ فقد كان صريحاً مع نفسه ومع الناس، فبين أن هذا رق، وسببه كذا، والطريق إلى التحرّز منه مفتوح، ويعامل الرقيق معاملة حسنة، بلا تمييز بين الأبيض والأسود، وبلا تفاضل بين العربي والعجمي، والفضل كله يعود إلى الأتقى.

١٨- وضع الرسول ﷺ قاعدة عظيمة في تأمين المحارب بقوله: «إنه يجير على المسلمين أديانهم».

١٩- أعلن الرسول ﷺ أن الجوار عقد يجب الوفاء به.

٢٠- أعلن الرسول ﷺ منح الحماية للمعاهدين، والمساواة بين المسلم والمعاهد، كما أن دفع الجزية من الذميين يجعل دمهم مساوياً لدم المسلمين.

٢١- سنّ ﷺ حماية الرسل بين المتحاربين وإكرامهم، وعدم التعرض لهم بأذى.

٢٢- من أخلاق الرسول ﷺ الجنوح للسلم والصلح، والوفاء بالعهود، ونهى عن الغدر.

٢٣- ظهر واضحاً جلياً من سيرته وأخلاقه ﷺ اللطف والرحمة والرقّة في مقابل غلظة قريش، وأوباش العرب، ومؤامرات اليهود، ومكر

المنافقين . وكلُّ ما كان منهم من صدَّ وأذى لم يجعله يتنازل عن خُلُق من أخلاقه . وما كان من جمعه بين الشدَّة والرحمة فهذا من عظمته ، وحسن سياسته ، وقوة شخصيته ﷺ .

٢٤- كان ﷺ يعفو ويصفح عمن آذاه . وعلى الرغم من شجاعته الفائقة ﷺ ومنافحته ، فقد كان يعفو عند المقدرة .

٢٥- كان ﷺ يبلغ وينذُر ، ولم يُكرِه أحدًا على الإسلام . وحروبه ﷺ لم تكن لنشر الإسلام بالسيف ؛ إذ في القهر والإكراه بطلانُ معنى الابتلاء والاختبار . وإنما كانت دفاعًا عن النفس ، وإحباطًا لمؤامرات غزو المدينة ، ونهب أموال المسلمين ، والاعتداء على أعراضهم . يعرف هذا من أنعم النظر في السيرة النبوية .

٢٦- كانت حروبُ الرسول ﷺ حروبًا دفاعيةً إلا في معركة (خيبر) و(حنين) و(مؤتة) وهي في مضمونها حروب دفاعية ؛ لأنَّ الهجوم خير وسيلة للدفاع .

٢٧- كان ﷺ يصبر على الغدر ، ولا يتعجّل ، ويتثبت من الأخبار .

٢٨- عرفنا أن اليهودَ دعاةٌ إلى نزعِ الحجابِ . فقد كانت المرأة المسلمة تستر وجهها بعد نزول الحجاب . قالت عائشة رضي الله عنها حين رآها « صفوان بن المعطل » : كان يراني قبل نزول الحجاب ، فحين عرّفتني حَمَرْتُ وجهي بجلبابي .

٢٩- كتمان الأسرار الحربية والمباغنة والسرية من ضروريات النجاح في الحروب ، وهو دينٌ يلتزمُ به كلُّ مسلم صحيح الإيمان . وكان ﷺ نموذجًا رفيعًا في ذلك . وإفشاء الأسرار الحربية خيانةٌ عظيمة .

٣٠- يقظة الرسول ﷺ وموقفه من « حاطب » - حينما أرسل خطابًا لقريش يُفشي فيه بعض أسرار الجيش - موقفٌ عظيمٌ في العفو يعجزُ عن فهمه

- ومجاراته عظماء البشر حلماً وفهماً ورحمةً وبُعدَ نظرٍ .
- ٣١- عدالته ﷺ في التمكين من نفسه لأخذ القَوْدِ منه، وإعلانهُ بإقامة الحدود ولو كان الجاني أحبَّ الناس إليه .
- قال « مارسيل » : « وتعتبر فكرة العدل في القرآن أرفع من مجموع المفاهيم والأنظمة التي سنّها البشر »^(١) .
- ٣٢- عامل المنافقين على الظاهر، ولم يتنبَّ عمّا في قلوبهم من كراهية وكفر .
- ٣٣- كان ﷺ يكره قتل الكافر بعد قوله : لا إله إلا الله، وما أشبه ذلك .
- ٣٤- كان منهجه ﷺ في سياسة أصحابه النهي عن العصبية، وإزالة الفوارق، والأمر بالمساواة .
- ٣٥- كان ﷺ كريماً في توزيع الغنائم، وقد طهر مجتمعه من الخيانة المالية .
- ٣٦- كان ﷺ يتفقد أحوال القتلى بنفسه، ويشرف على دفنهم، ويكرم أبناء الشهداء .
- ٣٧- كان ﷺ يكره أن يتميز على أصحابه، ويحبُّ المساواة معهم في كل شيء .
- ٣٨- كان ﷺ يتعرّف على أحوال أصحابه ويداعبهم، ويخفف من محنة حياتهم بكلام عذبٍ زلالٍ، وبسخاءٍ لا يُدرِك شأوه .
- ٣٩- كان ﷺ لطيفاً بالأنصار حينما كثرت فيهم القالة ؛ لإغداقه بالعطايا على قريش، وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء .
- ٤٠- كان ﷺ حليماً صابراً على جفأة الأعراب .
- ٤١- كان ﷺ متواضعاً عند النصر، منكسراً إلى الله . يلزم أصحابه عدم إيذاء

(١) « إنسانية الإسلام » (١٢٩).

المدنيين، وجعل يوم فتح مكة يومَ بَرٍّ ووفاءٍ، فعفا عفوًا عامًا عن كذبه وأذاه بالقول والفعل.

٤٢- أعلن الرسول ﷺ يوم فتح مكة المساواة، وحقوق الإنسان صريحة مدوية على مسمع الناس، يبلغ الشاهد الغائب على مرّ الأزمان.

٤٣- علمنا رسول الله ﷺ أنه ينبغي على الإمام ونوابه ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يبدأ بنفسه وأهله فهو أقرب إلى قبول قوله.

٤٤- وفاء الرسول ﷺ مع الأنصار في استمرار العيش معهم في المدينة المنورة بعد فتح مكة المكرمة مثلجًا صدورهم بقوله: « معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مما تكم ».

٤٥- تلقيه ﷺ المصائب بالصبر والصمت والحكمة، فحينما أُرْجِفَ المرجفون في حادثة الإفك، وخاض الناس في بيت النبوة، وبلغت القلوب الحناجرَ كان يقول: « إني لا أعلم عنها إلا خيرًا ». وكانت تصرفاته رزينةً مسددةً.

ولو كان أمرُ القرآنِ إلى الرسول ﷺ لكان من السهل عليه أن يُنهي هذه المشكلة من يوم ظهورها، ويُريح نفسه من ذبولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقده من الخير والاستقامة في أهله قرآناً يُطمئن به أصحابه المؤمنين، ويُسكت أصحاب الفضول، ولكنه لم يفعل؛ لأنه ما كان ﷺ ليدرك الكذب على الناس ويكذب على الله.

٤٦- من أخلاق أم المؤمنين « زينب » في « عائشة » قولها: « أحمي سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيرًا ».

٤٧- من أخلاق أم المؤمنين « عائشة » أنها لم تخرج عن حدود الأدب، والالتزام بالشرع في معاملة الرسول ﷺ كزوج، بل قالت: « أتأذن لي أن آتي أبوي؟ ».

٤٨- من أخلاق أصحابه ﷺ قولهم عن إشاعة الإفك : « سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم » .

٤٩- علمنا الرسول ﷺ أن سنة الله - تعالى - في النصر تكون لمن امتثل أمر الله وأمر نبيه ﷺ، فقد انخزل المسلمون يوم أُحد لما خالف الرماة توجيهات الرسول ﷺ، كما انخزل المسلمون يوم حنين حينما أعجبتهم كثرتهم .

كما أيقنا أن سنة الله في تطهير الأنبياء والصدّيقين والمقربين ورفع درجاتهم إلى أعلى المنازل تكون في ابتلائهم بصنوف المحن والآلام .
كإيذاء قريش للرسول ﷺ، وتعذيب أصحابه في مكة المكرمة .

٥٠- عرفنا من أحداث حروب الرسول ﷺ أنه نبيّ يُوحى إليه، يُطبّق أوامر ربه ﷻ كما عرفنا أنه أكبر قائد عسكريّ في تمتعه بفراسة نيرة، ويقظة ثاقبة، وإلهام بارع، وشجاعة نادرة في غير تهوّر . فقد ثبت ﷺ مجابها للعدوّ في غزوة أُحد حتى التفت حوله أصحابه، وبدل الهزيمة انتصارًا كما في غزوة حنين . ولم تهتزّ فيه شعرة عند انهزام أصحابه عنه، مع أن مثل هذا التطور الخطير في المعارك يترك أسوأ الأثر في أعصاب أقدّر القادة وأشجعهم، ولا يبقى لهم همّ إلا التفكير بالنجاة بأنفسهم .

٥١- علمنا الرسول ﷺ أن سنة الله - تعالى - في النصر والنجاح في نهاية المطاف تكون للمسلمين المخلصين، وأن الفرَج واليسر يكونان بعد الشدّة والعسر للصابرين الصادقين، والشواهد على ذلك كثيرة منها :
أ- خروج الرسول ﷺ من مكة المكرمة مهاجرًا متخفيًا فأعقب ذلك دخوله لها بعد ثمانية أعوام فاتحًا منتصرًا .

ب- صبر أم المؤمنين « عائشة » بعد أن تفضّر كبدها من الحزن فأكرمها

الله بنزول عشر آيات تُتلى في براءتها. وكانت تقول: « ما كنت أظن أن الله منزلٌ في شأني وَحِيَا يُتلى » بل كانت ترجو أن يرى الرسول ﷺ رؤيا يبرئها الله بها.

ج- الثلاثة الذين خُلفوا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم من كثرة البكاء والحزن حينما هجرهم الرسول ﷺ وأعرض الناس عنهم فامتَنَ الله عليهم بقبول توبتهم، وأنزل في ذلك قرآنًا يُتلى.

٥٢- كان الرسول ﷺ يتهمل وجهه سرورًا بتوبة الله - تعالى - على أصحابه، وكان الصحابة ﷺ يهنتون ويصافحون مَنْ تاب الله عليه، وكانت أمنيتهُم الظفرَ بالشهادة في سبيل الله.

٥٣- علمتنا السيرة النبوية أن النجاة في الصدق والتوبة، وهما من خصال المسلم، وأن الكذب شعارُ المنافقين. والسعادة دائرة مع الصدق والتصديق، والشقاوة دائرة مع الكذب والتكذيب.

٥٤- ومن عظيم أخلاقه ﷺ حسرته على خسارة أرواح قريش في الحروب مع المسلمين بقوله: « يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر الناس؟! » إنها كلمات ملؤها الحزن والأسف، يبوح بها لسانه ﷺ وتذوب معها نفسه، يعتصرها الأسى على قومه وقد تملكهم الغرور والكبرياء، وقد بذل الرسول ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حربًا معهم.

٥٥- من أخلاقه ﷺ إعدادُ العُدَّة واتخاذُ الأسباب، وبعد ذلك يسأل الله نصره، ويستغفر في الدعاء، وكان ﷺ إذا حزبه أمرٌ أكثر من الصلاة. وكان يستقبل ما جاءه من الله - تعالى - بالرضى والتسليم. كما قال لأصحابه بعد غزوة أُحدٍ: استووا حتى أُنثي على ربي، فصاروا صفوفًا

خلفه . وصار يدعو الله - تعالى - ويُثني عليه .

٥٦- من أخلاق أصحابه ﷺ التلذذ في مناجاة الله - تعالى - والصلاة وهم في حراسة الثغور، كما رأينا في قصة « عبّاد بن بشر » وهو ذائب في مناجاة ربه، خاشع في عبوديته لله لم يشعر بألم من وقع السهام في جسمه، وراح ينتزعها من غير مبالاة كأنه ينفض الذباب عن وجهه، والدماء تنسكب منه فقال له صاحبه : أفلا أعلمتني !؟

قال : كنت في سورة أقرؤها في صلاتي فلم أحب أن أقطعها .

٥٧- علمنا الرسول ﷺ أن الإسلام دين المنطق والعقل، ودين الفطرة السليمة، كما علمنا النبي القائد ﷺ أن النصر من عند الله، سبحانه .

٥٨- ظهر بوضوح لذي عينين مما عرضناه من أحداثٍ كبرُ همة الرسول ﷺ وعظيم عقله .

وقد قال التابعي « وهب بن منبه » : قرأت إحدى وسبعين كتاباً فوجدت في جميعها أن الله ﷻ لم يُعْطِ جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقل محمد ﷺ إلا كحبة رملٍ من بين رمال جميع الناس، وأن محمداً ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً^(١) .

٥٩- اتضح لنا من السيرة النبوية خمسة أمورٍ رئيسة :

• الأمر الأول :

وقوف قريش ضد دعوة الرسول ﷺ بغلظة وجبروت وعناد، فتفنتت بإنزال أشد العذاب بالمسلمين، فلقد شهدت صحراء مكة المستعرة

(١) « حلية الأولياء » (٤ : ٢٦) . « وهب بن منبه » قاضي صنعاء، تابعي ثقة. ولد سنة ٣٤ هـ، ومات سنة ١١٠، أو ١١٣، أو ١١٤، أو ١١٦ هـ وأبوه من خراسان أسلم في عهد النبي ﷺ وحسن إسلامه. « تهذيب التهذيب » (١١ : ١٦٦) .

بلهيب الشمس أجسادًا عاريةً أقيت عليها الصخور، وهم يُعذبون بلا ذنبٍ اقترفوه، ولا جريمةً تلبسوا بها، وحاصرتهم بالشغب، وألجأتهم إلى الهجرة إلى الحبشة مرات، وأخيرًا إلى المدينة، واغتصبت أراضيهم وأموالهم، واعتدت على أهلهم وذرايرهم.

• الأمر الثاني :

العهد المكيّ : مسالمة الرسول ﷺ، فلم يقاتلهم ؛ لأنه لم يُؤمر بالقتال، ولم ينتصر لنفسه، لأنه أمرٌ بكفِّ اليَدِ، ومنعها من الردِّ بالمثل. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ فِيلَ لَهُمْ كُفُوا بِأَيْدِيكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (النساء: ٧٧) بل تحلّى بالصبر والإحسان والصّفح، والتحبب إلى الناس، والابتسامه حتى لو آذوه، وهو يدعوهم إلى توحيد الله وإلى الإسلام والسلام.

• الأمر الثالث :

العهد المدنيّ : أول ما قام به ﷺ إزالة الخلاف بين الأوس والخزرج، وإلغاء النعرات الجاهلية من صفوفهما، كما آخى بين المهاجرين والأنصار، ثم قام بعقد معاهدات بين يهود المدينة، ولم يكن يجبرهم على الإسلام مع أنه الحق ؛ لأن الرسول ﷺ تعامل معهم بتسامحٍ فريد. وأما قريش فاستمرت في دعوتها ضدّ الرسول ﷺ وأصحابه، وذلك بتأليب القبائل عليه، ثم بإلقاء ثقلها في القضاء على الدعوة فحاربتة، وأحكمت الحصار على المدينة بأكثر من عشرة آلاف مقاتلٍ بقصد استئصال شأفة الإسلام والمسلمين.

• الأمر الرابع :

كلُّ ما قامت به قريش والقبائل ضدّ الرسول ﷺ وأصحابه اعتداءً سافر غير

مشروع ولا مبني على عقل ولا منطق، ولا هو مقبول في الأعراف الدولية، وحروبهم حروب ظالمة جائرة، وهي في حقيقتها حروب ضد الإنسانية والأخلاق، ودعوة إلى الإباحية، وعبادة الأحجار والأشجار والأصنام من دون الله.

• الأمر الخامس :

حاول الرسول ﷺ تجنب الحرب بكل ما يستطيع، ولكن فُرِضَتْ عليه، فكانت حروب الرسول ﷺ ردًا لعدوان الكفار على المسلمين، ودفاعًا عن النفس؛ لذلك جاءت تعاليم الرسول ﷺ في قتال المقاتل الذي يحمل السلاح، وقاتل الغادرين والماكرين الذين يعملون على هدم دعوته، ووضع العراقيل في طريقها. وكان ﷺ حازمًا في عدم التجاوز؛ تطبيقًا لقوله سبحانه: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

والشدائد تكشف عن حقيقة الرجال؛ لأنها حالة صعبة، فقد يضطرب الإنسان خلقيًا فيتصرف تصرفات شاذة لا يتصرفها في حالة الرخاء، وبالأخص الحروب، فالحرب أمرها عسير، ومصيرها خطير، وشرها مستطير، تحرق الأخضر واليابس.

وفي خضم الشدائد والحروب رأينا تألق الرسول ﷺ الخلفي، وسمو قيم الفضيلة في ذاته الشريفة، وأخلاقه المنيفة، واتزانه في أحلك الفتن في إصدار تعاليمه السامية، وأحكامه السديدة التي أرسى معالمها في نفوس أصحابه، وهي مرتكزة على أسس ثابتة من الحكمة والرحمة والخلق العظيم.

الخلاصة

□ أنه ﷺ أفضل الخلق، وأنه حبيب رب العالمين، وخليل الله وصفيه لأن أخلاقه ﷺ وعبوديته كانت جزءاً من شخصيته تصدر عنه سجية بريئة من التكلف. فهو حلؤ الشمائل، عذب الأخلاق، مقبولة للنفوس، محببة للقلوب.

□ قد أوتي ﷺ جوامع الكلم، ويمتلك من البلاغة ما يعجز عنه أرباب الفصاحة واللسن، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة، تأخذ بمجامع القلوب، ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره.

ذلكم بعض الخلق العظيم في حروب الرسول الكريم ﷺ، وهي غيض من فيض أخلاقه ﷺ الفطرية، وأخلاق أصحابه، رضوان الله عليهم.

وصلى الله على فخر الكائنات سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلّم كلما ذكره الذاكرون

وغفل عن ذكره الغافلون.



المحتوى

- ١- الآيات القرآنية .
- ٢- الأحاديث والآثار .
- ٣- الأعلام .
- ٤- المراجع .
- ٥- الموضوعات .



١- الآيات القرآنية

الآية	الصفحة
النساء (٤)	
١٩	٧٩
٢٥	١٣٨
٣٦	١٣٩
٧٥	٤٢
٧٦	١٣٦
٧٧	٣٩٥
٩٢	١٤٢
٩٤	٢٤٢
١٢٨	٢٠٠
١٦٣	٣٧
المائدة (٥)	
١	١٨٣
١١	٣٦٥
٢٧	٣٧٧
٦٧	٣٧٢
٨٩	١٤٢
٩٥	٧٧
١٠٥	٢١٩

الآية	الصفحة
البقرة (٢)	
١٩٠	٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ، ٦٩ ، ٣٩٦ ، ٧٢ ، ٧١
١٩١	٧١
١٩٣	٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٢١٧
٢١٦	١٧٩
٢١٧	٧٠
٢٢٨	٨٦
٢٥٠-٢٥١	٣٧٣
٢٥٦	٢١٩
آل عمران (٣)	
٨٦-٨٩	١٦٢
١٠٠-١٠١	٢٥٧
١٢٢	٣٧١
١٥٢	٣٤٤
١٥٣	٢٩٦
١٥٥	٢٩٧
١٥٩	٥٥ ، ٥٧ ، ٦٤ ، ٩٦ ، ٣٤٥

الخلق العظيم في حروب الرسول الكريم ﷺ

الآية	الصفحة
١١٧-١١٩	٣٣٠
١٢٨	٢١٠
يونس (١٠)	
٨٨	٩٥
٩٩	٢١٩
يوسف (١٢)	
١٨	٣٠٤
٣٠	٣١٥
٩١	٣٥٥
٩٢	٣٥٥ ، ٣٥٠
١٠٨	٢١٩
إبراهيم (١٤)	
٣٦	٩٥
الحجر (١٥)	
٨٥	٣٩
٨٨	٢٦٤
٩٢ - ٩٤	٣٩
النحل (١٦)	
٩١	١٨٣
١٢٥	٣٩
الإسراء (١٧)	
٣٤	١٨٣

الآية	الصفحة
١١٨	٩٥
الأنعام (٦)	
١٦٢	١١
الأنفال (٨)	
٣٩	٢٤١
٥٨	٢٠٠
٦١	٢١٨ ، ٢٠٠
٦٧-٦٩	٩٨ ، ٩٦ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٩٣
٧٠	١١٤
٧٢	٤٢
التوبة (٩)	
٦	١٥١
٢٥	٣٨٤
٢٦	٤٧
٣٦	٤٧ ، ٤٣ ، ٤٠
٤١	٤٣
٦٠	١٤٣
٨٠	٢٣٨
٨٤	٢٣٨
٩٥-٩٦	٣٣١
١١٨	٣٣١
١١٩	٣٣٣

الآية	الصفحة
القصص (٢٨)	
٦-٥	٣٨٤
الأحزاب (٣٣)	
٢٣	٢٩٦
٣٦	٣٢ ، ٢٦٣
٤٥	٣٥٧
٦٠	٢٠٤
فاطر (٣٥)	
٢٣	٢١٧
الزمر (٣٩)	
٩	٣٨١
الشورى (٤٢)	
٢٨	٣٣٢
٣٨	٥٥ ، ٦٤
٤٨	٢١٧
محمد (٤٧)	
٤	٩٧ ، ١١٠
٧	٣٧٣
الفتح (٤٨)	
١	١٧٨
١٨	١٦٦
٢٧-٢٤	١٧٣

الآية	الصفحة
٧٢	٣٨
٨١	٢٨٣
٩٣	١٣
الكهف (١٨)	
٦	٢١٧
٢٩	٢١٩
مريم (١٩)	
٢٨	٣١٥
الأنبياء (٢١)	
١٠٧	١٤٥
الحج (٢٢)	
٣٩	٤١
٤١	٢٨٩
النور (٢٤)	
١١	٣١٢
٢٠-١١	٣٠٥
٢٢	٣٠٦
٣٣	١٤٣
الفرقان (٢٥)	
٢٧ - ٢٩	١٣٠
الشعراء (٢٦)	
٤	٢١٩

الآية	الصفحة
المنافقون (٦٣)	
٨	٢٣٥
الطلاق (٦٥)	
٣	٣٧١
الحاقة (٦٩)	
٤٤ - ٤٧	٣١١
نوح (٧١)	
٢٦	٩٥
الإنسان (٧٦)	
٨ - ٩	١٠٠
المطففين (٨٣)	
١٣	١٢٩
الغاشية (٨٨)	
٢٢	٢١٧
البلد (٩٠)	
١١ - ١٣	١٢٠ ، ١٤١
العلق (٩٦)	
٣ - ١	٣٨
٥ - ١	١١١
النصر (١١٠)	
٢ - ١	١٧٩ - ١٨١

الآية	الصفحة
٢٥	١٧٨
٢٧ - ٢٦	١٧٨
٢٩	١٢٠
الحجرات (٤٩)	
٦	١٩٧
٩	٤٤
١٣	٢٤٧ ، ١٣٧
النجم (٥٣)	
٣	٢٦٥
١١	٢٦٥
١٧	٢٦٥
القمر (٥٤)	
٤٥	٣٧٤
المجادلة (٥٨)	
٣	١٤٢
الحشر (٥٩)	
٢	١٩٠
المتحنة (٦٠)	
١	٢٠٩
٨	٢٢٠
١٠	١٧٧
١٢	٨٥

٢- الأحاديث والآثار *

- المقدمة**
- ٧
- ١١ أبو بكر كيف أنت يا حنظلة؟ قلتُ: نافقَ حنظلةُ
- ١٢ أنس لما كان اليومُ الذي دخلَ فيه النبي ﷺ المدينةَ أضاءَ منها كلُّ شيءٍ
- ١٧ **المبحث الأول: صفات القائد**
- ٢٠ أنس كَانَتْ وَجْهَهُ وَرَقَّةً مُضْحَفٍ
- ٢٢ عروة يا معشر قريش! إني جئت كسرى في ملكه
- ٢٢ أم معبد إن صَمَّتْ فعليه الوقار
- ٢٢ علي أجودُ الناسِ صدرًا
- ٢٣ البراء كُنَّا والله إذا اخمَرَ البأسُ نَتَّقِي به
- ٢٤ العباس فطَفِقَ رسولُ اللهِ ﷺ يَرْكُضُ بَعْلَتَهُ نحوَ الكُفَّارِ
- ٢٥ ابن عمر ما رَأَيْتُ أشجعَ ولا أنجَدَ ولا أجودَ ولا أَرْضَى مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ
- ٢٥ علي إنَّا كُنَّا إذا حَمِيَ البأسُ وَاخْمَرَّتِ الحَدَقُ اتَّقَيْنَا برسولِ اللهِ ﷺ
- ٢٥ أنس كان رسولُ اللهِ ﷺ أحسنَ الناسِ، وكان أجودَ الناسِ، وكان أشجعَ أنسِ الناسِ
- ٢٧ عائشة أن أبا بكر دخل على عائشة وهي تُغْرِبلُ حنطة، فقال: ما هذا؟
- ٢٧ خرج رسولُ اللهِ ﷺ في «غزوة أُحُد» في ألفٍ من أصحابه، فلما كان بالشوط بين المدينة وأُحُدِ انخزلَ عنه «عبد الله بن أبي» بثلاثِ الناسِ
- ٣٠ صفوان والله لقد أعطاني رسولُ اللهِ ﷺ ما أعطاني

- ٣٠ «أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهبَ الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير...»
- ٣٠ «مَنْ يأخذ هذا بحقه؟»
- ٣١ «ادخل في القوم فانظرُ ماذا يصنعون...»
- ٣٢ صحابية كُلُّ مصيبة بعد الرسول ﷺ هينة

٣٥ المبحث الثاني : القتال

- ٤٥ «يا أيها الناسُ لا تتمنوا لقاء العدوِّ واسألوا الله العافية...»
- ٤٥ أبو بكر «لأنَّ أعاقِي فأشكر أحب إليَّ من أن أبتلى فأصبر»

٥٣ المبحث الثالث : الشورى

- ٥٧ أبو هريرة «لم يكن أحدٌ أكثرَ مشاورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ»
- ٥٩ «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لَسَ لأمته أن يَضَعها حتى يُقاتل»
- ٦٢ «هلك المسلمون، أمرتهم بالأمر فلم يفعلوا»
- ٦٢ «لو أمرتُ بالمسير لم أستشركم فيه»
- ٦٣ عمر إن للروم جموعًا كثيرة، ليس بها مسلمٌ

٦٧ المبحث الرابع : تعاليم الرسول ﷺ

- ٩٦ «لا تَقْتُلنَّ امرأة، ولا عَسيفاً»
- ٧١ أبو دجاجة رأيت إنساناً يَحْمِسُ الناسَ حَمْسًا شديدًا
- ٧٣ «انطلقوا باسم الله، وبالله، وعلى ملة رسول الله...»
- ٧٦ عمر «اتقوا الله في الفلاحين...»
- ٨٠ «إنَّ الله كتبَ الإحسانَ على كل شيء...»
- ٨١ «لا أُمَّثِّلُ به فيمَثِّلُ اللهُ بي وإن كنتُ نبيًّا»
- ٨٢ «إنه عسى أن يقومَ مقامًا لا تَدُمُّه»

- ٨٣ «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ . . .» خطبة حجة الوداع
- ٨٥ «أَبَايَعُكُنَّ عَلَى أَلَّا تَشْرِكُنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا . . .»
- ٨٦ «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمِثْلَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لِامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ»
- ٨٧ «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»
- ٨٩ «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ . . .»

المبحث الخامس : الأسرى

- ٩١
- ٩٣ «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟»
- ٩٧ «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي . . .»
- ٩٩ «اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا»
- ١٠٣ «يَا جَارِيَّةُ، هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا لَوْ كَانَ أَبُوكَ مُسْلِمًا لَتَرَحَّمْنَا عَلَيْهِ»
- ١٠٤ «يَا سَلْمَةُ! هَبْ لِي الْمَرْأَةَ»
- ١٠٥ «إِنِّي جَائِعٌ فَاطْعَمَنِي، وَظِمَانٌ فَاسْقِنِي»
- ١٠٦ «لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ . . .»
- ١٠٧ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لَتَضْرِبُوهُ إِذَا صَدَقَكُمْ»
- ١٠٨ «لِللَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدِهَا»
- ١٠٩ «فُكُّوا الْعَانِي - يَعْنِي الْأَسِيرَ - وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ»
- ١٠٩ أبي جُحَيْفَةَ هل عندكم شيءٌ من الوحي إلا ما في كتاب الله؟
- ١١٢ «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجَلِّ كَبِيرَنَا . . .»
- ١١٣ «سَمِعْتُ أُنَيْنَ عَمِي الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ»
- ١١٦ «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَتَرَدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا فَافْعَلُوا»
- ١٢١ ثمامة والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليّ من وجهك
- ١٢١ ثمامة رضي الله عنها لا والله لا يأتيكم من اليمامة حبةٌ حنطة حتى يأذنَ فيها رسولُ الله صلّى الله عليه وآله
- ١٢٢ ثمامة إياكم وأمرًا مظلماً لا نورَ فيه . . .

- ١٢٤ «إِنْ أَحْبَبْتَ فَأَقِيمِي عِنْدِي حَبِيبَةً مَكْرَمَةً...»
- ١٢٧ عائشة ما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها
- ١٢٧ «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بِنُ عَدِي حَيًّا نَمَّ كَلِمَتِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»
- ١٢٨ المطعم بن عدي إنكم قد فعلتم بمحمد ما فعلتم ...
- ١٢٩ النضر بن الحارث أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه
- ١٣٠ عقبة بن أبي معيط «يَا وَيْلِي عَلامٌ أَقْتُلُ يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ مِنْ بَيْنِ مَنْ هَاهُنَا؟»
- ١٣٢ «لَا أَدْعُكَ تَمَسَّحَ عَارِضِيكَ بِمَكَّةَ، وَتَقُولُ: خَدَعْتَ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ. لَا يَلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُنْحَرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ...»
- ١٣٣ صفوان بن أمية قَبَّحَ اللَّهُ الْعَيْشَ بَعْدَ قَتْلِ بَدْرٍ
- ١٣٤ «أَضَدَّقَنِي مَا أَقْدَمَكَ يَا عُمَيْرُ؟» «مَا بِأَلِ السَّيْفِ فِي عَنَقِكَ؟»
- ١٣٥ «فَنَهَوْا أَهْلَكُمْ فِي دِينِهِ، وَعَلَّمُوهُ الْقُرْآنَ، وَأَظْلَقُوا أَسِيرَهُ»
- ١٣٧ «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلَنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعَنَاهُ...»
- ١٣٨ «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ...»
- ١٣٨ «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، وَأُمِّي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غَلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي»
- ١٤٠ «لَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ»
- ١٤٠ ابن عمر كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين
- ١٤٠ عمر «لَوْ كَانَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ حَيًّا لَوَلَّيْتَهُ»
- ١٤١ «إِنْ تَطَعَنُوا فِي إِمْرَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطَعَنُونَ فِي إِمْرَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِ...»
- ١٤١ «أَيْنَمَا رَجُلٌ أَعْتَقَ امْرَأَةً مُسْلِمًا اسْتَنْقَذَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ»
- ١٤٤ «مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ»
- ١٤٤ «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ! أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغَلَامِ»

١٤٧

المبحث السادس : الجوار

١٤٩

«مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِّخْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ . . .»

١٥١

«إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صِلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ»

١٥٢

«ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ . . .»

١٥٣

«آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَوْ كُنْتُ قَاتِلًا رَسُولًا لَقَتَلْتُكُمَا»

١٥٣

«إِنِّي لَا أَحْسِبُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحْسِبُ الْبُرْدَ . . .»

١٥٤

«وَيَحِكُ يَا أَبَا سَفِيَانَ، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»

١٥٤

«مَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفِيَانَ فَهُوَ آمِنٌ . . .»

١٥٥

«قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ يَا أُمَّ هَانِيَةَ»

١٥٧

زينب

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ أَجْرْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ»

١٥٧

«مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا، وَقَدْ أَجْرْنَا مِنْ أَجْرْتَ»

١٥٧

«إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ . . .»

١٥٨

أبو العاص

«بِئْسَ مَا أَبْدَأُ بِهِ إِسْلَامِي أَنْ أَخُونَ أَمَانَتِي»

١٦٠

«حَدَّثَنِي فَصَدَّقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَّى»

١٦١

«أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَأَيْتُ كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ، فَيَقْتُلُهُ؟»

١٦١

«إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةٌ الْأَعْيُنِ»

١٦٣

المبحث السابع : المعاهدات

١٦٦

«لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَ عَثْمَانَ . . .»

١٦٧

«مَا خَلَّاتِ الْقَصُوءَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا جُحْلِي، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفَيْلِ»

١٦٧

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»

- ١٦٨ «إنا لم نَجِيْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ...»
- ١٦٨ عمر ألسنا على الحقِّ وعدُّونا على الباطل؟
- ١٧٠ «إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه وهو ناصري»
- ١٧١ عمر فَعَمِلْتُ لِدَلِكْ أَعْمَالًا
- ١٧١ «قَوْمُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا»
- ١٧٢ يا نبيَّ الله، أُنحِبُ ذلكَ؟ اخْرُجْ نَمَ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى أَمَ سَلْمَةَ تَنْحَرُ بِذَنْكَ
- ١٧٤ «يا أبا بصير، انْطَلِقْ، فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا»
- ١٧٤ «وَيُؤَيِّلُ أُمَّهَ مِحْشَةً حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ»
- ١٧٨ بن عدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ (مَكَّةَ)، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْبِرَاءِ (الْحُدَيْبِيَّةِ) عَازِبٌ
- ١٧٩ «لَأَقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرَدَ سَالِفَتِي»
- ١٨٣ «حَسَنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ»
- ١٨٤ «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوْاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ»
- ١٨٤ «أَلَا مَنْ ظَلَمَ مَعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ...»
- ١٨٦ خبيب أَتَحْشِينُ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ
- ١٨٨ «يا معشر يهودَ، احذروا من الله مثلَ ما نزل بقريش من النَّقْمَةِ...»
- ١٨٨ اليهود يا محمد، إنك تُرَى أَنَا كَقَوْمِكَ!...
- ١٩٠ يا محمدُ أَحْسَنُ فِي مَوَالِيَّ - وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ - تَحْصِدُهُمْ فِي عَدَاةِ ابْنِ سَلُولٍ وَاحِدَةً
- ١٩١ «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»
- ١٩٤ كعب وَيَحِكُ يَا حَيِّيْ إِنَّكَ أَمْرٌ مَشْوُومٌ

- ويحك يا كعبُ ! جئتُكَ بعزِّ الدهرِ وببِخْرِ طام ...
حيي بن ١٩٤
أخطب
- «انطلقوا حتى تنظروا، أحقُّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان
حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ...»
١٩٥
- عَضَلُ والقارة «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»
١٩٦
- «اللهم منزِلَ الكتابِ، سريعِ الحسابِ، اللهم اهزم الأحزاب...»
١٩٦
- يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع... أبو سفيان ١٩٦
- «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأهْلِكْتُ عادَ بالدَّبُور»
١٩٧
- وضعت السلاح؟ فإنَّ الملائكة لم تضع أسلحتها بعدُ ... جبريل ١٩٨
- «ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟»
١٩٨
- «لقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد»
١٩٨

المبحث الثامن : الكتمان

- ٢٠١
- «إنما أنت رجل واحد فخذل عتاً ما استطعت، فإن الحرب خدعة»
٢٠٥
- «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»
٢٠٧
- «انطلقوا حتى تأنوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة ...»
٢٠٨
- «إنه قد شهد بدرًا وما يُدريك لعلَّ الله اطلع على من شهد بدرًا...»
٢٠٩
- «يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تُحدِثن شيئاً
حتى تأتينا»
٢١١
- «قم يا نومان»
٢١٣

المبحث التاسع : سماحة الإسلام

- ٢٢١ «تألَّفوا الناسَ، ولا تُغيروا عليهم حتى تدعوهم ...»
- ٢٢١ «إنَّ الله بعثني رحمةً للناس كافة ...»
- ٢٢٣ سواد أوْدُ القوْد

- ٢٢٤ «ما حَمَلَك على ما صنعتَ؟»
- ٢٢٤ «تعالِ فاستَقِذْ»
- ٢٢٤ «مَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا فَهَذَا ظَهْرِي فَلَيْسَتْقِذْ مِنْهُ...»
- ٢٢٥ «لو أن فاطمة بنتَ عميدٍ سرقَتْ لقطعْتُ يَدَهَا»
- ٢٢٥ «أتشفعُ في حدٍّ من حدودِ الله؟»
- ٢٢٥ «يا أيها الناسِ إنما ضلَّ مَنْ كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرقَ الشريفُ تركوه...»
- ٢٢٥ «أنتِ اليوم من خطيبتك كيومٍ ولدتكِ أمك»
- ٢٢٧ «الحمد لله الذي أنقذَهُ من النار»
- ٢٢٩ «اللهم عليك الملاءم من قريشٍ : أبا جهل بن هشام ...»
- ٢٣٠ «ألم أنه عن قتل النساءِ؟ ...»
- ٢٣٠ «لا خيرَ في جسده ولا في ثمنه»
- ٢٣١ ابن سلول ... أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ...
- ٢٣٢ «فكيف يا عمرُ إذا تحدَّثَ الناسُ أنَّ محمدًا يقتل أصحابه؟ ...»
- ٢٣٢ أسيد بن خضير ... يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك ...
- ٢٣٣ يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتلَ «عبد الله بن أبي» فيما بلغك عنه... عبد الله بن عبد الله بن أبي
- ٢٣٣ «بل تترفقُ به، وتُحسِنُ صُحبته ما بقي معنا»
- ٢٣٣ قد والله علمتُ لأمرُ رسولِ الله ﷺ أعظمُ بركة من أمري عمر
- ٢٣٧ «ألا تأمنوني وأنا أميرٌ من في السماء، يأتيني خبرُ السماء صباحًا ومساءً؟»
- ٢٣٧ «إني لم أومر أن أنقبَ قلوبَ الناسِ، ولا أشقَّ بطونهم»
- ٢٣٧ «إنه يخرج من ضئضئ هذا قومٌ يتلون كتابَ الله رطبًا...»

- ٢٣٨ عمر أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟
- ٢٤٠ «أقال : لا إله إلا الله وقتلته؟»
- ٢٤٠ «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلمَ أقالها أم لا؟»
- ٢٤٣ «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»
- ٢٤٥ **المبحث العاشر: التكافل الاجتماعي**
- ٢٤٨ أبو بكر «هل أبقيتَ شيئاً؟» قال : الله ورسوله
- ٢٤٨ عمر «هل أبقيتَ شيئاً؟» قال : نعم ! نصف ما جئتُ به
- ٢٤٨ «ما ضَرَّ عثمانَ ما عملَ بعدَ اليومِ» «اللهم ارضَ عن عثمانَ فإني عنه راضٍ»
- ٢٥٠ «ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكن الغنى غنى النفس»
- ٢٥٢ «إني لأعطي الرجلَ وأدعُ الرجلَ، والذي أدعُ أحبُّ إليّ...»
- ٢٥٣ عمرو بن تغلب فوالله ما أحبُّ أنَّ لي بكلمة رسول الله ﷺ مُحْمَر النَّعَمِ !
- ٢٥٣ «أيها الناس إنه لا يجلُّ لي مما أفاء الله عليكم قدرُ هذه...»
- ٢٥٥ «ما بالُ دعوى أهلِ الجاهلية؟» «دَعُوها فَإِنَّهَا خبيثة»
- ٢٥٦ «ليس منا مَنْ دعا إلى عصبية...»
- ٢٥٦ «من حَمَلَ علينا السلاحَ فليس منا»
- ٢٥٦ «يا معشرَ المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم...»
- ٢٥٧ جابر ما رأيت يوماً أقبِحَ أولاً، وأحسنَ آخراً من ذلك اليوم
- ٢٥٩ سعد بن الربيع جزاك الله عنا خيرَ ما جزى نبياً عن أمته...»
- ٢٥٩ «لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفتُ موقفاً قطَّ أغيظُ إليّ من هذا!»
- ٢٦٠ «إن إخوانكم لَقُوا العدوَّ، وإن زيّداً أخذَ الرايةَ، فقاتل حتى قُتِلَ...»

- ٢٦٠ «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا إليّ ابنيّ أخي»
- ٢٦٠ «أما محمدٌ، فشيبهُ عمّنا أبي طالبٍ، وأما عبدُ الله، فشيبهُ خلّقي وخلّقي»
- ٢٦١ «العَيْلَةُ تخافين عليهم، وأنا وليّهم في الدنيا والآخرة»
- ٢٦١ «دخلتُ البارحة الجنة فرأيتُ فيها جعفرَ بن أبي طالب يطير مع الملائكة»
- ٢٦١ «مَنْ ترك مالا فللورثة، ومَنْ ترك كلاً فإلينا»
- ٢٦١ «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا»
- ٢٦١ «هذا متي وأنا منه، وهذا متي وأنا منه» قاله ﷺ عن جلييب
- ٢٦٢ «إنك عند الله لست بكاسد»
- ٢٦٣ «اللهم اصبّب عليها الخير صبّاً، ولا تجعل عيشها كدّاً»
- ٢٦٤ «اسقوني مما يشرب منه الناس»
- ٢٦٤ «أيّ أخي ! أشركنا في دعائك ولا تنسنا» يقوله لعمر
- ٢٦٤ «آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ»
- ٢٦٥ «اللهم إني أُمسيتُ راضياً عنه فارضَ عنه»
- ٢٦٥ يا ليتني كنت صاحبَ الحفرة
- ٢٦٥ زكى قلبه ولسانه وبصره ﷺ
- ٢٦٦ «ما أنتما بأقوى مِنِّي، ولا أنا بأغنى عن الأجرِ مِنكما»
- ٢٦٦ «اللهم إنَّ العيش عيشُ الآخرة، فاغفرِ للأنصارِ والمهاجرة»
- ٢٧٦ نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا
- ٢٦٨ «اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا»
- ٢٧٠ «انزل يا ابن الأكواع، فخذ لنا من هناتك . . . يرحمك الله»

- ٢٧٠ عمر وَجِبْتُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمْتَعْتَنَا بِهِ
- ٢٧٢ «اتركوا الناقَةَ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»
- ٢٧٣ يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ، يُعْطِي قَرِيشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا نَقَطْرُ مِنْ دِمَائِهِمْ!
- ٢٧٤ «إِنَّ ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ»
- ٢٧٤ «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟» «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»
- ٢٧٥ «لو سلكَ النَّاسُ واديًا، وسلكَ الأَنْصَارُ شِيعًا، لَسَلَكْتُ شِيعَةَ الأَنْصَارِ»
- ٢٧٥ «اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ»
- ٢٧٩ «أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ العِضَاءِ نَعْمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ...»
- ٢٧٩ أعرابي مُرِّي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ
- ٢٨٠ «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟...»
- ٢٨٠ «يَا عَبَّاسُ، أَيُّنَ ابْنِ أَخِيكَ (عْتَبَةَ) وَ(مُعْتَبَبَ) لِأَرَاهُمَا؟»
- ٢٨١ «إِنِّي اسْتَوْهَيْتُ ابْنَ عَمِّي هَذِينَ مِنْ رَبِّي فَوَهَبَهُمَا لِي»
- ٢٨١ «هَذَا نِ أَعْوَايِ وَابْنِ عَمِّي»
- ٢٨٣ «بَلِ الْيَوْمُ يَوْمٌ تُعْظَمُ فِيهِ الكَعْبَةُ، الْيَوْمُ يَوْمٌ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ قَرِيشًا»
- ٢٨٤ «أَتَبِيعُنِي جَمَلِكَ هَذَا يَا جَابِرُ؟»
- ٢٨٥ «أَفَلَا جَارِيَةٌ تَلَاعِبُهَا وَتَلَاعِبُكَ؟»
- ٢٨٨ «لَعَلَّكَ يَا عَثْمَانَ تَرَى هَذَا المِفْتَاحَ يَوْمًا بِيَدِي، أَضَعُهُ حَيْثُ شِئْتَ»
- ٢٨٩ «هَآكِ مِفْتَاحُكَ يَا عَثْمَانَ، الْيَوْمُ يَوْمٌ بَرٌّ وَوَفَاءٌ»
- ٢٩٠ «قَلْتُمْ : أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكْتُهُ رَغْبَةً فِي قَرِيْبَتِهِ»
- ٢٩٠ «كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالحَيَا حَيَاتِكُمْ. وَالمَمَاتُ مَمَاتِكُمْ»

٢٩٣

المبحث الحادي عشر: الشائعات

٢٩٥ عبد الله

«أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟»

بن جبير

٢٩٥ حذيفة

«أي عبادة الله، أي أبي، ثم قال لهم عندما قتلوه: يغفر الله لكم»

٢٩٦ أنس بن

يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إنني أجد ريحها من دون أحد.

النضر

٢٩٩ عائشة

فخمرت وجهي بجلباي

٣٠٠ عائشة

أتأذن لي أن آتي أبوي؟

٣٠١

«أي بريئة، هل رأيت عليها من شيء يريبك؟»

٣٠٣

«أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة

فسيرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه...»

٣٠٥

«يا عائشة، أما الله - عز وجل - فقد برأك»

٣٠٥ عائشة

والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله - عز وجل -

٣٠٦ زينب

يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرا

٣٠٧ عروة

كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان

٣٠٨ عائشة

يا ابن عباس دعني منك ومن تزكيتك، فوالله لو ددت أني كنت نسياً منسياً

٣٠٨ عائشة

يا رسول الله كيف حبك لي؟ قال: «كعقدة الحبل»

٣١٤

لا يحل للزوجة أن تخرج من بيتها إلا بإذنه...

٣١٥ أنصاري

سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا...

٣١٦

يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟

٣١٩

المبحث الثاني عشر: الصدق

٣٢٣ صحابي

حبسه برداه، ونظره في عطفه

٣٢٣

«ما خلقت؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»

- ٣٢٤ «أَمَا هَذَا فَقَدْ صَدَّقَ، فَمُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فَيْكَ»
- ٣٢٥ كعب بن مالك ففَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَيْتُ حَتَّى تَسُورَتْ الْجِدَارَ
- ٣٢٦ «أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارَ مَلِكِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نُوَاسِكُ»
- ٣٢٦ كعب وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّوَرَّ، فَسَجَرْتُهُ بِهَا
- ٣٢٧ يَا كَعْبُ بِنَ مَالِكٍ ! أَبْشُرْ. فَخَرَرْتُ سَاجِدًا
- ٣٢٩ «أَبْشُرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مِنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ»
- ٣٢٩ «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»
- ٣٣٠ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَانِي بِالصَّدَقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبِي أَلَّا أَحْدَثَ إِلَّا كَعْبُ صِدْقًا مَا بَقِيَتْ
- ٣٣٣ «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ...»
- ٣٣٧ **المبحث الثالث عشر: العفو**
- ٣٣٩ «يَا وَيْحَ قَرِيشٍ ! لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ ؟ ...»
- ٣٤٠ «لَا تَبْرَحُوا. إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا»
- ٣٤٢ «إِنَّا لَا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا ثَبَّتُمْ مَكَانَكُمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ عَلَيْهِمْ»
- ٣٤٧ كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بِمَسْحِ الدَّمِ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ : «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» بن مسعود
- ٣٤٧ «اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ»
- ٣٤٨ «أَسْتَمْتِ هَذِهِ الشَّاةُ ؟»
- ٣٤٩ «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ، فَإِنَّ هَذِهِ الذَّرَاعَ تَخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ»
- ٣٥٠ «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ...»

- ٣٥٠ «ما ترونَ أني صانع بكم؟»
- ٣٥١ «أَلَا يُقْتَلُ مُدْبِرٌ، وَلَا يُجَهَّزُ عَلَى جَرِيحٍ»
- ٣٥٣ «لَمْ قَاتِلْتَ وَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنِ الْقِتَالِ؟»
- ٣٥٥ «إِنْ هَذَا يَرِيدُ غَدْرًا»
- ٣٥٧ عائشة لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخباً في الأسواق، ولا يُجْزَى بالسبيَّة السيئة، ولكن يعفو ويصفح
- ٣٥٧ عطاء بن يسار أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ...
- ٣٥٩ صفية بنت عبد المطلب لأحتسبنَ ولأضبرن إن شاء الله
- ٣٦٠ «فهل تستطيع أن تُعَيِّبَ وَجْهَكَ عَنِّي؟»
- ٣٦١ «دعوه، فلا سلام رجلٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ من قتل ألفٍ كافرٍ»
- ٣٦٢ «صَدَقْتُ، إِنَّكَ آمِنٌ»
- ٣٦٢ «يا عكرمةُ ما تسألني شيئاً أقدرُ عليه إلا أعطيتُك»
- ٣٦٢ «اللهم اغفر لعكرمة كلَّ عداوةٍ عادانيها، أو منطقي تكلم به»
- ٣٦٢ «مرحباً بمن جاء مؤمناً مهاجراً»
- ٣٦٣ «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء»
- ٣٦٤ «دعهُ عنك فقد جاء تائباً نازعاً»
- ٣٦٥ «من دخل دارَ حَكِيمٍ فهو آمِنٌ»
- ٣٦٥ دُعُورٍ قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله
- ٣٦٨ «يا أُمَّ سُلَيْمٍ إن الله قد كَفَى وأحسن»

٣٦٩ المبحث الرابع عشر: الدعاء والانكسار سرَّ النصر

- ٣٧١ «قولوا : لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، و نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»
- ٣٧٢ السائب إن النبي ﷺ يوم أُحُد أخذَ درعين كأنه ظاهر بينهما

- ٣٧٣ «اللهم إن تُهْلِكَ هذه العصابةَ من أهل الإيمان اليوم فلا تُعَبِّدْ في الأرض أبداً»
- ٣٧٣ يا رسول الله، كفاك مُناشدتك ربِّك، فإنه سينجزُ لك ما وَعَدَكَ أبو بكر
- ٣٧٥ «استَوُوا حتى أُنِّي على ربِّي»
- ٣٧٦ «اللهم مُنزِلَ الكتابِ، سريعِ الحسابِ، اهْزِمِ الأحزابَ، اللهم اهْزِمْهُمْ»
- ٣٧٦ «اللهم ربَّ السمواتِ وما أظَلَلْنَ، وربَّ الأرضينَ وما أَقْلَلْنَ...»
- ٣٧٩ سبحانَ الله! أفلا أهيَّبْتَنِي أولَ مارماك؟. قال: كنتُ في سورة أقرؤها عبادة
- ٣٧٩ «وايم الله، لولا أن أضيَعْتُ نَعْرًا أمرني رسولُ الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي عبادة قبل أن أقطعها»
- ٣٨٠ «عينانِ لا تَمْسُهُما النارُ: عينٌ بكَّتْ من خشيةِ الله، وعينٌ باتتْ تحرُسُ في سبيلِ الله»
- ٣٨١ إن حلاوةَ ثوابه أنستني وجعه أحد
- الصالحين
- ٣٨١ يا رسولَ الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ عائشة
- ٣٨١ «بل أرجو أن يُجْرِحَ اللهُ من أصلابهم مَنْ يعْبُدُ اللهَ وحده، لا يشركُ به شيئاً»
- ٣٨٢ «إني لم أبعثُ لَعانًا، وإنما بُعثتُ رحمةً»
- ٣٨٢ «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»
- ٣٨٢ «اللهم اهدِ دُوسًا وائتِ بهم»
- ٣٨٣ يا رسولَ الله أحرَقْتَنَّا نبالَ ثقيفِ فادعُ اللهَ عليهم بعض
- الصحابية
- ٣٨٣ «اللهم اهدِ ثقيفًا»

٣- الأعلام *

١٦٦	أبان بن سعيد بن العاص بن أمية
٢٥١	إبراهيم ابن النبي ﷺ
٢٢٩ ، ١٣١ ، ٤٨	أبي بن خلف (أبو عامر)
٣١٦	أبي بن كعب
١٥٣	ابن أنال
١٧٣	الأخنس بن شريق
١٧٣	أزهر بن عوف
٣١٦ ، ٣٠١ ، ٢٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٠	أسامة بن زيد
٣٥٥ ، ٣٠٢ ، ٢٣٢	أسيد بن خصير
٣٧٩ ، ٢٣٧	الأقرع بن حابس
٨٨	أكثم بن أبي الجون الخزاعي
٢٥١ ، ١١٢	أكيدر بن عبد الملك (دومة)
٢٢٩	أمية بن خلف
٢٧٣	أنس بن مالك
٢٩٦	أنس بن النضر
١٠٣	إياس بن سلمة
٢٥٣ ، ١٨٥ ، ١٦٧	بديل بن ورقاء الخزاعي

(٥) تنبيه: راعيت في ترتيب الأعلام الحروف الهجائية من دون اعتبار (ابن، ابن أبي، أبو، أم، أل) وراعيت الحرف المشدد بحرفين.

٢٦٨ ، ٢٣	البراء بن عازب
٣٤٩	بشر بن البراء
١٧٤	أبو بصير = عُثْبَةُ بن أبيب
٣٧٣ ، ٣٠٥ ، ٢٤٨ ، ١٧١ ، ١٤٢ ، ٩٣	أبو بكر الصديق
٣٥٣	بنو بكر
٣٢٨	أبو بكرة
٢٨٣	بلال بن رباح
١٢٠ ، ٩٩	ثُمَامَةُ بن أَنَالِ الحنفي
٣٧٨ ، ٣٦٦ ، ٢٨٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٥	جابر بن عبد الله
٣٥٨ ، ١٢٨	جُبَيْر بن مطعم
١٠٩	أبو جُحَيْفَةَ
١٥٦	جُعدَةُ بن هبيرة
٣٥٤	جعفر بن أبي سفيان
٢٦٠	جعفر بن أبي طالب
٢٦٢	جُلَيْبِيب
١٧٠	أبو جَنْدَل بن سُهيل بن عمرو
٢٣١	جَهْجَاه بن مسعود الغفاريّ
٢٢٩	أبو جهل بن هشام
٤٩	الحارث بن الصَّمَّة
١٨٦	الحارث بن عامر
٦١	الحارث بن عوف
١٥٦	الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي

٣٥٣	بنو الحارث بن عبد مناف
٢٠٧	حاطب بن أبي بلتعة
١٠٩	الحجاج
٢٩٥ ، ٢١١ ، ٢٠٤ ، ٣١	حذيفة بن اليمان العسبي
١٣٩	أبو حذيفة
٢٣٨	حرقوص بن زهير السعدي
٣٠٦ ، ٢٥١ ، ١٢٨	حسان بن ثابت
٢١٩	حصين (من بني سالم بن عوف)
٧٠	ابن أبي الحقيق
٣٦٤ ، ٢٥٠	حكيم بن حزام
٣٥٨ ، ٢٥٩ ، ١٣٩	همزة بن عبد المطلب
١١	حنظلة الأسدي
٢٠٠ ، ١٩٤	حُبَيْب بن أخطب
٣١٥ ، ٣٠٩ ، ٢٧٢	خالد بن زيد (أبو أيوب)
٢٨ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ٢٤٣ ، ٢٩٥ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦	خالد بن الوليد
١٨٦	حُبيب بن عدي
١٨٥	خِراش بن أمية الخزاعي
١٩٥	خَوَات بن جبير
٧١ ، ٣٠	أبو دُجانة = سِماك بن خِرْشَة
٧٤	دُرَيْد بن الصَّمَّة
٣٦٥	دُعْثور بن الحارث
١٣٨	أبو ذر

١٥٣	أبو رافع القبطي (مولى رسول الله ﷺ)
٨٣	ابن ربيعة بن الحارث
٧٤	ربيعة بن رُفَيْع السُّلَمي
١٢٩	رستم
١٦٠	رِفاعَة بن سَمُوال القُرَظي
٣٥٩ ، ٣٥٣ ، ٢٠٨	الزبير بن العوام
١٥٦	زهير بن أبي أمية الخزومي
١١٨	زهير بن صَرْد
٢٣١	زيد بن أرقم
١١٠ ، ٩٠	زيد بن ثابت
٣١٦ ، ٢٦٠ ، ١٣٩ ، ١١٦ ، ٧٤	زيد بن حارثة
٢٣٧	زيد الخليل
١٠١	السائب بن عبيد
٣٧٢	السائب بن يزيد
١٤٠ ، ١٣٩	سالم (مولى أبي حذيفة)
٢٥٩	سعد بن الربيع
٢٧٧ ، ٢٧٤ ، ٢٤٨ ، ١٩٥ ، ٦١ ، ٥٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٢ ، ٣٠٢ ، ٢٨٢	سعد بن عبادة
٣١٦ ، ٣٠٢ ، ٢٩٦ ، ١٩٥ ، ٧٧ ، ٦١	سعد بن معاذ
١٠٦	سعد بن التَّعمان بن أَكْمال
٣١٦ ، ٢٤١	سعد بن أبي وقاص
٢٥٤ ، ٢٣	أبو سفيان بن الحارث

أبو سفيان بن حرب	١٠٦ ، ١٥٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٢
سَلَامُ بنِ مِشْكَمٍ	٣٤٧
سلمان الفارسي	٦٠ ، ٢٧
سلمة بن عمرو بن الأكوع	٢٧١
سليط بن قيس	١٦٠
سنان بن وَرِّ الجهني	٢٣١
سهيل بن بيضاء	٩٥
سهيل بن عَمْرُو	١٦٨ ، ٨١
سواد بن غَزِيَّة	٢٢٣ ، ٣٢
شَأْسُ بنِ قَيْسٍ	٢٥٦
شبية بن ربيعة	٢٢٩
صفوان بن أمية بن خلف	٣٠٦ ، ١٣٣ ، ٣٠
صفوان بن المَعْطَل	٢٩٩
صَيْفِي بن أَبِي رِفَاعَةَ	١١٥
طُعَيْمَةُ بنِ عَدِي	٣٥٨ ، ١٢٨
الطُّفَيْلُ بنِ عَمْرُو الدَّؤَسِيِّ	٣٨٢
طلحة بن عُبَيْدِ اللهِ	٣٢٩ ، ٢٤٨
أبو طلحة	٣٦٨
أبو العاص بن الربيع	١٥٦ ، ١١٥ ، ١٠٠
عاصم بن ثابت	١٣٠
عاصم بن عَدِي	٢٤٨
عامر بن الأَضْبَط	٢٤٢

٢٧٠	عامر بن الأكوع
٢٣٧	عامر بن الطَّقِيل
٣٧٨ ، ٢٣٢	عباد بن بشر
١١٣ ، ١١٤ ، ١٥٤ ، ٢٤٨ ، ٢٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٥٢	العباس بن عبد المطلب
٢٤٨	عبد الرحمن بن خَبَّاب
٢٤٨	عبد الرحمن بن عوف
٧٠	عبد الرحمن بن كعب بن مالك
٢٢٦	عبد القدوس
٥٨ ، ١٠١ ، ١٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٩٩ ، ٢١٤	عبد الله بن أَبِي ابن سلول
٣٥٤	عبد الله بن أبي أمية
٢٩٥ ، ٣٤١	عبد الله بن جُبَيْر
٢٦	عبد الله بن جحش
٢٦٠	عبد الله بن جعفر
٢٨٦	عبد الله بن حنظلة
١٣٣	عبد الله بن خَطَل
٢٦٥	عبد الله ذو البِجَادِين المِزَنِي
٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٦٠	عبد الله بن رواحة
١٦١	عبد الله بن سعد بن أَبِي سَرْح
٣٠٨	عبد الله بن عَبَّاس
٢٣٣	عبد الله بن عبد الله بن أَبِي
١٠٩	عبد الله بن عمر

٣٥٧	عبد الله بن عمرو بن العاصي
٢٦٦ ، ٢٦٤	عبد الله بن مسعود
٣٧٥	عبيد بن رفاعة الزُّرقي
٢٢٩	عتبة بن ربيعة
١١٣	عتبة بن عمرو
٢٨٠ ، ١١٥	عُتْبة بن أبي لُهب
٨٢	عُتَّاب بن أُسيد
٢٨٨	عثمان بن طلحة
٢٤٨ ، ١٦٦ ، ١٦١ ، ١١٥	عثمان بن عفان
١٠٢	عدي بن حاتم
١٢٥	أبو عروة الأزدي
١٦٨ ، ٣٢	عروة بن مسعود الثقفي
١٣١ ، ١١٥ ، ٩٨	أبو عَزَّة الجحمي (الشاعر)
٩٩	أبو عزيز بن عمير
٣٥٧	عطاء بن يسار
٢٢٩ ، ١٢٩ ، ٩٨	عقبة بن أبي مُعَيْط
٢٥٤ ، ١١٣ ، ٩٨ ، ٩٣	عقيل بن أبي طالب
٣٦٢ ، ٣٥٦ ، ٣٤٣ ، ٢٠٦	عِكْرمة بن أبي جهل
١٢٢	العلاء بن الحَضْرَمي
٢٣٧	علقمة
١٥٥ ، ٢٠٨ ، ٢٣٧ ، ٢٦٦ ، ٣٠١ ، ٣٧٤ ، ٣٥٥	علي بن أبي طالب
٩٠	عُمارة بن حَزْم

١٠٤	عمران بن حُصَيْن
٢٣١ ، ١٧٠ ، ٩٣ ، ٨٢ ، ٧٦ ، ٦٣ ، ٢٧٠ ، ٢٦٤ ، ٢٤٨ ، ٢٣٣	عمر بن الخطاب
٣٥٥	عمرو بن أمية الضَّمْرِي
٢٥٣	عَمْرُو بن تَغْلِب
٣٧٨	عَمَّار بن ياسر
١٨٥	عَمْرُو بن سالم الخزاعي
١٨٥ ، ١٠٦	عمرو بن أبي سفيان صخر بن حرب
١٧٩	عَمْرُو بن العاص
٣٥٦ ، ١٣٣	عُمَيْر بن وهب
٢٣٧	عُيَيْنَة بن بدر
٢٧٩ ، ٦١	عبيدة بن حصن
٢٤٠	غالب بن عبدالله الليثي
٣٦٧	عَوَزَت بن الحارث
٣٢٥ ، ٢٤٢	أبو قتادة
٣١٦	قتادة بن النعمان
٨٧	قُزَّمان الظَّفْرِي
٢٥٢	قيصر هرقل
٤٢	كسرى
١٩٤	كعب بن أسد
٣٧٦ ، ١٩١	كعب بن الأشرف
٣٦٣	كعب بن زهير
٣٢١ ، ٤٨	كعب بن مالك

٢٦٦	أبو لُبَابَة
٧٤	مالك بن عوف
٣٦٨	مالك بن النضر
٢٤٢	مُحَلَّم بن جَثَامَة
٣٥٩	محمد بن جعفر بن الزبير
٢٦٠	محمد بن جعفر بن أبي طالب
٢٤٨ ، ١٩١	محمد بن مسلمة
١٢٥	محمد بن المعلّى الأزدي
٣٢١	مُرارة بن الربيع العَمْرِيّ
١٢٦	مسافع بن صفوان
٣٠٩	مِسْطَح بن أَنَاثَة
١٤٤	أبو مسعود البَدْرِيّ
٢٥٣	مسعود بن عمرو الغِفَارِيّ
٢٨٦	مسلم بن عقبة المريّ
١٥٣ ، ١٢٢	مسيلمة (الكذاب)
٩٩	مصعب بن عمير
١٢٧	المطعم بن عديّ
١١٥	المَطَّلِب بن حَنْظَب
٣٢٣	معاذ بن جبل
٣٦٤	معاوية
٣٧٦	أبو مُعْتَب بن عمرو
٢٨٠	مُعْتَب بن قُشَيْر
٢٨٠	معتب بن أبي لهب

١٣٨	المعروور بن سُوَيْد
٢٠٨	المقداد
٢٥١	المُقَوِّس
١٢٤	مكحول
١٩١	أبو نائلة
٢٧٠	نصر بن ذَهْر الأَسْلَمِيّ
١٢٨ ، ٩٨	النَّضْر بن الحارث
٢٠٥	نُعَيْم بن مسعود العَطْفَانِيّ
٩٨	نوفل بن الحارث
١٥٣	ابن التَّوَّاحَة
١٥٥	هُبَيْرَة بن أبي وَهَب المَخْزُومِيّ
٤٣	هَرَقْل
٣٢١	هلال بن أمية الواقفي
٣٥٨	وَخْشِي بن حرب الحبشيّ
١٠٠	الوليد بن الوليد بن المغيرة
١١٥	وَهَب بن عُمَيْر الجُمَحِيّ
١١٢	يُحَنَّة بن رُوْبَة
٧٣	يزيد بن أبي سفيان
٢٨٦	يزيد بن معاوية
٢٩٥	اليمان
٣١٥	يوسف، عليه السلام

الأعلام من النساء

٨٥	أميمة بنت رُقَيْقَة
٣١٥ ، ٣٠٩	أم أيوب
٣٠١	بَريرة
٣٥٩	ثُوَيْبَة (مولاة أبي هُب))
١٢٦	جُوَيْرِيَة بنت الحارث (أم المؤمنين)
٣٦٢	أم حكيم بنت الحارث بن هشام
٣٥٤	حليمة السعدية
٣٠٦	خَمْنَة بنت جحش
٣٦٤ ، ١١٥ ، ٣٨	خدِيجَة بنت خويلد (أم المؤمنين)
٨٥	رائطة بنت سفيان الخزاعية
٧٨	الرُّبَيْع بنت معوذ
٢٩٦	الرُّبَيْع بنت النضر
٧٧	رُقَيْدَة
١١٥	رقية بنت الرسول ﷺ
١٥٦ ، ١١٥	زينب بنت الرسول ﷺ
٣١٣ ، ٣٠٦ ، ١٣٩	زينب بنت جحش (أم المؤمنين)
٣٤٩ ، ٣٤٧	زينب بنت الحارث
٢٠٨	سارة
١٠٢	سَفَّانة بنت حاتم الطائي
١٦٠	سلمى بنت قيس

١٧٢	أم سلمة (أم المؤمنين)
٣٦٨ ، ٧٧	أم سليم بنت ملحان (أم أنس)
٢٥١	سيرين
١٢٤	الشيءاء بنت الحارث السعدية
٣٥٩	صفية بنت عبد المطلب
٣٨١ ، ٣٥٧ ، ٢٩٨ ، ٧٨	عائشة (أم المؤمنين)
٨٥	عائشة بنت قدامة
٣٥٤	عاتكة بنت عبد المطلب
٧٨	أم عطية الأنصارية
٢٥٤	فاطمة بنت شيبه
٢٢٩ ، ٢٢٥	فاطمة بنت الرسول ﷺ
١٣٩	فاطمة بنت الوليد بن عتبة
١١٣	أم الفضل (امرأة العباس)
١١٥	أم كلثوم بنت الرسول ﷺ
١٧٧	أم كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط
٢٥١	مارية القبطية (أم المؤمنين)
٣٠٠	أم مسطح
٢٢	أم معبد
١١٣	ميمونة بنت الحارث (أم المؤمنين)
١١٥	هالة بنت خويلد
١٥٥	أم هانئ فاختة بنت أبي طالب
٣٢٦	امرأة هلال بن أمية
٣٥٨	هند بنت عتبة

٤ - المراجع

- «آثار الحرب في الفقه الإسلامي» لوهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٩هـ.
- «أحكام القرآن» للجصاص، مصورة عن ط باكستان، ١٤٠٠ هـ.
- «أحكام القرآن» لابن العربي، ت علي البجاوي، عيسى الحلبي، القاهرة.
- «الأحكام السلطانية» للماوردي، راجعه د. محمد السرجاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- «الأدب المفرد» للبخاري، ت كمال الحوت، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- «أسد الغابة» لعز الدين ابن الأثير، دار الفكر.
- «الإصابة» لابن حجر، ت علي البجاوي، ط نهضة مصر، القاهرة، ١٣٨٣ هـ.
- «إمتاع الأسماع» للمقرئزي، تصحيح محمود شاكر مصورة.
- «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» للحلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦ م.
- «إنسانية الإسلام» لمارسيل بؤازار، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠ م.
- «بدائع الصنائع» للكاساني، ت علي معوض، وزميله، دار الكتب العلمية، بيروت.
- «البداية والنهاية» لابن كثير، ت د. عبد الله التركي، ط هجر، القاهرة، ١٤١٧هـ.
- «بهجة النفوس» لابن أبي جمزة. مصورة عن طبعة مصرية. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٢٥هـ.
- «التاج والإكليل» للعبدي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- «تاج العروس» للزيدي، مصورة عن ط الخيرية، مصر، ١٣٠٦هـ.
- «التحرير والتنوير» لابن عاشور، دار سحنون، تونس.
- «التفسير الكبير» لفخر الدين الرازي، ط البهية، مصر.

- «تفسير ابن كثير» ت سامي السلامة، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٠ هـ.
- «تهذيب التهذيب» لابن حجر، حيدر آباد ١٣٢٥هـ.
- «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للطبري، ت د. عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة ١٤٢٢ هـ.
- «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، تصوير عن دار الكتاب، القاهرة.
- «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم، تصوير بيروت، ١٤٠٣هـ.
- «حدايق الأنوار» لبحرق، ت محمد غسان عزقول، بيروت، ١٤٢١ هـ.
- «الحرب النفسية من منظور إسلامي» د. أحمد نوفل، الأردن، ١٤٠٧ هـ.
- «حلية الأولياء» لأبي نعيم، ط السعادة، ١٣٥١هـ.
- «دروس في الكتمان من الرسول القائد» لمحمود شيت خطاب، مصورة.
- «دلائل النبوة» للبيهقي، ت عبد المعطي قلعجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ.
- «الذخيرة» للقرافي، ت د. محمد حجّي، ط ١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٤ م .
- «دلائل النبوة» لأبي نعيم ت د. محمد رواس قلعجي وعبد البر عباس، بيروت، ١٤١٩هـ.
- «الرحيق المختوم» لصفي الرحمن المباركفوري، جدة، ١٤١١هـ.
- «رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين، دار الاعتصام، القاهرة.
- «الرسول القائد» لمحمود شيت خطاب، دار الفكر، ط ٥، بيروت، ١٤٠٩ هـ.
- «روح المعاني» لمحمود الألوسي، مصورة عن الطبعة المنيرية.
- «الروض الأنف» للسهيبي، ت طه عبد الرؤوف، بيروت، ١٣٩٨ هـ.
- «زاد المعاد» لابن القيم ت شعيب الأرنؤوط، الرسالة، بيروت، ١٤٠١ هـ.
- «زاد المسير في علم التفسير» لأبي الفرج ابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
- «سبل السلام» للصنعاني، دار الفكر.
- «سبل الهدى والرشاد» للشامي، بيروت، ١٤١٤ هـ.

- «السنن الكبرى» للبيهقي، تصوير عن حيدر أباد، ١٣٤٤ هـ.
- «السياسة الشرعية» لابن تيمية، بيروت، ١٣٨٦ هـ.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي. د. بشار عواد، الرسالة، بيروت، ١٤٢٢ هـ.
- «السيرة النبوية» لعبد الملك بن هشام، ت السقا وزميليه، تصوير، بيروت.
- «السيرة النبوية» لأبي شهبه، دار القلم، بيروت، ١٤٠٩ هـ.
- «السيرة النبوية» لأبي الحسن الندوي، دار القلم، بيروت، ١٤٢٧ هـ.
- «السيرة النبوية» د. مهدي رزق الله أحمد، دار إمام الدعوة، الرياض، ١٤٢٤ هـ.
- «السيرة النبوية» د. علي الصلّالي، دار اليقين بالمنصورة، ١٤٢٥ هـ.
- «شرح صحيح مسلم» للنووي - ط المصرية بالقاهرة ١٣٤٩ هـ.
- «الشفّا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض، مصورة دار الفكر.
- «صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي، دار النفائس، الأردن، ١٤٢٧ هـ.
- «صفة الصفوة» لابن الجوزي، ت محمود فاخوري، بيروت.
- «صور وعبر من الجهاد النبوي» د. محمد فوزي فيض الله، بيروت، ١٤١٦ هـ.
- «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام، ت محمود محمد شاكر، ط المدني، القاهرة، ١٣٩٤ هـ.
- «الطبقات الكبرى» لابن سعد، وفي آخر كل جزء شروح وتحقيقات للألمان ترجمة د. محمد عونى عبد الرؤوف، دار التحرير، ١٣٨٨ هـ.
- «عبرية محمد» لعباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت.
- «فتح الباري» لابن حجر، الطبعة السلفية.
- «فتح القدير» لابن الهمام، بولاق، ١٣١٥ هـ.
- «فتح المنعم شرح صحيح مسلم» د. موسى شاهين لاشين، بيروت، ١٤٢٣ هـ.
- «الفروق» للقرافي ت د. محمد سراج ود. علي جمعة، دار السلام، القاهرة ١٤٢١ هـ.
- «فقه السيرة النبوية» د. محمد سعيد رمضان البوطي، بيروت، ١٤٢٦ هـ.

- «فقه السيرة» لمحمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٤هـ.
- «فيض القدير» للمناوي، ط مصطفى محمد، القاهرة، ١٣٥٦هـ.
- «القاموس المحيط» للفيروزآبادي، ط الحسينية، ١٣٤٤هـ.
- «قانون الحرب في الإسلام» مقال لأبي زهرة في مجلة لواء الإسلام. العدد ٨، ٩، ١٠ السنة الثانية.
- «قواعد الحرب في الشريعة الإسلامية» لعواض الوديعاني، الرشد، ١٤٢٦هـ.
- «الكتب الستة» إشراف معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ط إيطاليا، ١٤٢٠هـ.
- «كشف الخفاء» للعجلوني، ط القدسي، القاهرة.
- «لباب الخيار في سيرة المختار» لمصطفى الغلايني، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١٤.
- «لسان العرب» لابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٣٧٤هـ.
- «مجمع الزوائد» للهيتمي القدسي، القاهرة، ١٣٥٣هـ.
- «مجموع الفتاوى» لابن تيمية، إشراف وزارة الشؤون الإسلامية ١٤١٦هـ.
- «محاسن التأويل» للقاسمي. اعتنى به محمد فؤاد عبد الباقي. مصورة دار الفكر.
- «محمد رسول الله ﷺ» لمحمد الصادق عرجون، دار القلم، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- «مختصر منهاج القاصدين» لأحمد المقدسي، ت شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨هـ.
- «مدراج السالكين» لابن القيم، ت عبد العزيز بن ناصر، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٣هـ.
- «المدرسة النبوية العسكرية» د. محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الأردن، ١٤١٣هـ.
- «المستدرک» للحاكم، عناية عبد السلام علوش، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٨هـ.
- «مسند الإمام أحمد»، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- «مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق» لابن النحاس، ت. إدريس محمد علي،

- ومحمد خالد إسطنبولي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٠ هـ.
- «المصباح المنير» للفيومي، ت. د. عبد العظيم الشناوي، دار المعارف.
- «المصنف» لابن أبي شيبة، ت محمد عوامة، دار قرطبة، بيروت، ١٤٢٧ هـ.
- «المطالب العالية» لابن حجر، ت حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت.
- «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» للبكري، ت. مصطفى السقا، بيروت .
- «المغازي» للواقدي، ت. د. مارسدن جونز.
- «المغانم المُطابفة في معالم طابة» للفيروزآبادي، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة ١٤٢٣ هـ.
- «المغني» لابن قدامة، ت. د. عبد الله التركي و د عبد الفتاح الحلو، الرياض، ١٤١٧ هـ.
- «المنهج التربوي للسيرة النبوية» لمنير الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، ١٤١٤ هـ.
- «مناهل العرفان في علوم القرآن» لمحمد عبد العظيم الزرقاني، صورة عن ط عيسى الحلبي.
- «من ذخائر السنة النبوية» طه الساكت، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٢٥ هـ.
- «المواهب اللدنية» للقسطلاني، ت صالح الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢ هـ.
- «الموطأ» لمالك، ت محمد فؤاد عبد الباقي، ط عيسى الحلبي، ١٣٧٠ هـ.
- «النبأ العظيم» محمد عبد الله دراز، ت عبد الحميد الدخايني، دار طيبة، ١٤١٧ هـ.
- «نظام الرق في الإسلام» عبد الله ناصح علوان، ط دار السلام، ٢٠٠٣ م.
- «النهاية» لابن الأثير، ت د. محمود الطناحي، والزاوي، ط عيسى الحلبي.
- «نيل الأوطار» للشوكاني، ط مصطفى الحلبي، القاهرة.

٥ - الموضوعات

الصفحة

الموضوع

- تقرّظ الأستاذ الدكتور الشفخ على بن سعد الضويفي ٥
- تقرّظ الشفخ / عبد الله بن محمد الغميجان ٧

المقدمة

٩ - ١٦

- خطة البحث ١٤

المبحث الأول

صفات القائد

١٧ - ٣٤

- اعرف نبئك ﷺ ١٩
- صفات الرسول ﷺ قائدًا ٢١

المبحث الثاني

القتال

٣٥ - ٥٢

- ٣٧ خصائصه الإنسانية وما لاقاه من قومه ﷺ
- ٤١ دوافع القتال في الإسلام
- ٤٤ كراهة تمنى لقاء العدو
- ٤٦ القتال العادل
- ٤٨ قول : « أبي بن خلف » : أين محمد؟ لا نجوت إن نجا

المبحث الثالث

الشورى

٥٣ - ٦٦

- ٥٥ الشورى
- ٥٦ أغراض مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه
- ٥٧ مشاورة الرسول ﷺ في الخروج لقتال المشركين في غزوة بدر
- مشاورة الرسول ﷺ الصحابة في الخروج أو البقاء في المدينة يوم
- ٥٨ أخذ
- ٥٩ الحكمة في عدم تراجع الرسول ﷺ بعد عزمه على القتال
- ٦٠ الرسول ﷺ يوافق « سلمان الفارسي » على حفر الخندق
- ٦٠ نزول الرسول ﷺ عند رغبة السعديين، ﷺ
- قبول الرسول ﷺ مشورة « أم سلمة » عند تباطؤ الصحابة في
- ٦٢ التحلل

- ٦٣ مشاوره الرسول ﷺ في التقدم بالجيش إلى ما بعد تبوك
- ٦٤ سبب الشورى عند النبي ﷺ وموطنها

المبحث الرابع

تعاليم الرسول ﷺ

٦٧ - ٩٠

- ٦٩ معاملة الضعفاء
- ٦٩ حكم قتل النساء والصبيان :
- ٧٢ حكم قتل الشيخ الهرم والأعمى والراهب والزَّيْمَن
- ٧٤ خبر «دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ»
- ٧٦ معاملة الجرحى والمرضى والقتلى
- ٧٩ المُنْتَلَةُ في الشريعة :
- ٨١ موقف «سُهَيْل» حين افتتان المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ
- ٨٣ خطبة الرسول ﷺ في عرفة في حجة الوداع
- ٨٥ مبايعة الرسول ﷺ للنساء يوم الفتح
- ٨٧ قاتِلُ نفسه في النار
- ٩٠ الرسول ﷺ ينهى عن ترويع المسلم

المبحث الخامس

الأسرى

٩١ - ١٤٦

- ٩٣ موقف الإسلام من الأسرى
- ٩٨ حكم الأسرى
- ٩٩ تعاليم الرسول ﷺ نحو أسرى الحرب

- ١- إطعام الأسير ٩٩
- ٢- كسوة الأسير ١٠١
- ٣- تبادل الأسرى ١٠٣
- ٤- النهي عن ضرب الأسير ١٠٧
- ٥- النهي عن التفريق بين الوالدة وولدها في السَّبْيِ ١٠٧
- ٦- وجوب فكّك الأسرى ١٠٩
- ٧- التعليم مقابل الفداء ١١٠
- ٨- الجزية مقابل عقد الذمة ١١٢
- من أخلاق الرسول ﷺ الرحمة والعدل ١١٣
- وعد الله الأسارى بالخير إن أسلموا ١١٤
- الرسول ﷺ يُطْلِقُ أبا العاص بلا فداء ١١٥
- ردّ الرسول ﷺ السَّبْيِ إلى هوازن بعد إسلامهم ١١٨
- حوار الرسول ﷺ لـ « ثمامة بن أثال » ١٢٠
- لطافة الرسول ﷺ وحنانه ١٢٤
- حكمة الرسول ﷺ من زواجه بـ « جُوَيْرِيَةَ » ﷺ ١٢٦
- الرسول ﷺ يحفظ المعروف لـ « المطعم بن عدي » ١٢٧
- جزاء مجرمي الحرب ورؤوس الفتنة القتل ١٢٨
- رحمة الرسول ﷺ وحزمه ١٣١
- من الحزم محاسبة المجرمين ١٣٣
- عفو الرسول ﷺ عن عمير، وإطلاق أسيره ١٣٣
- معاملة الرسول ﷺ العادلة للرقيق ١٣٦
- الرسول ﷺ هو الصادق في تحرير الرقيق ١٣٧
- سمو معاملة الرقيق في تعاليم الرسول ﷺ ١٣٩
- الأسس التي وضعها الرسول ﷺ في تحرير الرقيق ١٤١

المبحث السادس

الجوار

١٤٧ - ١٦٢

- ١٤٩ الجوار في الإسلام -
- ١٤٩ ١- تقدير الإسلام للإنسانية
- ١٥٠ ٢- عناية الإسلام بجوار أهل الذمة
- ١٥٠ ٣- عناية الإسلام البالغة في أهل الذمة
- ١٥١ ٤- معاملة الإسلام للمعاهدين والمستأمنين
- ١٥٢ الجوار في الحرب -
- ١٥٣ إجارة رُسل المحاربين -
- ١٥٤ إجارة « العباس » لأبي سفيان -
- ١٥٥ إجارة النساء -
- ١٥٦ إجارة زينب بنت رسول الله ﷺ لأبي العاص -
- ١٥٩ طريقة إسلام « أبي العاص » صورة مثالية -
- ١٦٠ إجارة « سلمى بنت قيس » لـ « رِفاعَة بن سِمَوال » -
- ١٦١ الرسول ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه -

المبحث السابع

المعاهدات

١٦٣ - ٢٠٠

- ١٦٥ صلح الحُدَيْبِيَّة -
- ١٦٦ بيعة الرضوان -

- ١٧٣ ما جرى عليه أمر قوم من المستضعفين بعد الصلح
- ١٧٦ شروط المعاهدة وبنودها
- ١٧٩ السلم
- ١٨٠ الجِكم والأسرار في صلح الحديبية
- ١٨٢ الوفاء بالعهد
- ١٨٣ تحريم الغدر
- ١٨٤ نقض قريش عهد الحديبية
- ١٨٥ صبر الرسول ﷺ على غدر قريش
- ١٨٦ لا غدر عند صحابة رسول الله ﷺ
- ١٨٧ اليهود نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ
- ١٨٨ ١- بنو قينقاع
- ١٨٩ اليهود دعاءً إلى نزع الحجاب :
- ١٩٠ ٢- بنو النضير
- ١٩١ جزاء « كعب بن الأشرف » القتلُ لنقضه العهد
- ١٩٤ من خلق الرسول ﷺ الثبت في الأخبار
- ١٩٤ نقض عهد بني قريظة في غزوة الخندق :
- ١٩٧ ٣- بنو قريظة
- ١٩٩ الصلح مع يهود خيبر

المبحث الثامن

الكتمان

٢٠١ - ٢١٤

- ٢٠٣ تعريف الكتمان :
- ٢٠٣ حكم الكتمان

- من صفات الرسول ﷺ الكتمان ٢٠٤
- يقظة الرسول ﷺ ورحمته بالضعفاء ٢٠٧
- التزام « حذيفة بن اليمان » بتنفيذ خطة الرسول ﷺ ٢١١
- رفق الرسول ﷺ بأصحابه ٢١٣

المبحث التاسع

سماحة الإسلام

٢١٥ - ٢٤٤

- لا إكراه في الدين ٢١٧
- البر في معاملة أهل الذمة ٢٢٠
- هدف الرسول ﷺ إقامة العدل ٢٢١
- الرسول القائد العام ﷺ يمكن من نفسه لأخذ القود ٢٢٣
- عرض الرسول ﷺ الإسلام على الغلام اليهودي ٢٢٦
- موقف الشريعة من قتلى الكفار ٢٢٩
- منهج الرسول ﷺ في سياسة الأمة وحرصه على وحدتها ٢٣١
- معاملة الرسول ﷺ على ظاهر الإسلام ٢٣٦
- (١) معاملة المنافقين ٢٣٦
- (٢) معاملة غلاظ الطبع من المصلين ٢٣٧
- طبيعة الرسول ﷺ الرحمة بالعالمين: ٢٣٨
- تحريم الرسول ﷺ قتل الكافر بعد قوله: لا إله إلا الله ٢٤٠
- غضب الرسول ﷺ لقتل من سلم بتحية الإسلام ٢٤٢
- إنكار الرسول ﷺ على عجلة خالد في قتل بني جذيمة ٢٤٣

المبحث العاشر

التكافل الاجتماعي

٢٩٢ - ٢٤٥

- ٢٤٧ الأتقى هو الأفضل -
- ٢٤٧ الرسول ﷺ حَضَّ على البذل والخير -
- ٢٥٠ الرسول ﷺ يعلم أصحابه العفة -
- ٢٥١ من أخلاق الرسول ﷺ قبول الهدية -
- ٢٥٢ الحكمة في قسمة الرسول ﷺ الغنائم -
- ٢٥٣ طهر الرسول ﷺ مجتمعه من الخيانة المالية -
- ٢٥٥ كراهية الرسول ﷺ الدعوة إلى العصبية -
- ٢٥٩ الرسول ﷺ قائداً عاماً يتفقد قتلى أحد -
- ٢٦٠ تكريم الرسول ﷺ لأبناء الشهداء -
- ٢٦٢ مظاهر تواضع رسول الله ﷺ -
- ٢٦٢ ١- الرسول ﷺ يحمل الشهيد «جلبيب» على ساعديه إلى قبره -
- ٢٦٤ ٢- الرسول ﷺ يوسد يديه الشريفتين أحد الشهداء في قبره -
- ٢٦٦ ٣- الرسول ﷺ لا يحب أن يتميز على أصحابه -
- ٢٦٧ ٤- الرسول ﷺ يشارك أصحابه في إنشاد الشعر في الحرب -
- ٢٧٣ لطف الرسول ﷺ مع الأنصار، وحكمته في معاملتهم -
- ٢٧٩ حلم الرسول ﷺ وصبره على جفأة الأعراب -
- ٢٨٠ ملاطفة الرسول ﷺ لـ «عتبة» و«معتب» ابني أبي لهب -
- ٢٨٢ الرسول ﷺ داع إلى الله، ولا يزيدُه النصر إلا تواضعاً لله -
- ٢٨٤ قصة جمل « جابر بن عبد الله » ﷺ -

- أضواء على قصة جمل « جابر بن عبد الله » : ٢٨٦
- الرسول ﷺ يصف يوم الفتح بأنه يومٌ برّ ووفاء ٢٨٨
- وفاء الرسول ﷺ مع الأنصار في البقاء معهم بعد فتح مكة ... ٢٩٠

المبحث الحادي عشر

الشائعات

٢٩٣ - ٣١٨

- إشاعة مقتل الرسول ﷺ يوم أُحد أفقدت الصحابة التوازن ... ٢٩٥
- خير الإفك ٢٩٨
- الآثار والنتائج ٣٠٩

المبحث الثاني عشر

الصدق

٣١٩ - ٣٣٦

- قصة المخلفين في غزوة تبوك ٣٢١
- النجاة في الصدق والتوبة ٣٣٢

المبحث الثالث عشر

العفو

٣٣٧ - ٣٦٨

- حسرة الرسول ﷺ على خسارة أرواح قريش ٣٣٩
- التوجيه النبوي للرماة ٣٤٠

- ٣٤٢ - نتائج مخالفة الرماة
- ٣٤٤ - عفو الرسول ﷺ عن الرماة
- ٣٤٥ - الفوائد والحكم المستفادة من غزوة أُحد
- ٣٤٧ - عفو الرسول ﷺ عن اليهودية التي سَمَّتْ له الشاة
- ٣٥٠ - عفو الرسول ﷺ العام يوم فتح مكة
- ٣٥٢ - اليوم يوم المرحمة
- ٣٥٣ - لِمَ قاتلتَ وقد نهيتك عن القتال ؟
- ٣٥٤ - عفو الرسول ﷺ عن آذاه
- ٣٥٥ - الصدق منجاة
- ٣٥٦ - عفو الرسول ﷺ عن «صفوان» و«عكرمة»
- ٣٥٨ - عفو الرسول ﷺ عن « وحشي » قاتِل « حمزة »
- ٣٦٢ - الصفح والعفو من أخلاق الرسول ﷺ
- ٣٦٣ - عفو الرسول ﷺ عن « كعب بن زهير »
- ٣٦٤ - مَنْ دخل دار « حكيم » فهو آمن
- ٣٦٥ - من أخلاق رسول الله ﷺ العفو عن من أراد قتله
- ٣٦٨ - صفح الرسول ﷺ عن الطلقاء يوم حنين

المبحث الرابع عشر

الدعاء والانكسار سرُّ النصر

٣٦٩ - ٣٨٤

- ٣٧١ - الرسول ﷺ يتَّخذ الأسباب ويلجأ إلى الله بالدعاء والصلاة
- ٣٧٣ - الدعاء في القتال
- ٣٧٣ - دعاؤه ﷺ في « غزوة بدر »
- ٣٧٥ - دعاؤه ﷺ بعد انتهاء غزوة أُحد

- ٣٧٦ دعاؤه ﷺ يوم غزوة الخندق
- ٣٧٦ دعاؤه ﷺ لما أشرف على خيبر
- ٣٧٧ كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ أكثر من الصلاة
- ٣٧٨ « عبّاد بن بشر » يتلذذ في مناجاة الله وهو في الحراسة
- ٣٨١ شفقة الرسول ﷺ ودعاؤه لقومه وحلمه عليهم
- ٣٨٣ العجبُ سببُ انكشاف المجاهدين في حنين

النتائج والكليات

٣٨٥ - ٣٩٨

المحتوى

٣٩٩ - ٤٤٩

- ٤٠١ ١- الآيات القرآنية
- ٤٠٥ ٢- الأحاديث والآثار
- ٤٢٠ ٣- الأعلام
- ٤٣٢ ٤- المراجع
- ٤٣٧ ٥- الموضوعات

تم بحمد الله

تم الإخراج بشركة غراس للطباعة والنشر والتوزيع

- هاتف ٢٤٨١٩٠٣٧ - ٢٤٨٤٤٧٤٣ فاكس ٢٤٨٣٨٤٩٥ بدالة المطبوعات ٢٤٨١٠٠١٠ - الكويت